مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السادسة والعشرون . العدد ٢٩٠ . شوال ١٤٣٢ هـ . سبتمبر ٢٠١١ م

الشعب السوري
يفكك مؤسسات القمع

الدليل العقلي
عند السلف

مساجد تونس في رمضان
من القيود إلى ثورة العبادة

حرب الأفكار...
(جولة جديدة)

تناول النوازل على المنابر

مستشفى أبها الخاص
Abha Private Hospital

http://www

الآن...
موقعنا الإلكتروني
في ثوبه الجديد

www.aph.med.sa

- الحجز
- الأطباء
- التخصصات الطبية
- الاتصال ....

كلها الآن على موقعنا الإلكتروني

مجلة
البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

الافتتاحية

٤ حرب الأفكار... (جولة جديدة)
التحرير

الشريعة والعقيدة

٨ تناول النوازل على المنابر
إبراهيم بن محمد الحقيل

١٦ الدليل العقلي عند السلف
عيسى بن محمد النعيمي

السياسة الشرعية

٢٤ الدستور الإسلامي
محمدبن شاكر الشريف

الغرب: قراءة عقدية

٢٨ تحريف التوراة... متى وكيف؟ (٣ - ٣)
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٣٠ من فضلك... أَفْسِح المجال
منصور باوادي

قضايا تربوية

٣٢ اقتران العلم والإيمان في القرآن حِكَمٌ وأسرار
د. توفيق علي زبادي

٣٨ وصايا الآباء للأبناء... خواطر وتنبيهات
عبد العزيز مصطفى الشامي

قصة قصيرة

٤١ ثوب العيد
جميلة بحر

الإسلام لعصرنا

٤٢ نظرات نقدية في أُسس الأيديولوجية اللبرالية الغربية (٢ - ٢)
أ. د. جعفر شيخ إدريس

معركة النص

٤٤ مع نظرية المصلحة عند نجم الدين الطوفي
فهد بن صالح العجلان

عاجل إلى الإسلاميين

٤٧ السلاح السري
أحمد فهمي

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف المجاني: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

تحقيقات

٤٨ **التكامل بين الحركات الإسلامية في مصر**
جلال الشايب – جمال سالم

المسلمون والعالم

٥٤ **الشعب السوري يفكك مؤسسات القمع**
د. بشير زين العابدين

٥٨ **ليبيا... نحو فجر جديد** أحمد أبو دقة

٦٠ **مساجد تونس في رمضان من القيود إلى ثورة العبادة**
عاطف بن زينة

٦٢ **العراق وغزو من نوع جديد** د. أكرم المشهداني

٦٦ **مرصد الأحداث** جلال سعد الشايب

خاطرة أدبية

٧١ **اعتراف** عبد الصمد الإدريسي

عين على العدو

٧٢ **قراءة صهيونية لواقع الأحداث في سورية**
د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٧٤ **نظرية الفجور السياسي** رشيد شريت

اقتصاد

٧٨ **الهدي النبوي في التنمية...** مولاي المصطفى البرجاوي

تاريخية

٨٢ **الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية (الأندلس نموذجاً)** أنور محمود زناتي

قراءة

٨٦ **دليل المبتعث الفقهي للأستاذ فهد سالم باهمام**
أحمد النهدي

الباب المفتوح

٨٨ **ظاهرة العُنُوسة... الأسباب والعلاج** عبده قايد الذريبي

منتدى القراء

٩٢ **شهيد المنبر!** أحمد باز

الورقة الأخيرة

٩٤ **احتساب ابن تيمية على المتديِّنة!**
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

ثورة المساجد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، أما بعد:

فلماذا لم تنجح – ولن تفلح بإذن الله – حملة القمع والإبادة الوحشية التي يمارسها النظام السوري بحق أهلنا في سورية الآن كما نجحت حملة حافظ الأسد على مدينة حماة في عام ١٩٨٢م؟

هل لأن الحملة الحالية أقل عنفاً وقهراً واستبداداً؟ أم أن حافظ الأسد كان أكثر قوة ودهاء؟

الحقيقة أن ثورة حماة عام ١٩٨٢م كانت ثورة نخبوية لفئة من الشعب، وفي منطقة محدودة من الأرض السورية، يسهل حصارها ثم إبادتها. أما الآن فالثورة ثورة شعب بأكمله بكل شرائحه الاجتماعية وطبقاته الفكرية، إنها ثورة كل المدن والقرى والضواحي.

لقد أدرك أهلنا في سورية أنَّ الكرامة لا تُستجدَى، ولكن تُنتَزَع بالصبر والتضحيات، وها نحن نرى قوافل الشهداء تترى؛ يزداد تتابُعها يوماً بعد آخر.

كان رمضان هذا العام ذا طعم آخر في سورية؛ فالمظاهرات تنطلق من المساجد، وصلاة التراويح تحيي الهمَّة والعزيمة في نفوس المصلين، وآيات القرآن العظيم تملأ نفوسهم شجاعة وثباتاً. لذلك حُقَّ لهذه الثورة أن تسمى بـ (ثورة المساجد)؛ ولهذا لم يتردد هذا النظام القمعي في قصف المساجد وترويع المصلين، وانتهاك حرمة بيوت الله، سبحانه وتعالى. وغفل عن أنَّ ذلك العمل المشين من أعظم وقود الثورة.

وعلى الرغم من كل هذا الاستبداد والتسلط والإجرام الذي يمارسه النظام السوري بحق أهلنا هناك، إلا أننا نشعر بتفاؤل كبير؛ فالشعب السوري أثبت صلابة كبيرة، وإقداماً مشرِّفاً، حتى وهو يرى الخذلان يحيط به من كل مكان!

ومما يحيي التفاؤل أيضاً: سقوط النظام القمعي الظالم في ليبيا، الذي مارس كلَّ ألوان الاستبداد والقتل والتدمير، وسلَّط ترسانته العسكرية والأمنية لقمع الشعب ومصادرة حريته، لكن ذلك كلَّه لم ينفعه، وتهاوى خاسئاً ذليلاً؛ فهل من معتبِر؟

نسأل الله – تعالى – أن يجعلَ للمسلمين من أمرهم يسراً، وينصرَهم على القوم الظالمين.

حرب الأفكار...

(جولة جديدة)

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فقد مضت نحو عشر سنوات على الغارة الأمريكية على العالم الإسلامي في شقها النظري الذي أطلقت عليه واشنطن وصف (حرب الأفكار)؛ تلك الحرب التي اعتُبِرَت مكمِّلَة للشق العسكري من الغارة، وهو الذي استهدف كلاً من أفغانستان ثم العراق ثم تعرقل وتعطل برحمة من الله عن بقية البلدان. وقد وضع الأسس الفكرية لحرب الأفكار (لويس باول) في بداية السبعينيات الميلادية من القرن العشرين لمواجهة الفكر الشيوعي المناوئ للرأسمالية الغربية، ثم عمل (وليام كروز) على تشغيل هذه الأسس من خلال مراكز بحثية للغرض نفسه.

وبعد سقوط الشيوعية واحتياج أمريكا لاصطناع عدوٍّ بديل، توجهت أنظار تجار الحرب الغربيين نحو الإسلام ليكون هو الندُّ الجديد في صراعات القرن الجديد، وأطلق وزير الحرب الأمريكي في عهد بوش الابن (دونالد رامسفيلد) موجة جديدة من (حرب الأفكار) عندما قال في حديث لصحيفة الواشنطن بوست في (٢٠٠٣/٣/٢٧م) إبَّان غزو العراق: «نخوض حرب أفكار مثلما نخوض حرباً عسكرية، ونؤمن إيماناً قوياً بأن أفكارنا لا مثيل لها» وأضاف: «إن تلك الحرب تستهدف تغيير المدارك، وإن من المحتم الفوز فيها، وعدم الاعتماد على القوة العسكرية وحدها».

وقد نصت الورقة الرئيسية لاستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت على أن أحد أهم أدوات أمريكا في نشر مبادئها في الشرق الأوسط هو (شن حرب أفكار) مع اللجوء للخيارات العسكرية عند الحاجة. حتى إن وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (كونداليزا رايس) عبرت عن قلقها من انهماك أمريكا في تلك (الحرب الصليبية الفكرية) إلى جوار انغماسها في ما أسماه بوش (الحرب الصليبية) العسكرية، فقالت في مقالة لها في الواشنطن بوست (ديسمبر ٢٠٠٥م): «إننا ضالعون في حرب أفكار أكثر مما نحن منخرطون في حرب جيوش».

لكن يبدو أن تلك الحرب الفكرية لم تحقق الأهداف التي رُسمَت لها في سنوات حكم الحزب الجمهوري الثماني بزعامة جورج بوش الابن، تماماً كما كان الشأن في الحرب العسكرية، وقد عبَّر عن ذلك (رامسفيلد) نفسه عندما قال في تصريح له ١٦ فبراير ٢٠٠٦م: «إن أمريكا تخسر حربها الدعائية والفكرية ضد التشدد الإسلامي... ينبغي لنا أن نبحث عن وسائل أخرى بديلة لكسب عقول الناس في العالم الإسلامي». والنتيجة نفسها توصلت إليها في الأثناء ذاتها هيئة استشارية تابعة لوزارة الدفاع الأمريكية في تقرير لها عَزَا سبب الهزيمة في (حرب الأفكار) إلى تدخلات أمريكا في كثير من بقاع العالم الإسلامي، وهو ما تسبب في عدم تصديق أحد لوعودها بالحرية والديمقراطية.

وأشـــار تقرير عن نتائج حروب بوش – نشـــر عام ٢٠٠٧م عن البنتاغون – إلى أن أســـاليب حكومة بوش كانت فاشلة في إدارة حروب أمريكا في شِقيها (العسكري والفكري)، وجاء فيه: «إن الولايات المتحدة الأمريكية قد تورطت في صراع عالمي بين الأجيال بشأن المعتقدات والأفكار، ولم يعد هذا الصراع قاصراً على مواجهة بين الإســـلام والغرب فقط، بل بين الغرب وبقية العالم».

وفي عام ٢٠١٠م، اســـتضاف معهد واشـــنطن لسياسات الشرق الأدنى بنيويورك رئيس الوزراء البريطاني الأسبق (توني بلير) لأجل تكريمه باعتباره مفكراً ورجل دولة، فكان من ضمن حديثه أن تكلم عما وصفه بأنه (هزيمة استراتيجية للغرب في صراعه الفكري مع العالم الإسلامي)، وشرح أسباب ذلك وقال: إن مناهج التعليم في البلدان الإســـلامية هي المحرك الأساسي للتطرف الفكري.

إن الحديث عن (حرب الأفـــكار) ظل موصولاً بعد وصول الديمقراطيين للسلطة في أمريكا بزعامة (باراك أوباما)، الذي قال فـــي كتابه (جرأة الأمل): «إن أمريكا تخوض في الشـــرق الأوســـط صراعاً مســـلحاً، وتخوض في الوقت نفســـه حرب أفـــكار». وقد أصـــدرت إدارته تعليماتها ببـــذل جهود جديدة ومبتكرة في حرب الأفكار ضد «الإسلام المتشدد»، ولكن رئيس هيئة الأركان المشـــتركة الأمريكية انتقد في مقال لمجلة القوات المسلحة الأمريكية الأداء الأمريكي في تلك الحرب وقال: «يسود اعتقاد واسع أن أمريكا تخسر حرب الأفكار، بدليل أنها تفشل في كل مرة في الالتزام بالقيم التي تنادي بها، ولا تنفِّذ تعهداتها؛ فتبدو في الصورة التقليدية لـ (الأمريكي المتعجرف)»!

معطيات جديدة:

أبرزت الشهور الفائتة من عام (١٤٣٢هـ / ٢٠١١م) معطيات جديدة في ميدان حرب الأفكار بعد الثورات العربية، وبخاصة في تونس ومصر، يُتوَقع أن تعيد لها اندفاعها وامتدادها، ولكن على وتيرة مختلفة، وهذه المعطيات هي:

١ – بروز دور القوى الإســـلامية في الثورات بما يرشحها لأدوار رئيسية في عمليات التغيير وَفْقَ المشروع الإسلامي الذي طالما أصرَّ الغربيون وأذنابهم على منعه أو إفشاله.

٢ – انطلاق أشبه بالانفلات في حرية التعبير؛ فتح الأبواب لدعاة الباطل مثلما فتحه لدعاة الحق، وهو ما يرشح لسجالات فكرية ســـاخنة، لن يفوِّت الغربيون عامـــة والأمريكيون خاصة فرصة اهتبالها لدعم وكلائهم من أوليائهم في (حرب الأفكار) بكل أنواع الدعم.

٣ – انشـــغال شـــعبي عن الاهتمام بالخطـــر الخارجي (الصهيوصليبي) الذي استحوذ على جُلِّ الاهتمام خلال العقد الأول من الألفية الثالثة، مع انشـــغال تام بالشـــؤون الداخلية، وطبيعة التغيير القادم فـــي كل بلد، بما يورثه من خلافات في الرؤى واختلافات في المواقف، يدور جزء كبير منها حول الموقف من تحكيم الشريعة في حاضر البلدان ومستقبلها.

٤ – بروز إعلامي واضح للاتجاهات الإسلامية، مع ظهور اختلافات في وجهات نظرها في صيغ التغيير، وهو ما أســـفر عن تجســـيد الاختلاف بين فصيلين رئيســـيين، هما: الإخوان المسلمون، وبقية التيارات الســـلفية، وهو ما يمثل موقفاً يمكن اســـتغلاله في تعميق هوة مصطنعة بين ما يســـمى (الإسلام المتشدد) وما يسمى (الإسلام المعتدل).

٥ – صعود سياســـي غير متوقَّع للتيارات الســـلفية، أجبر أنواع المخالفين لها أن يُظهِروا خلافهم بل عداوتهم، لطروحاتهم في صور فكرية متلونة وفجة، تأتي تارة من الليبراليين المتغربين، وتارة من اليســـاريين، وتارة من منحرفي الصوفية ومن الشيعة الجدد وفلول النظام البائد.

٦ – زيادة حدَّة تلك الاستقطابات الفكرية بين جميع الاتجاهات، وهـــو ما يتيح الفرصة لتكريس تصنيفـــات فكرية للمجتمعات التي تشـــهد الثورات على أسس قريبة لما بَنَت عليه دراسات معهد (راند الأمريكي) خططها، وهذه الاتجاهات هي: الاتجاه العلماني بأقسامه (الليبرالي واليســـاري والقومـــي)، والاتجاه الإســـلامي بأنواعه: الســـلفي (وهو يعني المتشـــدد عندهم) و (التقليدي) وهو المنسوب للجهات الرسمية، و (المعتدل) ويقصدون به الاتجاه السالك مسلك الترخص في بعض السياسات الشرعية ويمثله بعض الإخوان ومن تأثر بنهجهم.

٧ – احتمال تحول الحَراك السياسي إلى عراك فكري بين الإســـلاميين وغيرهم من العلمانيين من جهة، وبين الإسلاميين بعضهم بعضاً من جهة أخرى، وهذا الحَراك أو العراك مرشح للتفاعـــل أكثر وأكثر بعد الدخول في اســـتحقاقات المنافســـة الحزبية على مواقع التأثير السياسي.

إن كل تلك المعطيات ســـتتيح لمن يريـــدون اللعب بالخيوط من وراء ســـتار، أن يدشنوا مرحلة جديدة من (حرب الأفكار)؛ لكنها ســـتتحول هذه المـــرة – بل تحولت بالفعـــل – إلى حرب بالوكالة؛ حيث ينيب الأمريكيون والغربيون عملاءهم في داخل

البلدان الثائرة، لينفِّذوا بشكل حرفيٍّ كلَّ ما ورد في تقارير مؤسسة (راند) الأمريكية للأبحاث التابعة لسلاح الجو في البنتاغون الأمريكي، تلك المستهدفة جميعِها للثوابت الإسلامية؛ لتغييرها وتحريفها على غرار تحريف اليهودية والنصرانية.

ومن هذه التقارير:

• تقرير (راند) لعام ٢٠٠٢م عن (الإسلام المدني الديمقراطي... شركاء وموارد واستراتيجيات)؛ وهو الذي يقسم المسلمين إلى (أصوليين) و (تقليديين) و (حداثيين) و (علمانيين)

• وتقرير (راند) لعام ٢٠٠٤م عن (تكوين شبكات لأصحاب «الإسلام المعتدل») لمواجهة «الإسلام المتشدد».

• وتقرير (راند) لعام ٢٠٠٧م الذي انتهى للدعوة إلى مواجهة كل المؤمنين بمرجعية الشريعة الإسلامية، من «معتدلين» أو «متشددين».

إن مؤسسة راند وغيرها من (مراكز التفكير) في الغرب لا تقدم مجرد أراء نظرية في المجال الفكري فقط، بل تصنع دراسات تشبه الخطط العملية، أو خرائط طريق لصانعي القرار، وأبرز مثال على ذلك: أن مؤسسة (القرن الأمريكي) قدمت لإدارة بيل كلينتون (الديمقراطية) خطة للهجوم على العراق عام ١٩٩٧م، على أنها مقدمة للسيطرة الأمريكية على منابع النفط في الشرق الأوسط، باعتبار ذلك ضمانة لاستمرار أمريكا سيدةً للعالم في (القرن الأمريكي الجديد)، ولكن إدارة بوش (الجمهورية) تبنت ذلك المشروع، ونفذت تلك الخطة!

إن تقارير وخطط راند وغيرها قد تفشل ويتكرر فشلها؛ ولكنها تظل في انتظار ظروف مواتية، لتعيد الكرة، وتجدد الجولة، بوسائل جديدة ووجوه جديدة، وصدق الله ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

والمتأمل في مجريات (حرب الأفكار) في جولتها الأخيرة يلاحظ أن وكلاء أمريكا يتحاورون مع الإسلاميين بالخطوط والخطط نفسها التي رسمتها تقارير (راند)؛ ليتم فرز هؤلاء الإسلاميين إلى «معتدلين» و «متشددين»، ولتبدأ بعد ذلك السلسلة التقليدية في تشويه مشروع هؤلاء «المتشددين» ثم إقصائهم ثم إلغائهم.

والسلفيون جميعاً يقعون داخل دائرة (المتشددين) شاؤوا أَمْ أَبَوا؛ بحسب معايير مراكز الفكر في أمريكا، بل يدخل معهم كثيرون مما سبق تصنيفهم بأنهم «معتدلون».

وَلْنتأمَّل مثلاً: تلك الدراسة التي قدمتها مؤسسة راند عن «الإسلام المعتدل»، والتي تضمنت ١١ سؤالاً «يُختَبَر» بها الشخص أو الكيان، ليُعرَف هل يمكن تصنيفه ضمن المعتدلين المفيدُ تقريبهم، أم بين المتشددين الواجبُ حصارهم و إقصاؤهم؟ وَلْنتأمَّل في الوقت نفسه؛ كيف يدير الإعلام العَلماني العربي الحوار مع الإسلاميين على اختلاف توجهاتهم على أساس الأحد عشر سؤالاً هذه، التي تصوغ معايير الاعتدال أو (الوسطية) بالمقاييس الغربية والأمريكية، بفحواها أو بنصها.

وهذه الاسئلة هي:

١ – هل توافق على أن الديمقراطية بصيغتها الغربية القائمة على فصل الدين عن الدولة، هي الصيغة المثلى للحكم؟

٢ – هل توافق على أن الديمقراطية تعني قيام دولة مدنية، (يعني علمانية)؟

٣ – هل تسلِّم بأن الفرق بين المسلم المعتدل والمسلم غير المعتدل هو موقفه من تطبيق الشريعة؟

٤ – هل تعتبر الواقع (الحر) للمرأة الغربية المعاصرة هو الوضع الأمثل أم لا؟

٥ – هل توافق على «نبذ العنف» – يعني الجهاد – وهل دعمته من قَبْل أو دافعت عنه؟

٦ – هل تقبل القيم الليبرالية الداعمة إلى الحرية المطلقة للإنسان، والاقتصاد الحر، (يعني الربوي)؟

٧ – هل توافق على استثناءات في حرية الإنسان؟

٨ – هل تؤمن بحق الإنسان في تغيير دينه؟

٩ – هل تعتقد بوجوب تطبيق العقوبات الجنائية في الشريعة الإسلامية وبتعدد مصادر التشريع؟

١٠ – هل ترضى بتولي الأقليات الدينية غير المسلمة بمناصب عليا في الدولة؟

١١ – هل تؤمن بحرية بناء المعابد لغير المسلمين في بلاد الإسلام؟

إننا إذا تأملنا في هذه الأسئلة فسنكتشف للوهلة الأُولَى أنها الأسئلة نفسها التي لا يمل أصحاب البرامج الحوارية في الوسائل الإعلامية العربية من طرحها بصيغ مختلفة على الإسلاميين أصحاب التأثير الجماهيري، أو هؤلاء الذين يرشحون أنفسهم لمناصب سياسية مؤثرة في بلدانهم، كالمناصب النيابية أو الرئاسية، وللأسف الشديد فإن كثيراً ممن يخضعون لهذا (الاستجواب) يرسبون في الاختبار حتى قبل أن تطرح عليهم تلك الأسئلة المكرورة؛ وذلك بقبولهم الجلوس ابتداءً مجلس «الامتحان» أمام الإعلامي (العلماني)! ولرضاهم بموقف الاسترضاء المتنازل، أو الاستخذاء والاستخفاء بأمور الشعائر والشرائع، خشية أن يصنَّف أمام الناس بأنه (متشدد)!

بعضهم أولياء بعض:

من اللافت للنظر أن مجريات حرب الأفكار الجديدة انضمت إليها فصائل أخرى غير الليبراليين معادية للتوحيد وأهله، أو معادية للسُّنة وأهلها؛ فالساحة في بلدان كمصر وتونس - وحتى في البلدان التي لا تزال عمليات التغيير فيها غير منتظمة - تشهد تحالفاً (غير مقدس) بين الأقليات غير المسلمة وشواذ المتشيعة والمتصوفة وبعض المذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ ليقفوا جميعاً في الصفوف الأُولَى للمعارك الفكرية ضد الاتجاهات الإسلامية، وبخاصة السلفية، وهذا مشهد يشهد لجلال منطق الوحي القرآني العظيم عندما قرر مسبقاً أن أرباب النفاق يتحالفون ضد الدين، كما يتحالف أولياء الشيطان من الكتابيين والمرتدين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

إننا لنعجب - مثلاً - كيف ساغ لأدعياء محبة رسول الله ﷺ وأهل بيته من المتصوفة والمتشيعة أن يتحالفوا مع نصارى وناصريين وليبراليين ويساريين، ليقفوا جميعاً منادين بدولة مدنية (أي علمانية) في بلد كمصر؛ اختار شعبها بأغلبية ساحقة عدم إلغاء مرجعية الشريعة من الدستور! إنه مشهد قابل للتكرار في أقطار أخرى؛ لأن اليد التي تحرك خيوط هذه الدمى واحدة.

فتش عن راند؟

بعد ما بدأت مؤسسة (راند) حربها لبناء شبكة من (المسلمين المعتدلين) في تقريرها الصادر عام ٢٠٠٤م، عدَّلت في خطتها عام ٢٠٠٧م لتضع كلَّ من يقبل بمرجعية الشريعة في تصنيف (التطرف).

واعتبرت أهل الاعتدال هم: الليبراليين العلمانيين الذين يؤمنون بفصل الدين عن الدولة؛ بل عن الحياة، وكذلك الصوفية القبورية، والمنتسبين لما يسمى بـ (الإسلام الليبرالي) المنادي بالتصالح (غير المشروط) مع الغرب، وأيضاً غير الدينيين الأشبه بالأتاتوركيين.

وذهب ذلك التقرير الصادر قبل الثورات بأربع سنوات إلى أن خير وسيلة لضرب التيارات الإسلامية الداعية لمرجعية الشريعة، هي صناعة وإنشاء أعداء لهذه التيارات في داخل البلاد الإسلامية إذا لم يوجدوا، ودعمهم إن كانوا موجودين بكل وسائل الدعم المادي والمعنوي.

وقد لوحظ في الآونة الأخيرة، أن الولايات المتحدة تسابق الزمن في التمكين لجبهة سياسية واقتصادية وإعلامية علمانية، كارهة ورافضة للشريعة الإسلامية في البلدان العربية بعد الثورات؛ تخوض من ورائها الجولة الجديدة من (حرب الأفكار) التي تحاول إحلالها محل حروب الحديد والنار؛ تلك التي قرَّبت أمريكا من حتفها عسكرياً، وأذلت كبرياءها سياسياً، وأفرغت خزائنها اقتصادياً.

المجابهة الفكرية:

إن الإسلاميين عامة والسلفيين خاصة؛ مدعوون للتسلح بكل الأسلحة الفكرية لتلك الجولة الشرسة من حرب الأفكار، إنها (معركة الشريعة) لا لأجل تطبيق الممكن منها بحسب مقتضيات السياسة الشرعية فحسب؛ ولكن لأجل تثبيت الإيمان بمرجعيتها التي لا إيمان لمن لا يؤمن بها، كما قال - سبحانه -: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

إن أكثر الداخلين أو الداعمين لحزب الشياطين المناوئ لمرجعية الشريعة، يدَّعون في الوقت ذاته أنهم يؤمنون بالله ربّاً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً. وفي معركة مع مثل هؤلاء؛ لا بد من حشد جهود الباحثين والعلماء والدعاة والمفكرين لخوض غمار تلك الحرب بالوسائل الشرعية، المدعومة بالإمكانات التقنية والمادية في مراكز تفكير مضادة، ولن يكون هناك سلاح يُستعان به أنجح من القرآن الذي أمر الله بالتسلح به في هذا «الجهاد الفكري» في قوله - سبحانه -: ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، والآية وإن كانت في الكفار، إلا أن من يجادل في مرجعية وحاكمية القرآن يأخذ حكمهم فيجُاهَد جهادهم.

إن كتاب الله هو عُدَّة كلِّ مسلم في مواجهة (حرب الأفكار) المفروضة، بأهدافها المرفوضة؛ لأن النص القرآني فيه من قوة الحجة وفصل البيان ما يلجم ألسنة المتطاولين ويبطل حجج المجادلين. فَلْنجاهد هؤلاء وهؤلاء بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ أي جهاداً مؤصلاً متواصلاً، ما داموا متواصين على حربه، متواصلين على عداء أهله، والله المستعان.

إبراهيم بن محمد الحقيل

من المتفق عليه بين المسلمين أن خطبة الجمعة شُرِعَت لتذكير الناس بما نسوا من أمر دينهم، وتنبيههم على ما غفلوا عنه، وتعليمهم ما جهلوا منه، وإرشادهم لما فيه صلاحهم، ووعظهم لترقيق قلوبهم؛ فكل أولئك من مقاصد خطبة الجمعة.

وإذا نزلت بالناس نازلة لها مساس بدينهم أو دنياهم فإن خطباء الجمعة من جملة مَن يُهرَع الناس إليهم، ويريدون رأيهم فيها؛ حتى إنهم يفرحون بتطرُّق الخطيب للنازلة، وينزعجون من تجاهله لها؛ ولذا فإنه لا بد للخطيب من العناية بفقه النوازل، وكثرة القراءة فيه، والتأمل الكثير في النازلة، وسؤال أهل العلم والاختصاص بها، وعرض تأملاته تجاهها عليهم، وأخذ ما لديهم من علم ومعرفة بها مما ليس عنده.

وهذه المقالة تحاول استقراء النوازل التي تهم الخطباء، ولها مساس بخطبة الجمعة، وتقسيم هذه النوازل باعتبارات عدة، مع مقترحات لكيفية تعامل الخطيب معها؛ فإني لم أقف على من عالجها على هذا النحو الذي أرى أن الخطيب يحتاجه رغم تعدد البحوث والمقالات في النوازل.

(*) أكاديمي بجامعة أم القرى.

تناول النوازل على المنابر

أقسام النوازل باعتبار مصدرها:

تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: النوازل الكونية التي لا يد للبشر فيها: كالزلازل والأعاصير والفيضانات ونحوها.

القسم الثاني: النوازل التي وقعت بسبب البشر: كالحروب، ونشر الأوبئة، والتلاعب الاقتصادي والبيئي ونحو ذلك.

أقسام النوازل باعتبار انتشارها:

تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: نوازل محدودة: كالتي تصيب بلداً أو طائفة من الناس، مثل الزلازل التي تصيب بلداً فهي نازلة بالنسبة لمن أصابتهم.

القسم الثاني: نوازل محلية وإقليمية: وهي التي تصيب أهل دولة أو إقليم كامل، مثل سقوط قيمة العملات في شرق آسيا قبل سنوات، ومثل كارثة الأسهم في دول الخليج وخاصة في المملكة العربية السعودية.

القسم الثالث: نوازل دولية: وهي التي تعم الدول، ويتأثر بها أكثر البشر، مثل موجة الغلاء التي اجتاحت العالم، ومثل أنفلونزا الخنازير التي دخلت أكثر الدول.

أقسام النوازل باعتبار أنواعها:

أظن أنه لا يمكن حصر أنواع النوازل؛ إذ بالإمكان أن تكون النازلة في أي مجال من المجالات، ولكن يمكن وضع تقسيم كلِّي أغلبِي تندرج تحته أكثر النوازل:

النوع الأول: نوازل كونية: كالزلازل والفيضانات والغرق.

النوع الثانـــي: نوازل سياســـية: كاحتلال بلد مســـلم، أو تقسيمه، أو فصل بعضه عنه.

النوع الثالث: نوازل اقتصادية: كالكساد والغلاء.

النـــوع الرابع: نـــوازل بيئية وصحية: مثل تلـــوث الأجواء والبحار، وانتشار وباء في بلد من البلدان.

النوع الخامس: نوازل إعلامية وثقافية: فإن البث الفضائي، وشـــبكة المعلومات، وما يعرض فيها مـــن فحش وعري وأفكار هدامة يعد من النوازل العظيمة.

أقسام النوازل باعتبار زمنها:

يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة:

القســم الأول: نوازل وقتيـــة (أو مداها قصير): كالزلازل والبراكـــين والفيضانـــات ونحوها، وهذه لا بـــد للخطيب من معالجتهـــا؛ لأن وقتها يفوت، وإذا أتى بهـــا في غير وقتها كان تأثيرها في الناس ضعيفـــاً؛ فمثلاً إذا وقع زلزال، ورأى الناس آثاره وضحاياه في الشاشـــات، ونقلـــت إليهم قصص الناجين والمصابين، وحجم الدمار وعدد القتلـــى فإنهم يتأثرون بذلك، ويخافون أن يصيبهم ما أصاب غيرهم، فعلى الخطيب أن يهتبل هذه الفرصة؛ لقرب الحدث، واستعداد المصلين للتأثر الإيجابي بما يلقيه الخطيب عليهم.

القســم الثاني: نوازل مرشـــحة لزمن أطول؛ مثل الحروب التي تمس المسلمين، والأوبئة، والأزمات المالية، وهذه تحتاج إلى أكثر من خطبة في معالجتها؛ لأنه يغلب على الظن أنه تمتد إلى أشهر وربما جاوزت ذلك إلى سنوات.

القســم الثالث: النوازل المزمنة، وهي التي تمتد إلى عقود، وأوضـــح مثال عليها احتـــلال اليهود لبيت المقـــدس، كما كان احتلال الصليبيين له نازلة امتدت تســـعين ســـنة في القرنين الرابـــع والخامس الهجريـــين، ولم يهدأ للمســـلمين بال حتى طهروه من رجـــس الصليبيين. وكان للعلماء أثر كبير في تهييج الأمة ضـــد العدوان الصليبي آنذاك، وكانـــت خطب ابن نباتة – رحمه الله تعالى – دافعاً شـــحن نفـــوس الناس وعواطفهم لمقاومة المد الصليبي؛ ولذا فإن من أهم وسائل العدوان الغربي وذيلـــه الليبرالي العربي تكثيف الهجوم علـــى الدعوة والدعاة والمحاضرات والمنابر؛ لإضعافها عن القيام برسالتها في تنمية الحس الإســـلامي تجاه قضايا الأمة، وتخدير المسلمين، وإماتة شـــعورهم تجاه قضاياهم، والقضاء على كل وســـيلة تحفزهم لمقاومة العدوان على الإسلام والمسلمين.

والدعـــوة الليبرالية للانكفاء على الأوطان، وعدم الاهتمام بشأن المســـلمين هو من ضمن مشروع إماتة إحساس المسلمين بقضاياهم؛ ليستفرد الأعداء بهم دولة دولة. والليبراليون أُجَرَاء في المشروع الاســـتعماري الصهيوني والصليبي؛ لأنهم يسوِّقون له تحت دعاوى نشـــر الحرية، ويطعنون فـــي مقاوميه متهمين إياهم بأنهم ضد الحداثة والتنوير، ويدعون القيادات السياسية للانكفاء علـــى مصالح الوطن بل مصالح الـــذات، وهذا يمثل انتحاراً سياســـياً؛ لأن الاجتماع قوة، والتفرق ضعف، وإذا أمن الأعداء من معارضة الدول الإســـلامية لاحتلال بعض البلدان شجعهم ذلك على احتلالها كلها.

وفي النوازل التي تطول أقترح ما يلي:

أولاً: عدم إهمالها بســـبب طول أمدها، ولا حصر الخطبة فيها على حســـاب موضوعات أخرى؛ فإن النازلة مهما عظمت فليست كل شيء.

ثانياً: من سمة النوازل التي يطول أمدها أن أحداثها تشتعل بين حين وآخر، فيناســـب أن يكون الحديث عنها حال اشتعالها بسبب حادثة وقعت أو تطور طرأ فيها.

ثالثـــاً: في مثل هذه النوازل يحتـــار كثير من الخطباء في الحديث عنهـــا؛ لأن غالب موضوعاتها مكرورة، وقد ســـئمها الناس مـــن كثرة الحديث عنها، وإن جعل الخطيب الخطبة في الســـبب الذي حرك النازلة أو الحدث الذي استجد فيها ربما انقلبت خطبته إلى تحليل سياسي، وهذا ليس جيداً في خطبة الجمعة التي ينبغي أن يحافظ الخطيب على ســـمتها الشرعي؛ ولـــذا فإنه لا بد من موضوع مفيد يكون أصلاً للخطبة له تعلُّق بالنازلة، وفي أثنائه أو بعده يعرج الخطيب على الحدث المتجدد في النازلة.

ومـــا من نازلـــة إلا ولها جوانب عدة يمكـــن للخطيب أن يتنـــاول في كل مرة جانباً من هذه الجوانب؛ ليجدد على الناس فلا يســـأموا موضوع النازلة، وليفيدهم بجوانب منها ما كانوا يعلمونها من قبل.

فمثلاً: قضية فلســـطين التي تمثل أطـــول نازلة معاصرة يســـتطيع الخطيب أن يتحدث في سلاســـل من الخطب عن: فضـــل القدس، وعن فتحه، وعن تاريخـــه، وعن صفات اليهود

في القرآن والسنة، وعن تاريخهم وأفعالهم مع رسلهم – عليهم السلام – وعن أفعالهم مع النبي ﷺ، وأحداثهم في السيرة النبوية، وعلاقتهم بالنصارى وتاريخهم معهم، وهذه الموضوعات الكلية يمكن تفتيتها إلى عشرات الخطب، وتكون أصلاً للخطبة التي سيتناول الخطيب النازلة فيها.

توجيهات عامة في النوازل:

التوجيه الأول: أن لا يتكلم الخطيب في النازلة إلا بعلم؛ سواء في ما يتعلق بها من أحكام شرعية، أو في الإخبار عنها، أو في إرشاد الناس لما يعملونه حيالها؛ فليست خطبة الجمعة مقالة في صحيفة أو مجلة يبث فيها الكاتب آراءه الشخصية، بل هي عبادة مشروعة، وتكتسب مصداقية عند الناس، فلا يحسن بالخطيب أن يهز هذه المصداقية، أو يستغل المنبر لبث آرائه الشخصية وهي لا تتسق مع النصوص، مع اشتراط امتلاكه للآلة العلمية في النازلة، فالخطأ يكون بسبب الجهل أو بسبب الهوى، فَلْيحذرهما الخطيب.

التوجيه الثاني: إذا استعصى على الخطيب فهم النازلة، أو تنزيل الأحكام الشرعية عليها؛ لشدة التباسها، وكثرة الخلاف فيها فلا يحسن به إهمالها بالكلية، وعليه أن يتلمس فيها مواضع الاتفاق، ومواطن العبرة والاتعاظ، وحينئذٍ لم يهمل النازلة بالكلية والناس يتشوفون لكلامه فيها، ولم يقل فيها بلا علم، ولعل أقرب الأمثلة على ذلك الثورات العربية التي اختلف فيها الناس اختلافاً كثيراً؛ فمنهم من أيدها بإطلاق، ومنهم من منعها بإطلاق، ومنهم من أيد بعضها ومنع بعضها باعتبار حال الحكام أو باعتبار حال المحكومين أو باعتبار من يحرك الثورة، أو باعتبار المستفيد منها... إلخ، وأحداث بهذه الضخامة هي حديث الإعلام والناس لا يحسن بالخطيب الإعراض عنها لحيرته فيها، وإنما يستطيع التطرق لما هو متفق عليه فيها مثل:

١ – قدرة الله – تعالى – في إعزاز من يشاء، وإذلال من يشاء، وأنه مالك الملك يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

٢ – عاقبة الظلم والأثرة، وأنهما سببان لاضطراب الدول، واختلال الأمن.

٣ – أهمية العدل في توطيد الأمن والاستقرار، وحاجة الناس إليه.

٤ – عاقبة الظالمين ومصارعهم في الدنيا والآخرة.

٥ – كثرة الفتن والاضطراب في آخر الزمان، وما ينبغي للمسلم في أحوال الفتن.

٦ – أسباب الأمن والاستقرار، وأسباب الخوف والاضطراب.

التوجيه الثالث: أن يفرق الخطيب في تناوله للنازلة بين بدايات وقوعها، وبين انتشارها وعموم البلوى بها؛ ليكون ذلك أدعى لقبول توجيهه للناس؛ فإن المعاصي يُنسِي المتأخر منها المتقدمَ حتى يألفها الناس، وإن الفتن يرقق بعضها بعضاً كما في الحديث، ومن الأمثلة على ذلك نازلة البث الفضائي؛ ففي بداياته حذر العلماء والخطباء من الأطباق الفضائية وحرَّموها،

وهو تحريم وسائل لا تحريم ذوات؛ فإنها لما كانت تفضي إلى المحرمات ولا يوجد بدائل من جنسها كان الصواب التحذير من جميعها، ولو وجد فيها قليل من البرامج النافعة؛ وذلك لغلبة المحرم فيها.

لكن لما نشأت القنوات الإسلامية، ووجدت قنوات علمية خيرها غالب، وشرها قليل، وقد انتشر هذا البلاء في الناس وصار جزءاً من حياتهم اليومية لم يكن من المناسب في الخطب إطلاق تحريم البث الفضائي وأطباق استقباله أو إطلاق تحريم التلفزيون، وهذا التناول سيكون محل استهجان وانتقاد عند أكثر العامة والخاصة، وهذا يؤدي إلى عزوف الناس عن الخطيب، وعدم قبول قوله، فتكون الاستفادة من خطبة الجمعة قليلة أو معدومة، وهذا ينافي مقاصدها التي شرعت لأجلها.

وأفضل من ذلك وأحرى بقبول الناس وبتحقيق المقصود دون تنازل عن شيء من الشريعة أو تسويغ المنكرات: التحذير من القنوات التي فيها انحراف فكري أو أخلاقي، أو التحذير من برامج منحرفة، ودعوة الناس إلى حجبها عن أسرهم وبيوتهم، وحثهم على الفضائيات النافعة للاستعاضة بها عن الضارة.

التوجيه الرابع: إن كانت النازلة فيها يد للكفار والمنافقين كالحروب التي يفتعلونها، أو الأزمات الاقتصادية التي يحدثونها في بلاد المسلمين فهي فرصة للخطيب في بيان العداوة الأبدية التي يكنُّها الكفار والمنافقون للمؤمنين، كما دل على ذلك كثير من الآيات القرآنية كقول الله – تعالى –: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله – تعالى –: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقوله – تعالى –: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وفي بيان كيدهم للإسلام وأهله، ومكرهم بهم قول الله – تعالى –: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله – تعالى –: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وقوله – تعالى –: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]، وقوله – تعالى –: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، وقوله – تعالى –: ﴿وَمَا كَيْدُ

الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر: ٢٥]، وقوله – تعالى –: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥].

وفي وجوب الحذر منهم قول الله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقوله – تعالى –: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

التوجيه الخامس: اجتهاد الخطيب في الربط على قلوب الناس وتثبيتهم، وتعليق قلوبهم بالله – تعالى – ودوام التمسك بدينه؛ وذلك في النوازل المخوفة التي لها مساس بأمن الناس وأرزاقهم، كما في النوازل السياسية والاقتصادية، ونوازل الكوارث والأمراض والأوبئة التي تفتك بالناس؛ فإن العقول تطيش فيها، وينحرف كثير من الناس بسببها في باب القدر، من هول الفاجعة، وفقد المال والأهل والولد، فيحتاجون إلى تثبيت وتصبير، وعلى الخطيب أن يركز الخطب في التوكل على الله – تعالى – وتعلق القلوب به وحده دون مَن سواه، وبيان الحِكَم في ابتلاءاته – سبحانه – لعباده، وكيف يواجهها المؤمن، والأجور العظيمة المرتبة عليها، وأسباب رفع العقوبات، وبيان الأحكام الشرعية المتعلقة بهذا النوع من النوازل مما تمس حاجة الناس إليه كأحكام الموت الجماعي في التغسيل والدفن والتوارث ونحو ذلك.

والفقه في هذا النوع من النوازل مما تمس حاجة الخطيب

له؛ لتكرار وقوعه، وشـــدة خوف الناس منه، وعودة كثير منهم إلى الدين بسببه، ولجوئهم إلى المساجد والخطباء لعلاج قلوبهم من الألم والخوف، ولأهمية هـــذا النوع من النوازل فلا بد من توجيهات تفصيلية فيه، ومن هذه التوجيهات:

أولاً: بيـــان أن هذه الكوارث والنوازل عقوبات لمن أصابتهم وكانوا ممن يستحق العقوبة، وابتلاء لمن لا يستحقونها، ورحمة وإنذار لمن ســـلموا منها، وتخويف لعموم الناس، وإظهار لقدرة الـــرب – جل جلاله – عليهم. قال الله – تعالى –: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾ [**الإسراء**: ٥٩] وهذا دليل على القدرة الباهرة لله – تعالى – أن يجعل في النازلة الواحدة رحمة وعذاباً وابتلاء وتخويفاً وإنذاراً.

وقد تصيب الكارثة مسلمين عقوبة لهم، ويسلم منها كفار ومنافقـــون؛ اســـتدراجاً أو إمهالاً أو ابتـــلاء للعباد؛ فإن الحق والباطل، والإيمان والكفر، ابتلاء يبتلي الله – تعالى – به عباده.

والناس في هذا الباب ثلاث فرق:

الفريـــق الأول: ينفي العقوبـــة في الأقدار الكونية، بل ربما جرَّدها من أفعال الرب – سبحانه وتعالى – ونسبها للطبيعة، أو يعزو تسليط الكفار على المسلمين، أو تسليط المسلمين بعضهم علـــى بعض إلى عوامل سياســـية أو اقتصاديـــة ملغياً الأبعاد الدينية والعوامل الشرعية، وهذه طريقة الملاحدة ومن وافقهم من العلمانيين والليبراليين، وللأســـف فإن بعض من ينتســـبون للتيارات الإسلامية أصابتهم هذه اللوثة المنتنة، فعجبوا من كون هذه الكوارث تصيب المســـلمين، أو تصيـــب الضعفة والفقراء، وأهل الفســـاد من أهل الغنى في منأى عنها، ومنهم من يتطاول فيزعـــم عدم وجود نص على ذلـــك، رغم توارد النصوص عليه حتى بلغت التواتر، ومنها: قول الله – تعالى –: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [**آل عمـــران**: ١٦٥]، وقولـــه – تعالى –: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [**الروم**: ٤١]، وقوله – تعالى –: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [**الشـــورى**: ٣٠]، وقوله – تعالى –: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [**يونس**: ٤٤]، وقولـــه – تعالى –: ﴿**وَمَـــا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَـــهُمْ**﴾ [**هود**: ١٠١]، وقولـــه – تعالى –: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ**﴾ [**الزخـــرف**: ٧٦]، وقوله – تعالى –: ﴿**وَمَا ظَلَمَهُـــمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [**النحل**: ٣٣].

والغالب أن أصحاب هذا الاتجاه يحكِّمون عقولهم القاصرة في أقدار الله – تعالى – ويوردون على الناس ما علق في قلوبهم من شبهات، ويظنون أن أفعال الرب – سبحانه – لا بد أن تتوافق مع أفهامهم الخاطئة، ومدركات عقولهم القاصرة، فيقولون: لماذا تقع هذه المصائب على المؤمنين ويســـلم منهـــا الكافرون؟ ولماذا تصيب الضعفاء ولا تصيب الأقوياء؟ وهل من المعقول أن يســـلم أهل الفســـاد العقدي والأخلاقي والإداري والمالي منها، وتصيب الكارثة ضحايا هذا الفساد ولا يد لهم فيه؟ كما قالوه في نازلة غرق جدة.

الفريـــق الثـــاني: يجزم بالعقوبة في كل حدث ويركز عليها، ويهمل جوانب الابتلاء والرحمـــة والتخويف والإنذار، بل يبالغ بعضهـــم في ذلك فيقع في أخطاء فاحشـــة تؤخذ عليهم، وفي إعصار كاترينا ســـمعت أحد الدعاة في مسجد يفتتح موعظته بقول الله – تعالى –: ﴿**وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّـى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ**﴾ [**الرعد**: ٣١] ويجزم بأن مثـــل هذه الأعاصير المدمرة لا تصيب المســـلمين لإيمانهم، بل هي مختصة بديار الكافرين، ونســـي أن تســـونامي قد أصاب بلداً مســـلماً، وأن الزلازل كانت ولا زالت تدهم كثيراً من بلاد المســـلمين كما تصيب الكافرين، ومثل هـــذا الحديث المجافي للواقع يفقد الخطيب المصداقية.

الفريـــق الثالث: فريق التوســـط والاعتدال، الذين عندهم أصول شرعية يســـتندون إليها، ولا يحكِّمون عقولهم في أقدار اللـــه تعالى، ومن هـــذه الأصول العظيمـــة: أن الله – تعالى – لا يظلـــم أحداً، وأن أفعاله – ســـبحانه – بين العدل والرحمة، ورحمته تسبق غضبه، ويؤمنون أن البشر كلهم مستحقون لعذاب الله – تعالى – لأنهم مقصرون في شكر الله – تعالى – ويكفرون نعمه – ســـبحانه – عليهم على تفاوت بينهم في ذلك، وقد جاء في الحديث:«كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْـــرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١]، وقال ﷺ: «لو أَنَّ الله عَذَّبَ أَهْلَ ســـماواته وَأَهْلَ أَرْضِه لَعَذَّبَهُمْ غير ظَالِمٍ لهـــم»[٢]. وروى أَبو هُرَيْـــرَةَ – رضي الله عنه – عن رَسُـــول الله ﷺ أنه قال: «لَوْ يُؤَاخِذُنِي اللهُ وَابْنَ مَرْيَمَ بِمَا جَنَتْ

(١) رواه من حديث أنس – رضي الله عنه –: الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجة (٤٢٥١) وصححه الحاكم: ٤/ ٢٧٢.

(٢) رواه من حديث زيد بن ثابت – رضي الله عنه –: أبو داود (٤٦٩٩) وابن ماجة (٧٧) وصححه ابن حبان (٧٢٧)

هَاتَانِ يَعْنِي الإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا لَعَذَّبْنَا ثُمَّ لَمْ يَظْلِمْنَا شَيْئًا»[1].

ثانياً: عدم الجزم بكرامات لم يقف عليها الخطيب بنفسه، أو تكون مما هو معتاد فيضخمها الناقل ويزيد عليها، خاصة في قصص الناجين؛ لأن الغرائب في قصص الناجين قد تقع للمسلم والكافر، والبر والفاجر، ولا تختص بأهل البر والتقوى لحِكَم يريدها الله تعالى. وما يخفى علينا من أسرار أفعال الله - تعالى - ومقاديره في البشر أكثر مما نعلم. وقد يجزم الخطيب بكرامة في نازلة فيذكر الخصوم مثلها للكفار فيكون في ذلك فتنة للناس، وأذكر في إعصار تسونامي أن أحد الدعاة الفضلاء نشر صورة لمسجد لم يمسه شيء من الدمار، وانتشرت الصورة في الإنترنت، فنشرت صحيفة علمانية صورة لكنيسة لم تُصَب أيضاً فكان في ذلك فتنة لبعض الناس، ففسر بعض الدعاة ذلك فقال: لأن الكنائس مكان عبادة الله - تعالى - وتعظيمه فلعلها لم تصب لأجل ذلك! وغفل هذا الداعية عن كون الكنائس مقراً للشرك بالله - تعالى - وعبادة المسيح وأمه عليهما السلام. وسبب الوقوع في هذا الخطأ الشنيع هو التكلف في تلمس الكرامات، والجزم بها.

ثالثاً: الاستدلال بالنازلة على قدرة الله - تعالى - وقوّته، وأنه - سبحانه - إن أهلك بعض من حلت بهم الكارثة فهو - سبحانه وتعالى - قادر على أن يهلك البشر أجمعين، وأن يبدل بهم غيرهم كما قال - تعالى -: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقال - تعالى -: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩ - ٢٠]، وقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال - تعالى -: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦١]، وقال - تعالى -: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

وفي قدرته - سبحانه - على عباده. قال - تعالى -: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥].

رابعاً: التخويف من الذنوب وآثارها السيئة على الأفراد والجماعات، وأنها سبب كل مصيبة تحل بالناس؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وهذا قانون رباني، وسنة قدرية أن الله - تعالى - لا يصيب العباد إلا بما اقترفوا من العصيان.

خامساً: دعوة الناس إلى التوبة ومحاسبة النفس؛ فإن أثر النازلة لا يزال في قلوبهم، ويخشون أن يصيبهم ما أصاب غيرهم، مع بيان أن التوبة والاستغفار والدعاء أسباب لرفع العذاب كما قال الله - تعالى - في التوبة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] وقال - سبحانه - في الاستغفار ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وقال - تعالى - في الدعاء: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

سادساً: تلمُّس لطف الله - تعالى - ورحمته بعباده، ونعمته عليهم، حتى على المصابين منهم؛ إذ لم يكن الأمر أشد مما أصابهم، والله - تعالى - قادر على أن يصيبهم بما هو أشد وأعظم وأكثر خسارة وضرراً، وتذكير الناجين من النازلة ومن لم تصبهم بنعمة الله - تعالى - بالنجاة.

سابعاً: دعوة الناس إلى مواساة أهل النازلة إن كانوا من المسلمين، والوقوف معهم مادياً ومعنوياً لتخفيف مصابهم، وإشعارهم بالأخوة الإيمانية. والدعاء لهم على المنابر تأسياً بالنبي ﷺ لما دعا على المنبر لما نزلت نازلة الجدب والحاجة بالناس، ثم دعا على المنبر أخرى لما غرقت الأرض وتضرر الناس.

ثامناً: إذا كانت النازلة مما له تعلُّق بتغيُّر الأحوال الكونية فهي فرصة للتذكير بيوم القيامة، وما يجري فيه من تغيرات في الكون جاءت أوصافها في كثير من السور كالواقعة والقيامة والتكوير والانفطار والانشقاق وغيرها.

تاسعاً: إن كانت النازلة كارثة نزلت بقوم ظهر طغيانهم، ومحادتهم لله - تعالى - واستعلاؤهم على البشر، وأذيتهم لهم، فمن المناسب الحديث عن عاقبة المجرمين، ومصارع الظالمين. قال الله

(١) رواه ابن حبان (٦٥٧)

- تعالى - في قوم نوح: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣] وفي آية أخرى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال - تعالى - في قوم صالح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥٢]، وقال - تعالى - في قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وقال - تعالى - في فرعون وجنده: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣] وفي آية أخرى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، وقال - سبحانه - في عموم المكذبين من الأمم الخالية: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧١ - ٧٣]، وفي ثالثة: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

ففي هذه الآيات يأمرنا الله - تعالى - بالنظر في نهايات الظالمين - سواء ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي أو ظلموا غيرهم بأذيتهم لهم، والأغلب أن كلا نوعي الظلم يجتمع في الكافرين - وفائدة النظر في مصيرهم مجانبة طريقهم الذي أرداهم، والحذر من أعمالهم التي أوبقتهم، فتأسياً بالقرآن في التذكير بمصير الظالمين ينبغي للخطيب أن يبين للناس عاقبة الظلم بأنواعه في الكوارث التي تحل بالظالمين.

عاشراً: التنبيه على ما يقع من أخطاء في التناول الإعلامي للكوارث والنوازل؛ فإن أكثر الإعلاميين من أجهل الناس بالعقيدة والشريعة، وأجرئهم على الكلام بلا علم أو بهوى، فتتسرب أقوالهم الخاطئة إلى العامة، ومن أخطائهم المتكررة:

١ - نسبة الحوادث الكونية إلى الطبيعة، أو تعليقها بأسباب مادية دون ربط ذلك بقدر الله - تعالى - وقدرته؛ كتفسير الزلازل بتصدعات في الأرض، والفيضان بمد البحر، ونحو ذلك.

٢ - وصف من قضوا في النوازل الكونية بأنهم أبرياء، وهذا يشعر بأنهم مظلومون، ولازم ذلك أن من فعل بهم ذلك قد ظلمهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣ - في النوازل التي تصيب الكافرين - خاصة الدول المستكبرة - ينبري أبناؤها البررة لها، العاقون لأمتهم للوقوف معها أكثر من وقوفهم مع كوارث أوطانهم - رغم تشدقهم بالوطنية - فينقلبون إلى وعاظ ومفتين يقررون عدم الفرح بمصاب الآخرين - وهم الذين يفرحون دوماً بمصاب المسلمين ويشمتون بهم - ومنهم من يتعدى على الله - تعالى - في ربوبيته؛ فيزعمون أن أولئك القوم لا يستحقون الكوارث؛ لأنهم أهل الحضارة والتقدم، ولخدماتهم للإنسانية - حسب قولهم - ولحاجة البشر إليهم، ومنهم من يجاوز ذلك فيقرر أن الدول المتقدمة قادرة على مواجهة عشرات الكوارث مهما كان حجمها، في لغة تأليهية لبعض البشر، يتحدَّون بهم رب العالمين جل جلاله، نعوذ بالله - تعالى - من الزيغ والضلال.

وهنا ينبغي للخطيب التنبيه على هذه التجاوزات، وبيان الحكم الشرعي في موقف المسلم منها، ومواجهة المد الإلحادي المادي المستهين بعظمة الله - تعالى - وقدرته، وتكون مواجهته برد دعاوى أصحابها، وغرس تعظيم الله - تعالى - في القلوب.

حادي عشر: بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالنازلة، مثل التعامل مع شهداء الغرق والهدم ونحوه في الدفن وفي المواريث وغيرها، وخاصة في البلد الذي وقعت فيه الكارثة؛ لأن لفقه النوازل مناسبته في الديار التي أصيبت به.

الدليل العقلي عند السلف

«وكانوا - رضي الله عنهم - [يعني السَّلف] يَنْهَون عن التَّعرُّض للغوامض، والتَعمُّق في المشكلات، والإمعان في مُلابسة المُعضلات، والاعتناء بجمع الشُّبهات، وتكلُّف الأجوبة عمَّا لم يقع من السؤالات. ويَرون صَرفَ العناية إلى الاستحثاث على البِرِّ والتَّقوى، وكفِّ الأذى، والقيام بالطاعة حَسَب الاستطاعة.

ومَا كانوا ينكفُّون - رضي الله عنهم - عما تعرَّضَ له المتأخرون عن عِيٍّ و حَصَر، وتَبلُّد في القرائح، هيهات! قد كانوا أذكى الخلائق أذهاناً، وَأرجحَهم بياناً؛ ولكنَهم استيقنوا أنَّ اقتحام الشبهات داعيةُ الغَوايات، وسبب الضلالات، فكانوا يُحاذرون في حقِّ عامة المسلمين ما هم الآن به مُبتَلَوْن، واليه مَدفوعون».

إمام الحرمين الجويني رحمه الله، الغياثي (ص٣٣٣ - ٣٣٤)

عيسى بن محمد النعيمي(*)

الحمد لله وحده، والصلاة والسَّلام على مَن لا نبيَّ بعده، وبعد:

فهذه لَقطة عَجْلان، آمل منها أن تُميطَ اللِّثام عن قَدْرٍ يسير من سموق بصر أئمَّة السَّلف، ومَوفور فِقْههم في الدَّلائل الشرعية. وهذا السُّموق والعُمق كلاهما دالٌّ على أَحقيَّة المنهج السَّلفي بامتلاك الحقيقة؛ لاستمداده - أي المنهج - من الوحي المالك للحقيقة.

وجميعُ ذَرَّات هذه المقالة وجزئيَّاتها تأرز إلى أَصْلٍ جامعٍ، وأُسٍّ كُليٍّ، وهو (أَنَّ الدَّليلَ العقليَّ عند السَّلفِ ليس بمهْمَل ولا بمُرْسَل).

وتَفْتَنُّ إلى جُملةٍ من المَقاصد التي تُساق ابتداءً عاريةً عن التمثيل والتوضيح، ثم يجيء التفصيل المراعي للمقام تِباعاً بإذن الله.

(*) أكاديمي بجامعة أم القرى.

المقصد الأوَّل: الدليل العقلي عند السَّلف... الدلالة والمفهوم.

المقصد الثاني: حقيقة التَّسليم عند السَّلف.

المقصد الثالث: النَّظَرُ العقلي عند السَّلف تمعقلٌ أم تعَقُّلٌ؟

المقصد الرابع: النَّظرة الشُمولية السَّلفيَّة لفقه العلاقة بين العقل والنَّقل.

المقصد الخامس: سَبر بعض المَقولات التي يُتوَهم شخوصها عن المنهج.

وإني لأَبسطُ يد الاعتذار عما يقع من إخلالٍ في بَسْط القول في هذه المقاصد؛ فإنَّ هذه الورقات لا تفي ببيان منزلة الدَّليل العقلي عند السَّلف؛ إذ البيان يفتقر إلى أَدوات عِدَّة، منها التتبُّع لعُرُوقِ مَسَائلهم، واستقصاء ما صحَّ من آثارهم، كلُّ ذلك مع حَثٍّ مَطيَّة الفِكْر في أَنجادها وأَغوارها، وهذا ما لم يتأتَّ لي جميعه في هذه العُجَالة.

وأرجو من الكريم الرحمن أن يهيئ من يقوم بتجلية هذه المسألة الجليلة، التي ظنَّ من ظنَّ ممن قَصُر عن دَرك حقيقة منهج السلف أَنَّهم أَخلُّوا في الاستناد إلى النظر العقلي! حتى نَسَب كُلَّ فضيلة للمتكلِّمين مع ابتداعهم في الدلائل، وسلب السَّلف فضيلة النظر بإطلاق.

والحقُّ أنَّهم - أي السلف - أَيقنوا بغَناء الدَّلائل الشرعيَّة بالبراهين العقليَّة الفِطريَّة وكفايتها عن الابتداع في دين الله، وهذا جوهر الخلاف بينهم وبين مخالفيهم؛ فإن المخالفين لمَّا اعتقدوا أَنَّ الدَّلائل النَّقليَّة تَعْرى عن البراهين العقلية، قادهم ذلك إلى ابتداع دلائل على مسائل الدِّين، بل جمعوا بين الابتداع في الدَّلائل، والإحداث في المسائل. ولو أَنَّهم علموا أَن دلائل القرآن العقليَّة لها صفة الثَّبات والاستمراريَّة إلى يوم الدِّين؛ بحيث لا يُفْتَقَرُ في الاستدلال على أصول الدِّين إلى غيرها، لما وقعوا في هذه المُشاقة.

وأَمَّا الحِجاجُ العقلي عند السَّلف لتقويض مثارات المخالفين العقليَّة، فمُتحقِّق لا يُدفع؛ لكن قلَّته في القرنين الأوَّلين نابعة من قلة البدع في ذلك الزَّمان، هذا من جهة.

ومن جهةٍ أُخرى سذاجة وبساطة البدع آنذاك؛ وأَعني بالسَّذاجة هنا: كون تلك البدع مَبنيَّةً على فَهم مَغلوط للدَّلائل النَّقليَّة لا على بدع مُركَّبةٍ من مُشتبهات عقليَّة ونقليَّة؛ فإنَّ مثل هذا التركيب جاء مُتأخراً عن الجيلين الأولين[1]. فلزم من هذا غَلَط مَن نَسب إليهم التقصيرَ في الحجاج العقلي الشرعي لتقويض المثارات العقليَّة لدى المُخالف؛ فإنَّ هذه الإضافة سببها الجهل بتاريخ نشوء الفرق في الأُمَّة.

وبعد هذه الطَّليعة، يحسن الولوج إلى بيان المقاصد المذكورة آنفاً.

(١) انظر: «درء التعارض»، لابن تيميَّة: (٥ / ٢٤٤).

المقصد الأَوَّل: مفهوم الدليل العقلي:

يراد بهذا المُركَّب التقييدي (بإيجاز): ما أوصل إلى المطلوب بنفسه (أي ببداهة العقل كمبدأ الهوية والعليَّة)، أَو بالنَّظر إلى مُقدِّمات ترجع إليه.

المقصد الثَّاني: حقيقة التسليم عند السَّلف:

من البديهيات السَّلفيَّة أَنَّ قَدَمَ الإسلام لا تقوم إلاَّ على ظهر الانقياد والاستسلام[2]. والتَّسليم السَّلفي كما أنَّه تسليم مطلق ليس مَشروطاً بقيد لأنَّه مقتضى الإيمان بالنُّبوَّة، ومَن كان تسليمه مَشروطاً بانتفاء المُعارض لخبر الرَّسول أَيّاً كان نوعه، لم يكن متحقِّقاً بالإيمان به، وكان ممَّن عاب اللهُ - تعالى - في قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]. إلاَّ أَن التِّسليم السَّلفي في الوقت ذاته تسليمٌ واعٍ؛ بمعنى: أنَّه عندهم منتوج مَنطقٍ يتوالجُ فيه يقينُ العقل، وضرورة النَّفس اللذان يقضيان بالإقرار بصدق نبوَّة الرَّسول وعصمته؛ وإلاَّ كان اعتباطاً يقبل التبدُّل والتخلُّف؛ لهذا كان للوحي سُلطانه العظيم على شواعر وعقول من صُقلت فطرهم لتلقِّيه ولم تَلْتَاثْ بما يحول بينها وبين نوره، وقد أَبان الله - تعالى - عن حال أهل المعرفة من أهل الكتاب عند سماعهم للوحي فقال - جل وعلا -: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٥ - ١٠٩].

ومِمَّا يُجلِّي هذا المنطق أمران:

الأَوَّل: وجودي، ويتبدَّى في قيام التوافق والتَّلازم بين نور الوحي وبصر العقل الفطري، وتَعذُر الانتفاع بأحدهما دون الآخر؛ فنور الوحي بلا بصر العَقل لا

(٢) انظر: «العقيدة الطحاوية»، (ص٦).

تتحصَّل الاستفادة منه؛ إذ بالعقلِ عُلم صِدق الوحي وأنَّه من لدن حكيم خبير. وبِصَر العَقَلِ بلا نور الوحي قضاءٌ عليه بالتِّيهِ في مَنادِح الأهواء.

ولا ريب أنَّ الخضوع والانقياد لما تحقَّقَ صِدقُهُ واستبانت عصمتُهُ من الخطأ: أنَّ ذلك من حَتميات العقل؛ ولذا كان اعتناء الوحي على برهنة الأُصول الدِّينية والكشف عن فطريَّتها؛ لأنَّها البِنيةُ التي إن تجذَّرت انقاد العبد بكُليَّتِه لتحقيق مقتضيات تفاريع الشَّريعة، وليس يُرام من ذلك نَفي معقوليَّة التَّشريع وابتنائه على الحكمة ورعاية مصالح العباد في العاجل والآجل؛ إذ من الممتنع أن تكون هذه الشِّرعة من ربِّ العالمين ثم تكون مقصورة مصالحها على ما يتحصل للمكلفين من الخير في الآجل دون العاجل، وفي بيان ذلك يقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله –: «الدِّين والشَّرعُ ضَروريٌّ لبني آدم لا يَعيشون بدونه، لكن ينقسم إلى شَرعٍ غايته نوع من الحياة الدُّنيا وشَرعٍ فيه صلاح الدُّنيا فقط، وشَرع فيه صلاح الدُّنيا والآخرة، ولا يُتصوَّر شَرعٌ فيه صلاح الآخرة دون الدُّنيا، فإن الآخرة لا تقوم إلاَّ بأعمال في الدُّنيا مستلزمة لصلاح الدنيا، صلاحها غير التناول لفضولها»[1]، بل إنَّ الأَصل في أحكام الشريعة أنَّها مُعلَّلة بالحِكَم الظاهرة التي لا يجد العباد مَسَاغاً إلاَّ التسليم لها والانقياد لحُكمها.

الأمر الآخر: عدميٌّ، ويتحرَّرُ بانتفاء التناقض الحقيقي بين الأدلَّة الشرعيَّة النقليَّة والعقليَّة؛ إذ جَرَيانُ التناقض بين وحي الله الَّذي تنتظمُهُ إرادةُ الرَّبِّ الأَمريَّة الشرعيَّة، وبين العقل الذي تنتظمُهُ إرادة الربِّ الخَلقيَّة التكوينيَّة: مُمْتنعٌ؛ ومَجْلى هذا الامتناع أَنَّ كليهما من عند الله فالأوَّل أَمرُهُ، والثاني خلقه، ولا تعارض بين خلقه وأَمره ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فإذا استبانت لنا حقيقة التسليم السَّلفي، عَلمنا عندئذٍ أَنَّ سَلب التسليم خاصيَّةَ البَرْهَنة مُطلقاً من حيث هو تسليمٌ وجعله مُرادِفاً للتَّقليد كما يُقرِّره بعض مُفكِّري العرب الذين جعلوا مَدَاره على إيمان يكون قسيماً للبرهان العقلي[2]: خطأٌ يَنمُّ عن مدى ضَرَاعة مَدَاركهم الفكريَّة وانجذابها لقُطُوبِ المَقولاتِ الغربيَّة التي تنصب بَرْزخاً بين المنطق الديني والمنطق العقلي[3]، دون سَبر لِبنية هذه المقولة التي أَفرزها واقع العقل الأُوروبي ابتداءً من عصر النهضة نتيجة لَملاحمه مع اللاهوت الكنسي المستبطن لتناقضات عميقة في رؤيته للإنسان والكون فضلاً عن القضايا الغيبية[4].

(١) جامع المسائل، تحقيق محمد عزير شمس (ص١٥٠، ١٥١ – المجموعة السادسة)

(٢) انظر – على سبيل المثال –: «موقف من الميتافيزيقا» لزكي نجيب محمود، و «الدين والدولة وتطبيق الشريعة»، لمحمد عابد الجابري، (ص١٤٢).

(٣) انظر: «الآراء والمعتقدات»، لغوستاف لوبون، وقد أقام كتابه على هذا التباين: (٧ – ٩، ١٤٦، ١٤٨).

(٤) انظر: «آلام العقل الغربي» لريتشارد تارنس، نقله للعربيَّة فاضل جكتر (٢٠٠، ٢٠٨، ٢١٠)، و «قصة النزاع بين الدين والفلسفة»، لتوفيق الطويل.

المقصد الثَّالث: النَّظَرُ العقلي عند السَّلف تمعقلٌ أم تعَقُّلٌ؟

النَّظرُ العقليُّ عند السَّلف على ثلاثة أضرب، الأوَّل: نَظَر استثمار، والثَّاني نظر كشف وإرجاع، والثالث: نَظَر فَحْص (مَشْروطٍ) وإبطال.

فالأوَّل: يُراد به استثمار السَّلف للدَّلائل العقليَّة التي شُحنَت بها الدَّلائل النَّقليَّة كاستثمارهم دلالة النَّظر في الأَنفس البشرية وعجيب تركيبها التي نَبَّه الله العقول عليها بقوله: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] على توحيده، تبارك وتعالى. قال قتادة مُستدلاً بكمال صُنعه للأنفس على وجود خالق عظيم مستحقٍّ للعبادة: (مَن تفكَّر في نفسه عَرف إنَّما لُيِّنت مفاصله للعبادة)[5]، وكاستثمارهم للدلالة العقلية التي حكاها الله في كتابه عن نبيِّه إبراهيمَ – عليه السلام – في قوله – تعالى –: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] قال قتادة مستثمراً لهذه الدَّلالة على كمال ربوبيَّة الله: (عَلِمَ أَنَّ ربَّه دائمٌ لا يزول)[6]. ونظائرُ ذلك من صور الاستثمار السَّلفي للبَرَاهين العقليَّة التي لَفَتَ النظر إليها القرآن الكريم كقياس الأولى، وقياس الغائب على الشَّاهد.

وأَمَّا الضرب الثاني: فنوعان: الأول: نظر كشف وإرجاع: ويُراد به كشف السَّلف عن اتساق الدَّليل النَّقلي لمنهج العقل ببيان الإمكان ودفع الامتناع عما يُظنُّ امتناعُهُ، وعُنصرُ الإمكانُ يعدُّ منطقة الحياد العقلي، ويجيء البرهان النَّقلي مُرجِّحاً وناقلاً الحكم من رُتبة الإمكان إلى رُتبة الحادثيَّة.

وأيضاً يكون الكشف عن امتناع ما يُناقض الدَّلائل النقليَّة وهذا الإيقاف منهم على حكم الإمكان، أو الامتناع إنَّما يكون في كثير من الأحيان لمن عَرضت له شُبهة تستلزم دفعها، ومن أَمثلة ذلك ما يلي:

ما ورد عن علي بن أَبي طالب – رضي الله عنه – أَنَّه قال للذي استشكل كيف يُحاسِبُ الله العباد في ساعة

(٥) نقله السيوطي في «الدُّرِّ المنثور»: (٦/١٣٧).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»: (٤/١٣٢٩).

واحدة؟ قال له (كما يَرزقهم في ساعة واحد)[1] فعَلِي - رضي الله عنه - استدلَّ بالمتَّفق عليه على المُختَلَف فيه بجامع الإمكان في الصورتين وانتفاء الامتناع. وهذا استدلال بحكم العقل الذي يقضي ببطلان إدخال الممكن في دائرة الممتنع بلا برهان.

ومن ذلك إبطال الإمام أحمد لدعوى الحلول التي ادَّعاها الجهميَّة بأن زعموا أنَّ الله - تعالى - في كُلِّ مكان، ولا يكون في مكان دون مكان؛ وذلك بالبرهنة على امتناع ما ادَّعوه؛ حيث إن من المقرَّر عند السَّلف والجهميَّة أنَّ الله كان ولا شيء ثم خلق الشيء؛ فالقسمةُ العقليَّة الحاصرة تُحتِّم على هذا المتجهم أن يصير إلى إحدى ثلاثة أمور لا مَعْدَى منها:

الأمر الأوَّل: أن يكون خلق الخلق في نَفْسِهِ، وهذا ممتنع في العقل الفطري؛ إذ يكون الله مَحلاً للمخلوقات فتكون النجاسات وإبليس - مما يبعد عن الله - في جوف الله تعالى.

الأمر الثَّاني: أن يكون خلقهم خارجاً عن نَفْسِه ثم دخل فيهم، وهذا أَيضاً ممتنع في العقل الفطري.

والأَمر الثَّالث: أن يكون خلقهم خارجاً مِن نفسه ثُم لم يدخُلْ فيهم، وهذا ما يقبله العقل وتوطده الدَّلائل المحكمة، هو قول أهل السنة أجمع. وفي تقرير ذلك يقول الإمام أحمد - رحمه الله -: (إذا أَردتَ أن تعلم أنَّ الجهميَّ كاذبٌ على الله حين زعم أَنَّ اللهَ في كُلِّ مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، فقل له: أَليس الله كان ولا شيءَ؟

فسيقولُ: نعم. فقل له: حين خَلَق الله الشَّيءَ خَلَقَه في نَفْسِه، أَو خارجاً مِن نَفْسِه؟

فإنَّه يَصير إلى ثلاثة أقاويل لا بُدَّ له مِن واحدٍ منها: إن زعم أَنَّ الله خَلَق الخلقَ في نَفْسِه فقد كفر، حين زعم أَنَّه خَلَق الجنَّ، والشياطينَ، وإبليسَ في نَفْسِه.

وإن قال: خَلَقَهم خَارجاً من نفْسِه ثُمَّ دخل فيهم، كان هذا أَيضاً كُفر؛ حين زعم أَنَّه دخل في مكان وحُشٍّ قَذِرٍ رديءٍ.

وإن قال: خلقَهُم خارجاً مِن نَفْسِه ثُمَّ لم يَدْخُل فيهم، رجع عن قوله كُلِّه أجمع، وهو قول أَهل السُّنَّة)[2].

ومن صور ردِّ السَّلف المُخاصِمَ في الدَّلائل النقليَّة إلى ضرورات العقل المعياريَّة الفطريَّة: نقَض الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - دعوى المانعين من حصول العذاب والنعيم في القبر مُعْتلِّين في ذلك بانتفاء الحياة المعهودة للميِّت؛ وذلك بالإبانة عن جواز ذلك وعدم مناكدة العقل له. وفي تقرير ذلك يقول بعد أن ساق دعواهم: (عِلَّتُنا[3]) في الإيمان بجميعه والتصديق به: عِلَّةٌ واحِدةٌ؛ وهو تظاهر النُّصوص عن رسول الله ﷺ به، مع جوازه في العقل وصحَّته فيه؛ وذلك أنَّ الحياة معنى، والآلام واللَّذَّات والعلوم معانٍ غيره، وغير مُسْتحيلٍ وجود الحياةِ مَع فَقْدِ هذه المعاني، ووجود هذه المعاني مَع فقد الحياةِ لا فرقَ بين ذلك)[4].

فأنت تلحظ في هذا النَّص توظيف الإمام ابن جرير الدَّليلَ العقلي الفطري لدفع ما يُناقض الأدلة النقليَّة الصحيحة؛ وذلك بالاستدلال بقانون الهُويَّة الذي يقضي بأن يكون الشيء هو هو لا غيره؛ ذلك أنَّ كُلَّ غَيْرَينِ لا بُدَّ أن يصح من بعض الوجوه وجود أَحدهما مع عدم الآخر؛ وإلَّا انتفتِ الغَيْريَّةُ التبس حالهما بحال المعنى الواحد.

ومن صور توظيفُ أئمَّة السَّلف للقرينة العقليَّة لدرء الفَهْم المغلوط عن الدَّليل النقلي: دفع الاستدلال الغالط من الجهميَّة على أن القرآن مخلوقٌ بحديث «يجيء القرآنُ يوم القيامَةِ في صورة الشَّابِ الشَّاحبِ، فيأتي صاحِبَهُ فيقول: هل تَعْرفني؟ فيقول له: مَنْ أَنت؟ فيقولُ: أَنا القُرآنُ الَّذي أَظمأتُ نَهَارَكَ، وأَسْهَرتُ لَيْلَكَ، قال: فيأتي به اللهُ، فيقولُ: يا ربِّ!...» الحديث[5].

فهذا الحديثُ استدلَّ به الجهميَّةُ على أَنَّ كلام الله مخلوق لكونه يجيء ويتغيَّر من حال إلى حال، فأبان أَئمَّة السَّلف على أنَّ الحديث قد فُهم على غير مراد المُتكلِّم به، وأنَّ فيه محذوفاً مُقدَّراً مَدلولاً عليه بالاقتضاء، وهذا المحذوف هو (الثواب) فالمجيء والتصوُّر إنَّما هو لثواب قارئ القرآن لا للقرآن نَفْسِه، وفي بيان ذلك يقول الإمامُ أحمد - رحمه الله -: (فادَّعوا أنَّ القرآن مخلوقٌ من قِبَلِ هذه الأحاديث... وإنَّما معنى أَنَّ القرآن يَجيءُ: إنَّما يجيء ثواب القرآن فيقول: يا ربِّ!...)[6] وهذا التقدير قال به جِلَّةٌ مِن أَئمَّة السَّلف، وبرهان استقامته يتأتَّى من ثلاثة اعتبارات:

---

(١) لم أجده مُسنداً؛ وإنما أورده بعض أهل التفسير. انظر - مثلاً -: «المحرر الوجيز» لابن عطيَّة: (١/ ٢٧٧)، و «الجامع لأحكام القرآن» للقُرطبي: (٣/ ٣٦٠)، واستدلَّ به ابن تيميَّة ونَسبَه إلى ابن عباس، رضي الله عنه. انظر: «شرح حديث النزول»، (ص٣٣٥).

(٢) «الرَّدُّ على الزَّنادقة والجهميَّة»، (ص٣٠٠، ٣٠١).

(٣) يعني أهل السُّنَّة.

(٤) «التبصير في معالم الدِّين»، (ص٢١١، ٢١٢).

(٥) أخرجه ابن ماجة في كتاب «الأدب»، باب «ثواب القرآن»: (٢/ ١٢٤٢)، والدَّارمي، كتاب «فضائل القرآن»، باب «في فضل سورة البقرة وآل عمران»: (٢/ ٤٥٠). قال البوصيري: (إسْنادُهُ صَحيحٌ)، وتعقَّبه الألبانيُّ بقوله: (لا، فإنَّ فيه بشيرَ بن مُهَاجِر، وهو صدوق لَيِّن الحديث، كما قال الحافظُ في «التقريب» فَمِثْلُهُ يَحْتَملُ حَديثُه التَّحْسينَ، أَما التصحيح فَبَعيدٌ).انظر «شرح العقيدة الطحاوية»، (ص ١٢٣، حديث رقم ٥٩).

(٦) الرَّد على الزنادقة والجهميَّة، (ص٣٢١، ٣٢٢).

الأَوَّل: اعتبار نقلي، والثَّاني: اعتبار عقلي، والثَّالثُ: اعتبار لِساني لغوي.

فأمَّا الاعتبار الأَوَّل: فإنَّ هذا التقدير تَشْهدُ له الدَّلائل النَّقليَّة الكُليَّة التي تَدلُّ على أنَّ الذي ينتفع به العبد في آخراه هو ثواب عَمَله الصَّالح، ومن تلك الدَّلائل قوله – تعالى –: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] والحسنة هنا العمل الصالح، والسيِّئة العمل السيئ؛ وإنما جزاؤهما ما يكون من الثواب والعقاب عليهما[١].

وأَمَّا الاعتبار العقلي الَّذي جاء تبعاً للاعتبار السَّالف: فهو ما صاغه الإمام الدَّارميُّ بقوله: (... أَنَّه قد عقل كُلُّ ذي عقل ورأى أَنَّ القولَ لا يتحوَّل صورةً لها لسان وفَم ينطق ويشفع، فحين اتَّفقت المعرفةُ من المسلمين أنَّ ذلك كذلك، علموا أنَّ ذلك ثَوابٌ يُصوره الله بقدرته صورةَ رَجل يُبشِّر به المؤمنين؛ لأنَّه لو كان القرآنُ صورةً كصورة الإنسانِ لم يتشعَّبْ أكثرَ من ألف ألف صورة، فيأتي أكثر من ألف ألف شافعاً وماحلاً؛ لأنَّ الصورة الواحدةَ إذا هي أتت واحداً؛ زالت عن غيره، فهذا معقولٌ لا يَجهلُهُ إلاَّ كُلُّ جهولٍ)[٢].

ومقصوده من هذا الاستدلال امتناع إسناد المجيء إلى القرآن نَفسه؛ لأنَّ ذلك يَستلزمُ تشعُّب صورته بعدد من يَشفع له في آن واحد، وكذا تعدد المجيء بعدد مَن يَشفع له وهذا غير جارٍ على قانون العقل؛ إذ الشيءُ لا يكون في مكانين في آنٍ واحد.

وأَمَّا الاعتبار اللِّساني اللُّغوي: فهو ما أَلمح إليه الإمام أَبو عُبيد القاسم بن سلَّام حيث قال: (ولم نَرَ العربَ تدفعُ في طَبعها أن يقول الرَّجلُ للرَّجل: (لأوفِّينَّك ما عملتَ) ليس أَنَّه يُريد نَفس ما عمل؛ إنَّما يَعِدُهُ على الطَّاعةِ الثَّوابَ، ويتوعَّده على المعاصي العقابَ، وإنَّما معنى مجيء البقرة وآل عمرآن إنَّما يعني ثوابهما)[٣]. والسِّياق دالٌّ أَيضاً على ذلك؛ إذ الحديث سِيق لبيان عظيم ثواب قارئ القرآن، والثواب هو المُحصَّل للمُكلَّف المكتسَب بفعله، فناسب أن يكون المجيء له، وإنَّما حُذف للعلم به؛ و(حَذْفُ ما يُعلم جائزٌ).

وهذه الصور في التوظيف تُبيِّنُ أَنَّ الشَّارع لا يُخْلي كلامَه من قرينة تدل على مُراده؛ فالقرينة العقليَّة تحتفُّ بالخطاب ليتحصَّل للنَّاظر إحراز مقصود المُخاطِب بخطابه، ولا تستبدُّ هذه القرينة بذلك، بل لا بُدَّ أَن يكون في الدَّلائل النقليَّة ما يَشهد لها، والكَشْفُ عن هذه القرينةِ وإعمالها لا يعتبر تمعْقلاً على النَّصِّ؛ بمعنى أن يتوارى النَّصُّ خلف ما أَصَّله النَّاظر من أصولٍ تُباينُ ما دلَّ عليه النَّص وتفارقه؛ فتُمْنَحُ المركزيَّة في هذه الصورة لهذا العقل الموهوم الذي يُلغي اعتبار النَّص؛ لا أَنَّه تَطلُّبٌ لمقاصد النَّص التي قصد إليها المُخاطِب بخطابه؛ وإنما يكون هذا التوظيفُ تَعقُّلٌ للبرهان الشَّرعي ليستتمَّ تحقيقُهُ واعتقاده على الوجه الذي قُصد به.

فإن قيل: صَرفُ المعنى الظاهر إلى المَعنى الَّذي دلَّت عليه الدَّلائل الأخرى مع ضميمة ما احْتفَّ بهذا الخطاب من قرينة عقليَّة توطِّد هذا المعنى المعدول إليه، هذا الصرفُ يُعدُّ تأويلاً، وهذا عين ما عابه السَّلفُ أَنْفُسُهم؛ فكيف يأبونه ثم يقعون فيه؟

فيقال: هنا مقامٌ لا معدى من تأْثيله لينبني عليه ما بعده، وهذا المقام، هو أنَّ الظاهر المعدولَ عنه هو الظاهر الموهوم النَّاشئ لدى المخاطَب لتقصيره في فهم الخطاب، لا الظاهر الحقيقي للنَّصِّ؛ فإنَّ ظاهر النَّصِّ تارة يكون بَسيطاً، وتارة يكون مُركَّباً، فأمَّا الظَّاهر البسيط فهو المعنى المُتبادَر من النَّصِّ إلى الذِّهن من أَوَّلِ وهلة.

وأَمَّا الظاهر المُركَّبُ فهو ما يَفْتَقِرُ في إصابته إلى جُملة من الدَّلائل الأُخرى الخارجة عن هذا النص، مع إعمال القرائن المُحتفَّة بالنصِّ؛ لأنَّ المُخاطِبَ قد يُجمِل في بعض الموارد في كلامه استناداً على ما بَسَطه وفصَّله في مَوطنٍ آخر؛ فالشَّريعةُ كالكلمةِ الواحدة، يقول الإمام الشَّاطبي – رحمه الله – في تقرير ذلك: (مآخذ الأدلَّة عند الأئمَّة الرَّاسخين إنما هي أنْ تؤخذ الشَّريعةُ كالصورة الواحدة؛ بحَسَبِ ما ثبت من كُلياتها، وجزئياتها المرتبة عليها، وعامِّها المُرتَّب على خاصها، ومُطْلَقها المحمول على مُقيِّدها، ومُجْمَلها المفسَّر بمبينها. إلى ما سوى ذلك من مَناحيها. فإذا حَصَل للنَّاظر من جُمْلتها حُكْمٌ من الأحكام، فذلك هو الذي نطقت به حين اسْتُنْطِقَت)[٤]. وقد يكون ذلك استناداً على فهم المُتلقِّي للخطاب[٥]؛ فإذا تبيَّن أنَّ الظاهر من الخطاب هو المعنى الذي رام بيانه المُخاطِب بخطابه علمتَ أَنَّ العدول إلى هذا المعنى المقصود وإظهاره

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير: (١٠/ ٣٦ – ٣٨).
(٢) «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد»، للدَّارمي: (١/ ٥٠١).
(٣) نقله عنه شيخُ الإسلام ابن تيميَّة في «بيان تلبيس الجهميَّة»: (٦/ ٢٠٣ – ٢٠٤). ولم أَظفر بنص كلامه في شيء من أَسفاره المطبوعة؛ وإنما الموجود في كتابه «فضائل القُرآن»(ص٢٣٥) هو اقتصاره على تفسير المجيء بقوله: (يعني ثوابهما)، فلعلَّ شيخ الإسلام نقل عن كتاب له لم يطبع، أو أنَّ في النسخة سَقطاً.
(٤) «الاعتصام»، للشَّاطبي (٢/ ٥٠).
(٥) انظر: «جواب الاعتراضات المصرية» لابن تيميَّة، (ص١٠٠).

محمودٌ مطلوب؛ وإن سُـمِّي تأويلاً فلا يكون من جنس ما عابه وأنكره السَّـلفُ؛ فيكون التأويل هنا من المُشترَك اللفظي الذي يندرج تحته معانٍ مُختلفة؛ فـإن التأويل الذي ذهب إلى معناه السَّـلف هو بيان مُراد المتكلِّم، وتفسـير كلامه، وضابط هذا التأويل الصحيـح: أن يكون المعنى المصروف إليه الخطاب مما يسـوغ في اللِّسان، ويصحُّ نِسـبته عند أهل العلم إلى صاحب الخطاب[1]، فتبيَّن أنَّ حقيقة هذا التأويل تعظيم الشَّـرع ورعْيُ حريمه، بخلاف تأويل المُتكلِّمـين الَّذي هو في حقيقته تكذيب للشَّرع، وإزهاق لمقاصد خطابه.

والنَّوعُ الآخـر: نظر التَّوظيف للأدلـة العقلية؛ وذلك بأن تُسْـتقطَب لإحراز مقاصد الشَّـارع، والإبانة عن الاتِّساق بين كُليَّات الشَّريعة وجُزئياتها، أو بين الجزئيات أَنْفُسِها، وكذا لِسَبْر الدَّلائل لبيانِ المُحكم منها من غيره، وهذا النظر ليس مُسـتقلّاً بل هو تابع للأدلة النقليَّة كما سيتبدَّى لك من خلال الأمثلة.

ويحتضن هذا النَّوع عدداً من الأمثلة، أَضرب لذلك مثالاً واحداً:

وهـو ضَرْب ابن عبَّاس - رضي الله عنه - الأَقيسـة العقليَّة لإبطال الأخذ بحديث (الوضوء ممَّا مَسَّت النَّار)؛ لكونه ثبت عنده عـدم إحكامه بالخبر الثابت المتأخر فـي الزَّمان المحكم من جهة عدم ورود ما يناقض دلالته، وهو شـهوده مااستقرَّ عليه فعل النبي ﷺ في آخر الأمر بترك الوضوء ممَّا مسَّت النَّار إلا لحم الجزور.

وهذا الاعتـراض من عبد الله بن عبـاس - رضي الله عنـه - كان على أَبي هريرة - رضي الله عنه - في ما رواه عن النبي ﷺ أَنَّه قال: «الوضوء ممَّا مسَّت النَّار، ولو مِن ثور أَقط» فقـال ابن عباس - رضي الله عنه -: يا أَبا هريرة! أَنتوضأُ من الدُّهـن؟ أَنتوضأُ من الحميم؟ فقال أَبو هريرة: يا ابن أخي! إذا سمعتَ حديثاً عن رسول الله ﷺ فلا تضْرب له مثلاً[2].

فمعارضةُ ابـن عباس - رضي الله عنه - للخبر ليسـت مؤسَّسـةً على نَظَرٍ عقلي أصالة؛ وإنما على جهة التتبع للدلالة النصية؛ ذلك أنَّ ما يرويه أبو هريرة - رضي الله عنه - ليس هو المحكم الذي استقر عليه فعل النبي ﷺ والذي شَهِده ابن عباس منه ﷺ؛ وإنما المحكم وآخر الأمرين منه ﷺ ترك الوضوء ممَّا مَسَّـت النار. لذا روى ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ (جمع عليه ثيابه ثم خـرج إلى الصلاة فأُتي بهديَّةٍ خُبْزٍ ولَحْمٍ. فأكل ثلاثَ لُقَمٍ. ثُمَّ صلَّى بالنَّاس وما مسَّ ماءً)[3].

فلما رأى ابـن عباس إصرار أَبي هريرة على التحديث بما نُسِـخ حكمه، أبان عن المحكم في هذه المسألة واعتضد بضَرب المعقول المُبرهِن على صِحَّة ما شهده من النبي ﷺ.

ومما يدل على ذلك، ما تراه من جمعه - رضي الله عنه - بين ما شـهده من النبي ﷺ وبين المعقول الشرعي المُبرهِن على صحـة ما ذهب إليه كما في الروايـة الأخرى؛ فعن محمد بن عمـرو بن عطاء قال: كنتُ مـع ابن عباس في بيت ميمونة في المسـجد، فجعل يَعجبُ ممن يزعمُ أنَّ الوضوء ممَّا مَسَّت النار، ويضرب فيه الأمثال، ويقول: إنَّا نستحمُّ بالماء المُسَخَّن، ونتوضأ به وندَّهن بالدُّهن المطبوخ. وذكَرَ أَشـياء مما يُصيب النَّاس ممَّا قد مَسَّـتِ النَّار، ثم قال: لقد رأيتني في هذا البيت عند رسول الله ﷺ، وقد توضأ ولبس ثيابَه، فجاء المؤذن فخرج إلى الصَّلاة حتَّى إذا كان في الحُجْـرَةِ خارجاً من البيتِ لقيَته هدية عضو من شَّـاة، فأكل منها لقمة أو لُقمتين ثُمَّ صلى وما مسَّ ماء)[4].

قال الإمام البيهقي بعد سوقه لرواية ابن عباس، رضي الله عنه: (فيه دلالةٌ على أَنَّ ابن عبَّاسٍ شـهد ذلك من رسول الله ﷺ)[5] والرِّواية الأخرى التي أخرجها مسلم مُصرِّحة بشهوده - رضي الله عنه - إذ فيها أنَّ ابن عباس شهد ذلك من النبي ﷺ[6].

فإذا تحرَّرت هذه الأَحرفُ، اسـتبان للنَّاظر أَنَّ العلاقة بين العقـل والنَّقل تُفهَمُ فهماً على الجادَّةِ من خلال إطار شـموليٍّ توافقي لا تنتصِبُ فيه الخُصومـة بين الدَّليلين لتكون المركزيَّة لأَحدهما على الآخر، بل الاسـتبداد فـي آخر الأمر للمركزيَّة المُحتضنة لهذا الإطار الشـمولي الَّذي تكون المقابلة بينه وبين ما يُناقضه مقابلةً بين الحقِّ والباطل، والشريعة والهوى، والسُّنة والبدعة[7]، وهذه النَّظرةُ الشـموليَّة هي مقام امتياز المشـروع السَّـلفي على غيره من المشـاريع التي انتحلهـا المخالفون من أَصحاب الرؤى الاحتجانيَّة الاختزاليَّة الضيِّقة، وهو ما قصدته

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل»: (١/ ٢٠١)، و «الفتاوى الكبرى»:(٦/ ٢١)، و «جواب الاعتراضات المصرية»، (ص ١٠٢، ١٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي في «السنن» كتاب «الطهارة»، باب «ما جاء في الوضوء مما غيرت النار»: (١/ ١١٤، ١١٥) وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر، وحسَّنه الألباني. انظر: «صحيح الجامع»: (١/ ١٢٠١).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب «الحيض»، باب «نسخ الوضوء مما مست النار»: (١/ ٢٧٥)، رقم ٣٥٩.

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى»: (١/ ١٥٣).

(٥) المصدر السَّابق: (١/ ١٥٣).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب «الحيض»، باب «نسخ الوضوء مما مست النار»: (١/ ٢٧٥)، رقم ٣٥٩. وما ذهب إليه ابن عباس هو مذهب الخلفاء الراشدين في ترك الوضوء مما مسته النار (إلا لحم الجزور). انظر: «معرفة السنن والآثار «للبيهقي»: (١/ ٤٤٧)، و «المجموع» للنووي: (٢/ ٦٩)، و «النَّفح الشَّذي»، لابن سيد الناس: (٢/ ٢٥٠)

(٧) انظر: «درء تعارض العقل والنقل»:(١/ ١٩٨).

بالمقولة التَّالية، وهي: النَّظرة الشُّمولية السَّلفيَّة لفقه العلاقة بين العقل والنَّقل.

فإنَّ هذه الرؤيةَ السلفيَّة لا يكون فيها الدليل العقلي قَسيماً للدَّليل الشرعي، بل هو مندرجٌ تحت سُرادقه؛ فالبراهين لا تتناقض بل يؤيدُ بعضُها بعضاً.

أَمَّا الضَّربُ الثالث: فنظر الفحص (المَشروط) والإبطال:

منهج الأئمَّة النُّقَّاد في سَبْر المتون مَنهجٌ مَوضوعيٌّ مُساجٌ بِسياج العقل طاردٌ للذَّاتيَّة - التي لا تَنْضبط - أَن تكون منظومةً في أُصول مَنْهجهم المُحْكَم.

وبتقرِّي جزئيات تعليلاتهم للمتون تجد أَنَّها تُدار على أَربعة معايير، ثلاثة منها أَصليَّة، وواحد تَبعيٌّ عاضدٌ للأوَّل، وهذه المعايير أَو العلل الموجبة لنقد المتن هي كالتَّالي: الأوَّل: التعليل بالمخالفة، الثاني: التعليل بالتَّفرُّد، الثالث: التعليل بالاضطراب[1]. وأَمَّا المعيار التبعي العاضد للأوَّل: فهو التعليل بالمناقضة للقواطع العقليَّة.

والَّذي يختصُّ بهذا المقام من هذه المعايير السالفة: هو المعيار الأول الأَصيل والرَّابع التبعي، ودونك الآن صفوةَ القول فيها:

أمَّا المعيار الأَوَّل، وهو التعليل بالمخالفة: فيراد به مناقضة المتن لقواطع الدَّلائل النَّقلية من الكتاب والسُّنَّة وما تركَّب منهما، والتعليل بالمُخالفة؛ هو قُطبُ رحى المنهج النَّقدي عند المُحدِّثين، حتى قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: (مَدَارُ التَّعليل في الحقيقة على بيان الاختلاف)[2].

وكون مناطِ التَّعليل بالمُخالفة قائماً على الأُصول الثَّلاثة (الكتاب، والسُّنَّة، والإجماع) يشهد له أَمران:

الأوَّل: التَّصرُّف العملي مِن الأئمَّة النُّقَّاد.

والثَّاني: وقوع التنصيص منهم على ذلك، وفي الإبانة عن ذلك يقول الإمام ابن حِبَّان - رحمه الله - في سياق تَقْنينه لِمَنهج يُعرَف به الرُّواة بطريق الاعتبار: (ومتى عُدِمَ ذلك [يقصد وجود متابعة أو شاهد]، والخبرُ نَفْسُهُ يُخالف الأُصول الثلاثة، عُلِم أَنَّ الخبرَ موضوعٌ)[3].

وأَمَّا المعيار التبعي: فإعمال النَّظر العقلي مسانداً للأُصول المُتقدِّمة للكشف عن بطلان متنٍ ما.

ومثاله: حديث: (إنَّ الله - عزَّ وجل - خَلَقَ الفرس، فأجراها، فَعَرِقَتْ، ثُمَّ خلق نفسه منها)[4].

فهذا الحديث مُناكِدٌ للدَّلائل الشرعيَّة النَّقليَّة والعقليَّة، فأمَّا النَّقل فبيِّنٌ ظاهر كقول الله - تعالى -: ﴿لم يلد ولم يولد﴾ فإذا كان الله قد نفى أن يكون متولداً من غيره - تعالى عن ذلك - فإن امتناع أن يكون مخلوقاً من غيره مما خلقه أَوْلى في الامتناع.

وأَمَّا البرهان العقلي المعاضد فهو أنَّ الخالق يستحيل أن يكون خالقاً لنفسه؛ فيكون خالقاً ومخلوقاً في آنٍ واحد فإنَّ ذلك من باب اجتماع النقيضين.

لذا قال ابن الجوزي: (هذا حديثٌ لا يُشَكُّ بوضعه، وما وضع مثل هذا مسلمٌ، وإنَّه لمن أَركِّ الموضوعات وأَبردِها؛ إذ هو مستحيل؛ لأنَّ الخالق لا يخلق نَفْسَه)[5].

وقال الإمام ابن تيميَّة بعد أن ساق هذا الحديث وغيره من المختلَقات: (أحاديث مكذوبة موضوعة باتِّفاق أهل العلم)[6].

فإن قيل: ظاهر كلام الأَئمَّة عَدُّ المعيار العقلي أَصلاً مُستقلاً من أُصول النَّقد للمتون. كقول الخطيب البغدادي - رحمه الله -: (ولا يُقبَل خبر الواحد في مُنافاة حُكْم العقل)[7].

وقول ابن الجوزي - رحمه الله -: (... فكلُّ حديث رأَيتَه يُخالفُ المعقول، أو يُناقض الأُصول فاعلم أنَّه موضوع)[8].

وقول الإمام ابن القيِّم الجوزيَّة - رحمه الله -: (ونحن نُنبِّهُ على أُمور كُليَّة، يُعرفُ بها كون الحديث موضوعاً... منها: تكذيب الحِسِّ له)[9]، ومراده بالحسِّ هنا العقل المستند إلى الحس؛ لأن الأخير لا حكم له؛ وإنما هو ناقل لمعطيات خارجيَّة.

فيقال: هنا نُكتةٌ ينبغي تقريرها، وهي أَنَّ مقالة هؤلاء الأَئمَّة حقٌّ في رُتبتها، فهي حقٌّ من جهة أنَّ العقل الفطري بمبادئه الضَّروريَّة، أو المُستند إلى الحس كلاهما يعمل على توطيد الحكم بوضع متن بعد انتصاب الدَّلائل المُحكَمة من الأُصول السابقة على تكذيب هذا المتن، ودفع صدقه؛ لذا ترى أَنَّ الأمثلة المُساقة لديهم في بيان حظِّ العقل في نقد المتون كلُّها مما لا يُدرَك فَسادُها من جهة العقل فقط، هذه واحدةٌ.

وثانية: أَن عدَّ العقل أَصلاً في نقد المتون انزياحٌ عن مَدْرجة

(١) انظر: نقد المتن الحديثي، لخالد الدُّريس، (ص٢٢).
(٢) النكت على كتاب ابن الصلاح: (٢/ ٧١١).
(٣) صحيح ابن حبَّان: (١/ ١٥٤، ١٥٥ - بترتيب ابن بلبان).
(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات: (١/ ١٤٩).
(٥) المصدر السابق: (١/ ١٤٩).
(٦) درء التعارض: (١/ ١٤٩).
(٧) الكفاية، (ص٤٣٢).
(٨) الموضوعات، لابن الجوزي: (١/ ١٥١).
(٩) المنار المنيف، (ص٤٤).

الموضوعيَّـــة إلى فضـــاء الذَّاتيَّة؛ وذلك أمـــر يتنافى مع المنهج النَّقدي الذي شاده صيارفة الحديث ونُقَّاده؛ ومَنْشأ ذلك: أنَّه لا يؤمَن من غَواشي غلبة الهوى، وطغيان العقد القلبي على العقل، أو طروء الوهم والخطأ علـــى الحِس؛ بحيث تكون الصورة في الظَّاهر توظيفاً للضرورة العقليَّة أو الحسِّـــيَّة، وفي باطن الأمر إنما هو الهوى أو الوهم، لا البرهان العقلي.

وفي تقرير أنَّ العقل وحدَه لا يســـتقل في نقد المتون يقول الإمام ابن تيميَّـــة – رحمه الله –: (والواقع أنَّه ليس في الأخبار الصحيحة التي لا معارِض لها من جِنسِها ما يُخالفُ القرآن و لا العقل)[1].

وقال: (... كما بيَّنَّا أنَّه لا يوجد حديثٌ صحيحٌ مستحِقٌّ للرَّدِّ بلا حديث يُعارضه)[2].

المقصد الرَّابع: سبر بعض المقولات التي يُتوَهم شخوصها عن المنهج:

قد وردَ عن بعض أئمَّة السَّـــلف ما قد يُشكل على ما تقدَّم بيانه من اعتبار الدَّليل العقلي برُتبته المُلمَح إليها؛ وذلك كالوارد عـــن الإمام أحمدَ – رحمه الله – حيثُ قال: (ليس في السُّـــنَّة قيـــاس، ولا يضرَب لها الأمثال، ولا تُدرَكُ بالعقول ولا الأهواء؛ إنَّما هو الاتِّباع وترك الهوى)[3].

وكقولِ الإمام أَبي المُظفَّر منصور بن محمد الســـمعاني – رحمه الله –: (فَمن الدِّين معقول وغير معقول، والاتِّباعُ في جميعه واجبٌ)[4].

بل هذا هو قول ســـائر أئمة السَّـــلف – رحمهم الله – كما حكاه عنهم أَبو العباس ابن تيمية، رحمه الله[5].

وتحرير معنى المنقولِ عنهم – رحمهم الله – يتأتَّى بالكشف عن قضيَّتين:

الأولى: بيانُ مقصودهم بنفي إدراك العقل للشَّرع.

الأخرى: بيانُ أن الجهة مُنفكة بين ما نفاه الأئمةُ – رحمهم الله – وبين ما أثبتوه، وأَنَّ النفي واقع على غير محل الإثبات.

أمَّا القضيَّةُ الأُولى: فليس المقصود بنفي إدراك العقول في ما ورد في كلام الإمام أحمد، وأبي المظفر – رحمهما الله – فَهْمَ العقـــلِ لما خُوطِبَ به، وهذا لا نزاع فيـــه؛ إذ كيف يقع التكليفُ والاتبـــاع دون أَن يتحقق مناطُ التكليف من فَهم المُكلَّف لخطاب الشارع؛ سواء كان هذا الخطاب متعلقٌ بأصول الدِّين أو فروعه.

ومما يؤكد حقيقة ما يرمي إليه هذان الإمامان وغيرهما: دلالة السياق التي تدلُّ على مُرادهما، وبيان ذلك:

أن ســـياق كلام الإمام أحمد يدل على أن ما نفاه هو معارضةُ السُّـــنَّة في ما يُظَنُّ أنـــه معقول؛ فهو – رحمه اللـــه – يرمي إلى تثبيت التسليم والاتباع لما دلَّت عليه النصوص، وعدم إناطة التسليم بانتفاء المعارِض العقلي؛ إذ مَن صدَّق الرَّســـول ﷺ حقاً فإنه يجزم بعدم إخباره ﷺ بما يُحيله العقل؛ فمن أناط تصديقه في ما يُخبر به باشـــتراط عدم المعارض العقلي، فلن يقع له الاستدلال بالنَّقل مُطلقاً؛ لأن إناطة قبول النقل بعدم ما لا يتناهى؛ إناطة بما لا يمكن تحقيقه؛ فيكون العلم بانتفاء ما لا يتناهى مستحيلاً؛ فيكون القبول أَيضاً مستحيلاً.

فَفَهْمُ العقل وتمييـــزه لما خُوطب به ليس هو المتناول بالنفي فـــي كلام هذين الإمامين وغيرهما، لذا يقرر أَبو المظفَّر – رحمه الله – ذلك بقوله: (إنَّ الله أســـس دينه وبناه على الاتباع، وجعل إدراكه وقبوله بالعقل) وقال: (فهذه الدلائلُ دلَّت أنَ الله – تعالى – هو المُعرِّفُ؛ إلاَّ أنه إنَّما يُعرِّفُ مع وجود العقل؛ لأنّه سبب الإدراك والتمييز، لا مع عدمه...)[6].

القضيَّـــة الأخرى: أنَّ المنفي هنـــا إدراكُ العقل للمطالب الدِّينية جميعها على جهة الاستقلال دون هداية من الوحي، أو إدراك المكلفين حكمةَ الشَّارع في شرعه على جهة التفصيل، أَو أنَّ العقل يُوجبُ شـــيئاً، أو يُحرِّمُ شيئاً، أَو أنَّه يقضي بثوابٍ أو عِقابٍ قبل دلالة الوحي على شـــيءٍ مـــن ذلك، وأَمَّا المثبتُ فهو درك العقل وفهمه لما خوطِب به، وإمكان الاستدلال ابتداءً على بعض المطالب الدِّينية كمسائل أصول الدين، كإثبات وجود الله – تعالـــى – وإثبات الكمال المطلق للباري – جل جلاله – وإثبات البعث. والله – تعالى – أعلم.

وصلى الله على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) جواب الاعتراضات المصرية، (ص٥٠).
(٢) المصدر السابق، (ص٨٥).
(٣) أُصول السنَّة للإمام أحمد، (ص١٩، ضمن عقائد أئمة السلف).
(٤) الانتصار لأصحاب الحديث، جمع محمد بن حسين الجيزاني، (ص٧٨).
(٥) درء التعارض: (٥/٢٩٧).
(٦) المصدر السابق، (ص٧٨، ٧٩).

الدستور الإسلامي

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

الدستور لفظة غير عربية يراد بها عدة معاني من أهمها: القاعدة أو الأساس الذي يُبنى عليه، وأكثر ما تُستخدَم هذه الكلمة في عالمنا المعاصر في المجال السياسي، ويراد بها القانون الأعلى في الدولة؛ فهو بهذه المثابة أبو القوانين الذي تنبثق منه بقية القوانين التي تحكم المجتمع في مجالاته المتعددة كافة؛ حيث يُنَص فيه على شكل الدولة وشكل الحكومة ونظام الحكم والسلطات العامة في الدولة؛ فيبين ما السلطات العامة وكيفية تكوينها، واختصاصات كل سلطة وحدودها، والعلاقة بين السلطات، وصلاحيات كل سلطة، وكيفية الرقابة على السلطات، وحقوق الأفراد والجماعات الأساسية وواجباتهم وحرياتهم، وضمانات حفظ ذلك.

والدستور غريب في لفظه وكيفيته على الفقه السياسي الإسلامي في عصر الراشدين وما تلاه من العصور، وإن كان كل ما يتضمنه الدستور تدل عليه أحكام الشريعة؛ سواء بالموافقة أو الرفض. والمؤلفات في الأحكام السلطانية مما يمكن أن تُعَد النواة لكتابة الدساتير في الفقه السياسي الإسلامي ولو تفحصنا كتاباً مثل كتاب الأحكام السلطانية للماوردي لوجدناه يشتمل على حديث في كثير من الأمور التي تتضمنها الدساتير؛ حيث عقد باباً للإمامة (رئاسة الدولة) تكلم فيه عن حكم نصب الإمامة وشروط الإمام، وكيفية وصوله لمنصبه، وشروط من يختاره لهذا المنصب، ثم تحدث عن واجبات الإمام (أي حقوق الملة والأمة

تجاهـــه وحقوقه على الأمة)، كما تحدث عن المســـوغات التي يفقد بها الإمام منصبه إذا تحققت فيه، وعقد باباً للحديث عن الوزارة؛ فبين أنواعها والشروط التي ينبغي وجودها في من يلي هذا المنصب وعقد باباً للحديـــث عن أمراء الأقاليم، وباباً في الحديث عن الإمارة على الجهاد، وباباً في الحديث عن الولاية علـــى حروب المصالح، وكل ما تقدم يدخل في ما يســـمى الآن بالســـلطة التنفيذية. كما عقد باباً فـــي ولاية القضاء تحدث فيه عن شـــروط من يتولى القضاء وكيفية انعقاد ولاية القضاء وحـــدود ولاية القاضي، وهذه تعد بالمعايير المعاصرة الســـلطة القضائيـــة. كما عقد باباً لولاية المظالم وهي معنية بالنظر في المقـــام الأول في تعديات الولاة على الرعية وهي تُعَد في أيامنا هـــذه من باب القضاء الإداري، وهكذا حتى أتم عشـــرين باباً، تناول أموراً في صلب ما يســـمى بالدســـتور، لكن هناك فروقاً جوهرية بين كتب الأحكام السلطانية وبين الدساتير تتمثل في:

١ – أن كتب الأحكام السلطانية عندما تذكر الأحكام فإنها تذكرها من قبيل المدارســـة الفقهية، بينما ما تذكره الدساتير تذكره على أنه أحكام باتة نافذة ملزِمة.

٢ – أن كتب الأحكام الســـلطانية تشـــتمل على ما يعد من قبيل المواد الدستورية والمواد الأقل شأناً؛ أي في منزلة القانون العادي، بينما الدســـاتير تتضمن فقط المواد التي يمكن أن تُعَد أنها مواد دستورية دون أية مواد أخرى.

٣ – والفرق الثالـــث أن كتب الأحكام تُكتَب من طرف أهل العلـــم وليس هناك أية آلية يجب اتباعهـــا لكتابة المؤلفات في الأحكام الســـلطانية؛ فيمكن لكل عالم أن يكتب كتاباً في ذلك يضمِّنـــه مذهبَه ورأيَه واختياراته ويمكن لأي عالم أن يرجع عن بعض أقواله إذا تبين له أن هناك ما هو أصوب من رأيه المرجوع عنه؛ من غير أن يكون هناك طريق يجب عليه سلوكه في ذلك. بينما الدستور يوضع وَفْقَ آلية معيَّنة وهو دستور وحيد للدولة، ويظل سارياً نافذاً ولا يمكن التراجع عن بعض أحكامه إلا وَفْق آلية معيَّنة.

إذا نظرنا لبعض الدساتير المعاصرة التي كتبت من منظور إســـلامي فســـنجد أنها تناولت ما تتناوله الدساتير الوضعية (عناوينَ وموضوعاتٍ) لكنها تختلف عنها في كونها تثبت الوجهة الإسلامية في كل ما تذكر، وقد تضيف بعضَ المواد الدستورية التي لا نظير لها في الدســـاتير الوضعية؛ نظراً لطبيعة شمول أحكام الإســـلام لكل ما يتعلق بالفرد والجماعة، لكن الحقيقة ليس هناك ضابط موضوعي يضبط الموضوعات التي يشـــملها الدستور والتي لا يشملها.

مكونات الدستور الإسلامي:

يحتوي الدستور الإســـلامي على مجموعة من المواد تعالِج وضع الدولـــة بين الدول وعلاقـــة الدولة بغيرهـــا من الدول الإسلامية، ودين عامة أهلها، ووضع الطوائف المغايرة للأغلبية، ووضع الفرد من حيث الحقوقُ والحرياتُ والواجباتُ، ومجموعة من المواد التـــي تعالج النظام السياســـي، ومجموعة من المواد التـــي تعالج الوضع الاقتصادي، ومجموعة من المواد التي تعالج الحالة الاجتماعية: كالتعليم والصحة والأسرة والزواج والطلاق، ومجموعة من المواد التي تبيِّن أســـس المجتمع الإسلامي: يذكر فيها محوريـــة الإيمان بالله واليوم الآخر والتحاكم إلى شـــرع الله – تعالى – وأن الشـــريعة هي المصدر الوحيد للتشريع وأن كل ما خالفها باطل، ومجموعة من المواد التي تبيِّن الســـلطات في الدولة والعلاقة بينها، ومجموعة من المواد التي تتحدث عن الشورى والتشريع والرقابة.

كما يتبين في الدســـتور الإســـلامي الغاية الإسلامية التي تســـعى إليها الدولة، وحدود طاعة الرعيـــة لها والأحوال التي تصبح معها الرعية في حِلٍّ من طاعتها أو مقاومتها.

مصادر الدستور الإسلامي:

مصادر الدستور الإسلامي تنحصر في مصادر ثلاثة:

١ – القرآن الكريم: الذي فيه الإرشـــاد والدلالة على الخير كلـــه في أمور الدنيـــا والآخرة كلها، والذي ضمَّنـــه الله الهداية والسعادة لمن اتبعه وجعله إمامه وأمامه ولم يجعله خلفه أو تابعاً.

٢ – سنة الرسول الكريم ﷺ: وهي التفسير العملي لما جاء في كتاب الله تعالى. وقد أوجب الله – تعالى – طاعة رســـوله ﷺ بل علق الإيمان بتحكيم الرســـول في كل شـــيء من شؤوننا وأقســـم على ذلك بذاته العَلية فقال – تعالى –: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

٣ – سنة الخلفاء الراشدين: وهم الذين أمر رسول الله ﷺ باتباعهم؛ حيث قال: «فعليكم بســـنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين...» الحديث[1]، فقد وطدوا – رضي الله تعالى – عنهم

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم ١٧١٤٤، وصححه الألباني.

دعائم الدولة وانتقلت السلطة في مدة ثلاثين سنة إلى أربعة خلفاء كل منهم بطريقة مباينة لبقية الطرق وهو ما أوجد قدراً من السوابق الدستورية التي تثري هذا الباب من العلم.

ما تقدم يمثل المصادر الأصلية للدستور، وهناك ما يُعَد من قبيل المصادر التبعية التي لا تستقل بإفادة المطلوب؛ وإنما لا بد من اعتمادها على المصادر الأصلية وهي اجتهادات المجتهدين من أمة محمد ﷺ.

تدوين الدستور:

المقصود بتدوين الدستور أن تدوَّن المسائل التي يعالجها الدستور في وثيقة مكتوبة تكون لها السمو والعلو على جميع القوانين السائدة في المجتمع، وهذه الوثيقة (الصك) يطلق عليها الدستور.

إن المسائل التي ينظر إليها على أنها دستورية لم تفرَد في الدولة الإسلامية على مدى أكثر من اثني عشر قرناً عن بقية المسائل التي تضمنتها الشريعة، ومن لوازم ذلك ألا يكون هناك تدوين لتلك المسائل مجتمعة في وثيقة واحدة.

والحقيقة أن التدوين لا يحتاج الناس إليه في كل أحوالهم، بل يُحتَاج إليه عند توافر شروط معيَّنة، ومن أهم دواعي تدوين الدستور عند شعب من الشعوب أن لا يكون لهذه الشعوب مصادر قانونية تحظى بالاحترام والتقدير من الشعب جميعه، وحينئذٍ يكون الاتفاق على وثيقة (دستور) يتفق عليها الناس تقود النظام السياسي للبلاد مخرجاً من التفرق والتناحر الذي يمكن أن تتجرف إليه كل طبقات المجتمع في حالة عدم وجود مثل تلك الوثيقة؛ حيث تحدد الوثيقة الحقوق والواجبات والمسؤوليات والصلاحيات والعلاقات بين مكونات المجتمع؛ سواء الأفراد أو الجماعات أو الحكومة، ومن البيِّن أن الدول الإسلامية تنفرد عن بقية دول العالم بخاصية لا توجد في دولة غيرها؛ وذلك أن الدول الإسلامية لها دين محفوظ معلوم المصادر، له في كل ما ينزل بالمجتمع والجماعة والأفراد حكمه وهدايته، ويتمتع حكم الإسلام وهدايته بالاحترام والتقدير والتقديس من كل نفس تشهد أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومن ثَمَّ فليست هناك دواعٍ موضوعيةٌ لكتابة دستور؛ إذ يكفي في ذلك نشر العلم بالفقه السياسي وتفعيل دور مؤسسة الحسبة في الجانب السياسي، لكن لو اختار الناس أن يكون للبلد دستور مكتوب فليس هناك ما يمنع من ذلك إذا كان الدستور يحافظ على الأحكام الشرعية المتعلقة بالسياسة وهذا لا يمكن حدوثه إلا إذا كانت صياغة الدستور تحدث من قِبَل علماء الشريعة أو تحت إشرافهم الكامل.

تعديل مواد الدستور:

في جميع الدساتير الوضعية توجد آلية محددة لتعديل أو تغيير بعض مواد الدستور، وذلك نابع من أن الدستور يوضع معبِّراً عن تصورات الشعب وتطلعاته وَقْتَ صدوره، لكن هذه التصورات والتطلعات عرضة للتغير مع مرور الزمن من أجل ذلك تحسَّبوا لذلك عن طريق إمكانية التعديل أو الإلغاء، وأما الدستور الإسلامي فينبغي ألا توضع فيه إلا الأحكام التي لا تكون عرضة للتغير بمرور الزمن حتى يحفظ للدستور هيبته ولا يكون عرضة للتغيير حسب آراء أو أهواء بعض الناس، وأما الآليات التي تكون عرضة للتغيير فوضعها في وثيقة أخرى أدنى من الدستور منزلة قد يكون أوفق من وجهة نظري.

وعندما يوضع الدستور على النحو الذي ذكرته لا يكون الدستور عرضة للتغيير ومن ثَمَّ يكون إلزامه ليس قاصراً على الجيل الذي وضع الدستور؛ بل يمتد ليشمل الأجيال التالية، وبهذا أيضاً يكون الدستور للبلاد الإسلامية كلها دستوراً واحداً، وهو ما يوجِد تجانساً كبيراً بين تلك الدول ويقرِّب ما بينها.

مشروعات الدساتير الإسلامية المعاصرة:

اطلعتُ على عدة مشروعات لدساتير إسلامية من ذلك:

١ – إعلان دستوري إسلامي للمستشار الدكتور علي جريشة – رحمه الله – وهو مكون من ٤٩ مادة.

٢ – نموذج لدستور وضعه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر وهو مكون من ١٤١ مادة

٣ – نموذج لدستور إسلامي وضعه الدكتور مصطفى كمال وصفي نائب رئيس مجلس الدولة المصري – رحمه الله – وهو مكون ٧٤ مادة.

٤ – نموذج لدستور إسلامي أقره المجلس الإسلامي العالمي في إسلام أباد وهو مكون من ٨٧ مادة.

هذه المشروعات مجموعة في كتيب واحد على الترتيب الذي أوردته هنا تحت اسم إعلان دستوري إسلامي صادر عن دار الوفاء للطباعة والنشر بالمنصورة بمصر.

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

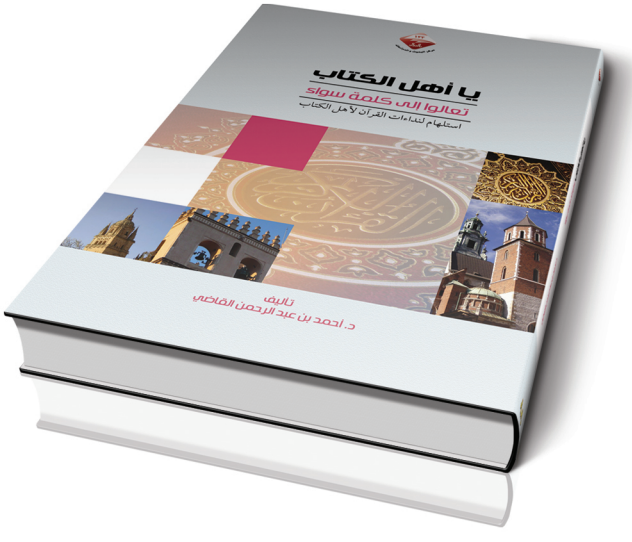

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

تحريف التوراة... متى وكيف؟ (٣ - ٣)

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

تحدثتُ في الجزء الثاني من هذا الموضوع عن تاريخ تحريف التوراة وبيَّنتُ - اعتماداً على ما يُعرَف في الأوساط العلمية باسم «نظرية المصادر» - أن «العهد القديم» (أو «التوراة العبرانية») التي بين أيدينا تحوي مصادر متعددة لُفِّقت لتؤلف نصاً واحداً؛ هذه المصادر هي «الإلوهيمي» و «اليهويُّ» و «الكهنوتي» و «التثنوي»، وما ذكرته هناك هو ما تذهب إليه الأغلبية الساحقة من علماء العهد القديم مع اختلافات يسيرة. لكنني أشرت كذلك إلى أن عملية تلفيق المصادر تمَّت بدقة متناهية؛ إلا أنَّ آثار التلفيق لم يمكن إخفاؤها تماماً، وهو ما سأمثِّل له هنا بقصة الطوفان.

تتألف قصة طوفان نوح - عليه السلام - كما يسجلها سفر التكوين من روايتين في نسيج واحد: إحداهما الرواية «اليهوية» التي تشير إلى الرب باسم «يهوه»، والأخرى هي الرواية «الكهنوتية». وسأورد أدناه جزءاً من قصة الطوفان مميِّزاً النص «اليهوي» بالقلم الأسود والنص «الكهنوتي» بالقلم الأحمر. وسيلحظ القارئ أن كل رواية منهما يمكن قراءتها على حدة دون إخلال بالسياق. يقول النص:

«٧: ٢١ **ومات كلُّ ذي جسد كان يدبُّ على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحَّافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس.** ٢٢ كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. ٢٣ فمحا يهوه كلَّ قائم كان على وجه الأرض، الناس والبهائم والدبَّابات وطيور السماء. فانمَّحت من الأرض وتبقَّى نوح والذين معه في الفلك فقط. ٢٤ **وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً. ٨: ١ ثم ذكر إلوهيم نوحاً**

وكلّ الوحوش وكلّ البهائم التي معه في الفلك. وأجاز إلوهيم ريحاً على الأرض فهدأت المياه. ٢ وانسدّت ينابيع الغمر وطاقات السماء. فامتنع المطر من السماء. ٣ ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. **وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. ٥ وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال.** ٦ وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها. ٧ **وأرسل الغراب، فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض.** ٨ وأرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياه عن وجه الأرض؟ ٩ فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها، فرجعت إليه إلى الفُلك لأن مياهاً كانت على وجه كل الأرض. فمدَّ يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. ١٠ فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك، ١١ فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها، فعلم نوح أن المياه قد قلّت عن الأرض. ١٢ فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه ثانية. ١٣ **وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أنّ المياه نشفت عن الأرض.** فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. ١٤ **وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفّت الأرض. ١٥ وكلّم إلوهيم نوحاً قائلاً: ١٦ اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساءُ بنيك معك. ١٧ وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم، وكل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك. ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض. ١٨ فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه. ١٩ وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور كل ما يدبُّ على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك.** ٢٠ وبنى نوح مذبحاً ليهوه. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. ٢١ فتنسم يهوه رائحة الرضا. وقال يهوه في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان؛ لأن تصوُّر قلب الإنسان شريرٌ منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حيٍّ كما فعلت. ٢٢ مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحَرٌّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال».

إن وجود روايتين متداخلتين في بعضهما ليس كل ما يميز هذا النص؛ بل ثمة ميزات أخرى، منها: أن النص اليهوي يطَّرد في استعمال اسم «يهوه» للإشارة إلى الرب، بينما يستعمل النص الكهنوتي اسم «إلوهيم» للغرض نفسه. كذلك تشير الرواية الكهنوتية إلى طول مدة الطوفان حتى تبلغ بها مئات الأيام بينما تجعلها الرواية اليهوية أربعين يوماً. كما نلحظ أن الطير الذي أرسله نوح - عليه السلام - طليعةً كان وَفْقاً للرواية اليهويَّة «حمامة» بينما كان «غراباً» وَفْقاً للرواية الكهنوتية. وأخيراً لا تتورع الرواية اليهوية عن تشبيه الخالق بخلقه؛ فالرب وَفْقاً لهذه الرواية يتنسم رائحة القرابين ويندم على لعنه الأرض، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

هذا الخلط بين مصادر العهد القديم نتج عنه تناقضات عدة. منها على سبيل المثال قصة يوسف - عليه السلام - في سفر التكوين ٣٧. فالرواية الإلوهيمية تذكر أنه لما تآمر إخوته على التخلص منه صرفهم «رأوبين» عن فعلتهم فانتهوا إلى إلقاء يوسف - عليه السلام - في الجب. فمرت قافلة من المديانيين فأخذته وباعته بمصر. أما الرواية اليهوية فتنص على أن «يهوذا» هو الذي أقنع إخوته بعدم قتل يوسف - عليه السلام - وأن القافلة التي أخذته كانت من الإسماعيليين (نسبة إلى إسماعيل عليه السلام).

ومثل هذه التناقضات نجدها في مواضع كثيرة من الأسفار الخمسة التي تُنسَب كتابتها إلى موسى - عليه السلام - كاسم كاهن مديان (مدين) الذي تزوج موسى - عليه السلام - من إحدى بناته، فهو في الرواية الإلوهيمية «يثرون» [التكوين ٣: ١] وفي الرواية اليهوية «رعوئيل» [التكوين ٢: ١٦]، وكل محاولات الترقيع لا تجدي نفعاً؛ لأن تباين المصادر واضح جليٌّ خصوصاً في الأصل العبري الذي تتمايز فيه أساليب اللغة كذلك. فالتوراة التي بين أيدي اليهود والنصارى لا تقوم أمام النقد العلمي البتة ولا ينبغي القول بأنها مجرد نسخة محرفة من الأصل الذي أنزل على موسى - عليه السلام - فالبون بينهما شاسع. بل جلُّها مما كتبه الكهنة وزعموا أنها من عند الله ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً.

من فضلك... أَفْسِح المجال

منصور بـــاوادي

كثيرون هم الذين يعارضون نظـــام التقاعد ويعتبرونه قتلاً للطاقـــات والإبـــداع ووأداً لتراكم الخبـــرات والمعرفة، بينما كل العقلاء متفقون على أن الإنســـان لا يمكن أن يظل طوال عمره منتجاً معطاءً، وأن هناك مرحلة تنتظر كلَّ واحد منا في مشـــوار حياته يخيم تحتها مســـتقراً مكملاً بقيـــة حياته. هذا في إطار العمل المؤسســـي الذي ينتظم بهيئات وإدارات وكتل ونحوه. وأما رســـالة الحياة العامة التي هدفها الأســـاســـي والأسمى مرضاة اللـه – تعالـى – وتحقيـق العبـودية لـه وحدَه – ســـبحانه – فهـي لا تعرف تقاعداً ولا إجازة ولا راحة فالعمر كله يُســـتنفَر لعبادة اللـــه وحدَه حتى آخر نَفَـــس. يقول – تعالى –: ﴿قُـلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣]، ويقول ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وليس هذا موضع حديثنا.

ونظام التقاعد كغيره من الأنظمة يقدَّر بقدره ووقته ومكانه، وما تحديد ســـن التقاعد المنصوص عليه قانونياً إلا مبنيٌّ على اســـتقراء عمر الإنســـان ومدى اســـتجابة هذا العمر في بعض مراحله للعطاء والبذل. وهذا لا يســـتوي فيه كل الناس؛ بل من الناس من تتمنى لو يتقاعد في ســـن مبكرة جـــداً؛ فهو أجدى وأفضـــل له ولفريقه، ومنهم من لا يمنعه طول العمر من الإنتاج. وعلى هذا فإن التقاعد – وخاصة في إطار العمل الإســـلامي – المؤسسي يُنظَر فيه لكل طَرَف على حِدَة؛ لأنه ليس مُلكَاً لشخص مَّا حتـــى يفني الأفرادُ أعمارهم كلها يتحملون تبعاته، وليســـت رســـالته دنيوية بحتة تخضـــع لقانون الربح والخســـارة المادي فنخسر اليوم ونكســـب غداً، ولا يمكن تعويض الفشل والإخفاق فيه لأن النتائج العكسية تُحدِث شرخاً عظيماً في كيانه وبنيانه، وفي هذا مزيد من التفتت والتمزق، وأخيراً هو جهد احتســـابي وتطوُّعـــي يُنظَر فيه أولاً وأخيراً للمصلحة العامة على حســـاب الفردية إن تطلَّب منا أن نجري هذه المعادلة. وبناء على هذا فإني لا أتراجع أن أقول: من فضلك... أفسح المجال!

قـــد يكون كلامي جانَبَه الصوابُ وأخطأ قلمي التشـــخيصَ والوصفَ، ولكن القارئ ربما يشـــعر بأن هذا السؤال يحتاج إلى طرحه ورفعه في وجوه بعض الناس؛ وخاصة أننا مللنا وأرهقت أسماعنا الاستغاثات والنداءات من هنا وهناك داخل إطار العمل الإســـلامي بمختلف توجهاته وانتماءاتـــه، وهو ما يوحي أن الماء

فيه ما يعيق تقدُّمه وجريانه. وأنا ما قصدت بكلامي أشـــخاصاً محدَّديـــن ولا جهات ما؛ بقدر ما لاحظت أنها ظاهرة متفشـــية تكبر وتصغر من فصيل لآخر، ولســـت أدعـــو – كما قد يفهمه بعضهـــم – إلى الانقلابـــات والثورات والتمرد علـــى القيادات، وترؤس الأحداث الغررة. فليس هذا مقصودي، ولكن لا نستطيع أن نبرِّئ ســـاحتنا الإســـلامية من وجود نوع مـــن الدكتاتورية الإداريـــة والحركية تمارَس في أروقة العمل الإســـلامي من قِبَل بعض القيادات ألقَت بظلالها على نفسية من تحتها فهابوا ركوب مطية القيادة والريادة، واستسلموا لحتمية بقاء القيادة بعثراتها وسقطاتها حتى شاخ المشروع سريعاً وأحيل إلى التقاعد. ولسنا فـــي مقابل ذلك نطالب بجـــوٍّ من الديمقراطيـــة وحرية الرأي الغربية؛ وإنما المقصود أن نستشعر – بعيداً عن الشهوات الخفية المخفية – حقيقة أن المصلحة الدعوية فوق أي اعتبار.

كيف لا نطالب بتقاعد هذا أو ذاك وهو يرى أن تنحيته قتل للمشـــروع ووأد له، وأنه هو المخلِّص المنتظَر، فيبعث بالرســـائل غير الشـــعورية هنا وهناك؛ أن لا حياة للمشـــروع بدوني، ويرى أحقيته بالقيادة والريادة وعدم التنازل عنها والتزحزح مليمترات قليلة، لأنه يعد نفســـه من طلائع المشـــروع ومـــن الذين كابدوا وناضلوا في بداياته حتى اســـتوى قويـــاً فتياً؛ فهو يرفع فاتورته الحياتية كلما بدا صوت يطالب بتصحيح وتقييم، ولا تســـل بعد ذلـــك عن الألقاب والأوصاف التي تُلقـــى كالصواعق على رأس

الناقــد من قِبَل قيادته جراء مــا اقترفته يده من توجيه نقد أو مطالبــة بتقاعد، بينما من المعلــوم بداهة أنه لا يوجد عمل في الدنيا مرتبط بقاؤه وموته بحياة شــخص وموته، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله – تعالى –: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُــولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُــلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِــلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَــيْئاً وَسَــيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، ولقد تلا أبو بكر – رضي الله عنه – هذه الآية على الناس يوم وفاة النبي ﷺ مذكراً بهذا المفهوم العظيم المستنبَط من الآية قائلاً: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن اللــه حَيٌّ لا يموت. قال الله – تعالى –: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُــولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُــلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِــلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] قال: فوالله لكَأنَّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما ســمعها بشر من الناس إلا تلاها[١].

وللشيخ عبد الرحمن الســعدي – رحمه الله – كلام نفيس عــن هذه الآية أنقله بالنص حيث يقول: «وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله – تعالى – لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعــض لوازمه، فَقْدُ رئيس ولو عظم؛ وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيــه، إذا فُقِد أحدهم قــام به غيره، وأن يكــون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحســب الإمكان؛ لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس؛ فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم»[٢].

ونجد هذا المفهوم أيضاً عنــد الرجل الثاني في هذه الأمة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما وجَّه بعزل خالد بن الوليد – رضــي الله عنه – من إمارة الجيش وتوليتها أبا عبيدة عامر بن الجراح – رضي الله عنه – لما بدأ الاعتقاد يســود في الجيش أن حياة وموت مشروع الفتح مرتبط بحياة خالد وموته.

إن القيادة الواعية تستشــعر التحديات المحيطة بالمشــروع فتضع السياسات الضامنة لاستمراريته وإن تعارضت مع (الأنا) القيادية؛ لأنه لا بد من ضرورة الفصل بين العمل رســالة ورؤية والعمل شــخصاً وذاتاً، ومن تمعَّن في ســيرة الرسول ﷺ رأى التوظيف الجيد للأتباع بما يضمن اســتمرارية مشروع الرسالة الإسلامية بعد وفاته.

بعض القيادات أشــبهت الأم من حيث التزام نظرة ثابتة لا تتغير مع أولادها مهما تقادم بهم الســن؛ فلا يوجد في خططه وبرامجه (البلوغ القيــادي والإداري) عند أفراده، ولا توجد كذلك البرامــج التطويرية للأفــراد مخافة أن يزاحموه علــى القيادة، ولا المواقــف المتغيرة تجاه أفراده لتغيير المــكان والزمان والحال، وربما تحصلوا على أعلى الدرجات العلمية والوظيفية في حياتهم العمليــة، ولكنهم لا يزالــون في نظره طلابَــه (أتباعه) الصغار، ونظرته وتقييمه لهم لم ولــن يتغيرا أبداً؛ فهو لا يعرف إلا موقفاً واحداً ثابتاً نهائياً نحوهــم؛ كأنما ختم على هذا بالعجلة، والآخر بشــدة الغضب، والثالث بالعنترية حتى يفــارق الحياة، وبناءً على ذلــك يصل للنتيجة الحتمية، وهي: أنهم لا زالوا بحاجة إلى رعاية ووصاية إدارية وحركية طوال أعمارهم الزمنية التي لا تتقادم أبداً في نظر قائدهم.

وينبغي أن نفرق بين إصــلاح الأخطاء والعثرات، في جو من الاستمرارية والحياة المتجددة للمؤسسة، وبين التعثرات التي تؤدي إلى تآكل العمل وتلاشيه وتوقُّفه، ومن ثَمَّ ينحدر العمل، ولا سبيل لنا لإيقاف انحداره إلا الإحالــة للتقاعد، فينبغي هنا أن لا نقف عند رغبات أنفسنا وطموحنا ونسوق التبريرات والتمحلات لإقناع الآخرين بأن الأمور على خير ولا يوجد ما يدعو للقلق، ونحن في الحقيقة ننتصر لذواتنا ورغباتنا.

ومن المقاتِل العظيمة أن يســود العملَ نوعٌ من المجاملة البلهاء على حســاب العمل، ولا يوقظنا منها إلا مرحلــة الانهيار التام، فنملأ الدنيا حينها بالصراخ والضجيج ونرفع رايات التقاعد ولكن الوقت يكون قــد فات. إنه لمن الإجحــاف أن نظل ننظر للأمور مجاملــة وحياء وهي تنحــدر فلا يوقِفُ هذا الموقــفَ الباردَ إلا الخيارات الثنائية الحاسمة القاتلة (أسود وأبيض)، وتكون التبعة بعد ذلك موت ســريري لهذا الشــخص، أو انقسام وتمزق يتبعه اتهامات وتخوين من قِبَل الأطراف المنقسمة؛ فلماذا لا تكون لدينا حاسة الاستشعار المبكر نستشف من خلالها مواضع الداء؟ ولماذا لا نعرف الحلول الاســتباقية للحدث؟ ولماذا نعيش على الأزمات؛ فنقضي أعمارنــا في معالجة الأزمات حتــى أصبحنا جزءاً من الأزمة؟ إن الزمــن لا يترك أحداً في منتصــف الطريق ويدفعه ليسلك خياراً بالتقدم أو التراجع؛ فَمَن فَقِه رسالته واتضح هدفه لم ولن يكون من المتراجعين أبداً.

ليس التقاعد طرداً ولا يجوز أن يكون تنحية إلى هامش الحياة وشل الحركة، وتعطيل الحياة العملية للشخص، ولكنه تجديد وأمل؛ لأن التقاعد لا نصل إليه إلا إذا خيمت الأزمات والمخرج منها بأكبر قدر من المكاسب هو الأمل، وفي المقابل لا نفهم التجديد دائماً بأنه الطاقات الشابة؛ فهناك من الأعباء ما تقصم الظهور ولا يتصدى لها ويقــوم بها إلا من عركته الأيام والأعــوام. وهنا تظهر أهمية وفائدة التخطيط الجيد لدى القيادة في إدارة عملها وتوزيع الأدوار والأعمال بما في ذلك التقاعد.

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة، رضي الله عنها.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ١٥٠.

اقتران العلم والإيمان في القرآن

حِكَمٌ وأسرار

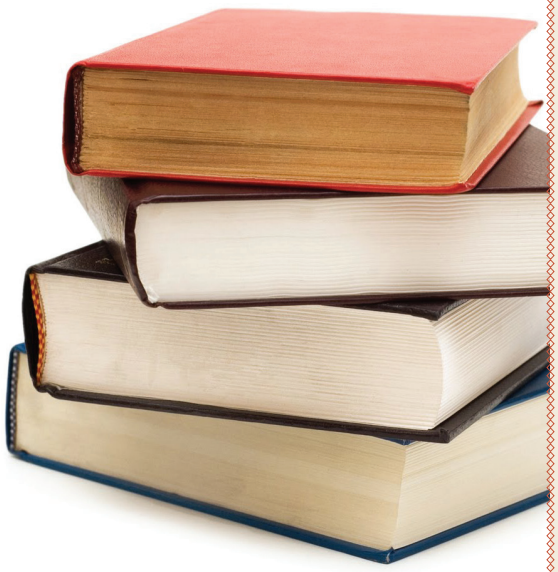

د. توفيق علي زبادي(*)

إن أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة هو العلم والإيمان؛ ولهذا قرن بينهما - تعالى - في كتابه في مواضع:

منها: قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

قال ابن عاشور - رحمه الله -: (جعل الله منكري البعث هدفاً لسهام التغليط والافتضاح في وقت النشور؛ فلما سمع المؤمنون الذين أوتوا علم القرآن وأشرقت عقولهم في الحياة الدنيا بالعقائد الصحيحة وآثار الحكمة لم يتمالكوا أن لا يردوا عليهم غلطهم ردّاً يكون عليهم حسرات أن لا يكونوا قبلوا دعوة الحق كما قَبِلَها المؤمنون. وعطف الإيمان على العلم والاهتمام به؛ لأن العلم بدون إيمان لا يرشد إلى العقائد الحق التي بها الفوز في الحياة الآخرة. والمعنى: وقال لهم المؤمنون إنكاراً عليهم وتحسيراً لهم.

والظاهر أن المؤمنين يسمعون تحاجَّ المشركين بعضهم مع بعض فيبادرون بالإنكار عليهم؛ لأن تغيير المنكر سجيتُهم التي كانوا عليها.

وفي هذا أدب إسلامي، وهو: أن الذي يسمع الخطأ في الدين والإيمان لا يقرُّه ولو لم يكن هو المخاطب به)[1].

وفي هذا دليل على كمال عدل أهل العلم؛ فإن الله استشهد بهم على عباده، وذلك تعديل منه لهم، وفي هذا من الشرف وعلوِّ المكانة ما لا يخفى[2].

وهنا تساؤل: لماذا قدَّم العلم على الإيمان؟

قال الفقيه الإمام القاضي - رحمه الله -: (ذكر العلم يتضمن الإيمان ولا يصف الله بعلم من لم يعلم كل ما يوجب الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تنبيهاً عليه وتشريفاً لأمره؛ فنبه على مكان الإيمان وخصه بالذكر تشريفاً)[3].

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: (الذين أوتوا العلم هم المؤمنون؛ فإظهار لفظ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مقام ضمير ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ لقصد مدحهم بوصف الإيمان)[4].

وهنا تساؤل آخر: لماذا قال: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ولم يقل: علموا؟

قال الشعراوي - رحمه الله -: (كأن العلم

(*) عضو هيئة التدريس بمعهد الإمام الشاطبي، التفسير وعلوم القرآن.

(١) التحرير والتنوير: ٢١/ ٨١.

(٢) تيسير اللطيف المنان في تفسير الأحكام: ١/ ٣١.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٦١.

(٤) التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٢٢.

ليس كَسْباً؛ إنما إيتاء من عَالِم منك يعطيك. فإنْ قُلتَ: أليس للعلماء دور في الاستدلال والنَظر في الأدلة؟ نقول: نعم، لكن مَنْ نصب لهم هذه الأدلة؟ إذن، فالعلم عطاء من الله)[1].

ومن الآيات التي قُرن فيها بين العلم والإيمان قوله - تعالى -: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات)[2].

قال الرازي - رحمه الله -: (اعلم أنه - تعالى - ذكر الدرجات لأربعة أصناف:

أولها: للمؤمنين من أهل بدر قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. [الأنفال: ٢-٤]

والثانية: للمجاهدين: قال: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ [النساء: ٩٥].

والثالثة: للصالحين: قال: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥].

الرابعة: للعلماء: قال: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. [المجادلة: ١١]

والله فضل أهل بدر على غيرهم من المؤمنين بدرجات، وفضل المجاهدين على القاعدين بدرجات، وفضل الصالحين على هؤلاء بدرجات ثم فضَّل العلماء على جميع الأصناف بدرجات، فوجب أن يكون العلماء أفضل الناس)[3].

فالآية تعلمنا: أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر، والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات[4].

إن رفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (قَوْله - تَعَالَى -: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] خَصَّ - سُبْحَانَهُ - رَفْعَهُ بِالْأَقْدَارِ وَالدَّرَجَاتِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ؛ وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَشْهَدَ بِهِمْ فِي قَوْله - تَعَالَى -: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

(١) تفسير الشعراوي، ص ٧٢١٧.
(٢) الدر المنثور: ١٤/ ٣٢٢.
(٣) تفسير الرازي: ٢/ ٤٠٠.
(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٥١٢.

وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يَرَوْنَ مَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ هُوَ الْحَقُّ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] فَدَلَّ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَ الْحُجَّةِ وَالْقِيَامَ بِهَا يَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ يَرْفَعُهَا كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: بِالْعِلْمِ. فَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ وَالْأَقْدَارِ عَلَى قَدْرِ مُعَامَلَةِ الْقُلُوبِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ)[5].

وقال ابن القيم في فضل أولي العلم والإيمان: (وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه والمؤهلون للمراتب العالية)[6].

فالمراتب العالية لأهل العلم والإيمان في الدنيا والآخرة.

فالأمة التي يعلوا فيها أهل العلم والإيمان هي الأمة المؤهلة لقيادة البشرية إلى حياة طيبة، تعلو فيها قيمة الإنسان، ويُعْرَف لكل عالِم فيها قدره ودرجته.

والأمة التي لا تعطي لأهل العلم في جميع المجالات التقدير والدرجات أمة مؤهلة للتبعية لا للقيادة، وللذلة لا للعزة، ولحياة الضنك وضيق العيش لا للحياة الطيبة.

اختلاف حقيقة العلم والإيمان عند الناس:

أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللذَين بهما السعادة والرفعة وفي حقيقتهما؛ حتى إن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع؛ بل قد سدُّوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ودعا إليهما الأمة وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام كما قال حماد بن زيد قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو في ما تقدم؟

فقال: الكلام اليوم أكثر والعلم في ما تقدم أكثر.

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام فالكتب كثيرة جداً والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة والعلم بمعزل عن أكثرها وهو ما جاء به الرسول عن الله.

قال - تعالى -: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾. [آل عمران: ٦١]

(٥) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٩.
(٦) الفوائد، ص ١٠٧.

وقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّـذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾. [البقرة: ١٢٠]

وقال في القرآن ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]؛ أي: وفيه علمه.

ولما بعُـد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علماً ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيهـا الزمان وملؤوا بها الصحف مداداً والقلوب سـواداً حتى صرَّح كثير منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقيناً ولا علماً، وصرخ الشـيطان بهـذه الكلمة فيهم وأذَّن بها بين أظهرهم حتى أسـمعها دانيهم لقاصيهم فانسلخت بها القلوب من العلم والإيمان كانسلاخ الحية من قشرها.

درجات الناس في الإيمان:

أكثر المؤمنـين إنما عندهم إيمان مجمـل، وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسـول معرفة وعلمـاً وإقراراً ومحبة ومعرفـة بضده وكراهيته وبغضه، فهـذا إيمان خواص الأمة وخاصة الرسول وهو إيمان الصديق وحزبه.

وكثير من الناس حظهم من الإيمان: الإقرار بوجود الصانع وأنه وحدَه الذي خلق السـموات والأرض وما بينهما وهذا لم يكن ينكره عبَّاد الأصنام من قريش ونحوهم.

وآخرون الإيمان عندهم هو التكلم بالشهادتين؛ سواء كان معه عمل أو لم يكن، وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه.

وآخـرون عندهم الإيمان مجرد تصديـق القلب بأن الله - سـبحانه وتعالى - خالق السـموات والأرض وأن محمداً عبده ورسـوله وإن لم يقرَّ بلسانه ولم يعمل شيئاً، بل ولو سب الله ورسـوله وأتى بكل عظيمة وهو يعتقد وحدانية الله ونبوة رسوله فهو مؤمن.

وآخـرون عندهـم الإيمان هو جحد صفـات الرب - تبارك وتعالى -: من علوه على عرشه وتكلُّمه بكلماته وكتبه وسمعه وبصره ومشـيئته وقدرته وإرادته وحبه وبغضـه وغير ذلك مما وصف به نفسـه ووصفه به رسـوله فالإيمان عندهم إنكار حقائق ذلك كله وجحده والوقوف مع ما تقتضيـه آراء المتهوكين وأفكار المخرصين الذين يرد بعضهم على بعض وينقض بعضهم قول بعض الذين هم - كما قال عمر بن الخطاب والإمام أحمد - مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب.

وآخـرون عندهم الإيمان عبادة اللـه بحكم أذواقهم ومواجيدهم وما تهواه نفوسـهم مـن غير تقييد بما جاء به الرسول.

وآخـرون الإيمـان عندهم ما وجـدوا عليه آباءهم وأسـلافهم بحكم الاتفاق كائنا مـا كان بل إيمانهم مبني على مقدمتين:

إحداهما: أن هذا قول أسلافنا وآبائنا.

والثانية: أن ما قالوه فهو الحق.

وآخرون عندهـم الإيمان مكارم الأخلاق وحسـن المعاملة وطلاقة الوجه وإحسـان الظن بكل أحد، وتخلية الناس وغفلاتهم.

وآخـرون عندهم الإيمان التجرد من الدنيا وعلائقها وتفريـغ القلب منها والزهد فيها فـإذا رأوا رجلاً هكذا جعلوه من سـادات أهل الإيمان، وإن كان منسـلخاً من الإيمان علماً وعملاً.

وهنـاك من جعل الإيمان هو مجـرد العلم؛ وإن لم يقارنه عمل.

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الإيمان ولا قاموا به ولا قام بهم وهم أنواع:

- منهم من جعل الإيمان ما يضاد الإيمان.
- ومنهم من جعل الإيمان ما لا يعتبر في الإيمان.
- ومنهـم من جعله ما هو شـرط فيـه ولا يكفى في حصوله.
- ومنهم من اشترط في ثبوته ما يناقضه ويضاده.
- ومنهم من اشترط فيه ما ليس منه بوجه الإيمان.

والإيمـان وراء ذلك كله: وهو حقيقة مركَّبة من معرفة ما جاء به الرسـول ﷺ علماً والتصديق به عقـداً، والإقرار به نطقـاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسـب الإمكان، وكماله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحدَه إلهه ومعبوده والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله[1].

(١) الفوائد، ص ١٠٧.

أولو العلم خيار المؤمنين:

(حَيْثُ ذُكِرَ الَّذِينَ آمَنُوا فَقَدْ دَخَلَ فِيهِمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ؛ فَإِنَّهُمْ خِيَارُهُمْ:

قال – تعالى –: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقال – تعالى –: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾. [النساء: ١٦٢]

وعني بالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ قَدْ أَتْقَنُوا عِلْمَهُمْ وَوَعَوْهُ فَحَفِظُوهُ حِفْظاً لاَ يَدْخُلُهُمْ فِي مَعْرِفَتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ بِمَا عَلِمُوهُ شَكٌّ وَلاَ لَبْسٌ، وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنْ رُسُوخِ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ، وَهُوَ ثُبُوتُهُ وَوُلُوجُهُ فِيهِ)[1].

وقال ابن عاشور – رحمه الله –: (الراسخون في العلم: الذين تمكنوا في علم الكتاب ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله – تعالى – بحيث لا تروج عليهم الشُّبَه)[2].

(١) تفسير الطبري: ٥/ ٢٢٣.
(٢) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٤.

وقال – تعالى – ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

وقال – تعالى – ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

اقتران العلم والإيمان في السنة النبوية:

عَنْ يَزِيد بن عُمَيْرَةَ، أَنَّ مُعَاذَ بن جَبَلٍ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْنَا لَهُ: أَوْصِنَا. قَالَ: أَجْلِسُونِي، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ مَكَانَهما من الْتَمَسَهُمَا وَجَدَهُمَا». قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، «وَاطْلُبُوا الْعِلْمَ عِنْدَ أَرْبَعَةٍ: عُوَيْمِرٍ أَبِي الدَّرْدَاء، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، وَعَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بن سَلامٍ»[3].

شرف الدنيا والآخرة لأهل العلم والإيمان:

إن من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم:

تأمَّل ما حصل لأدم من تميُّزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلَّها، ثم ما حصل له من تدارُك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقَّاها من ربه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرُّون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصَّل إليها بالعلم كما أشار إليها – سبحانه – في قوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، جاء في تفسيرها ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فهذه رفعة بعلم الحجة والأول رفعة بعلم السياسة.

(٣) سنن الترمذي: مناقب عبد الله بن سلام (٣٨٠٤). قال الألباني: صحيح، (المشكاة: ٦٢٣١).

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطُّفه معه في السؤال حتى قال: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ [الكهف: ٦٦].

وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك ما حصل لداود من علمه نَسْج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدَّد – سبحانه – هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفضَّله وكرَّمه.

وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكَّره الله به نعمة عليه فقال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣][1].

فالعلم والإيمان نور في الدنيا يرفع قدر صاحبه بين الناس، ونور في الآخرة يجتاز به صاحبه أهوال القيامة؛ ولذلك جرت عادة القرآن بالتعبير عن العلم والإيمان بالنور وعن الجهل والكفر بالظلمات.

(١) مفتاح دار السعادة: ١٧٤.

العلم الراسخ والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله:

فذِكْر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتةٌ من اللفتات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين.

فالعلم السطحي كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة. ونحن نشهد هذا في كل زمان. فالذين يتعمقون في العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقي، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد أن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً، وذا إرادة واحدة وضعت ذلك الناموس الواحد. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى (المؤمنون) يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى.

أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تَحُول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان، أو لا تبرز لهم – بسبب علمهم الناقص السطحي – علامات الاستفهام. وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق. وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان[2].

فكلما أوتي المرء نصيباً من العلم كان خليقاً أن يقوده إلى الحق والهدى، فإذا هو ينسلخ مما أوتي من العلم، فلا ينتفع به شيئاً، ويسير في طريق الضلالة كمن لم يؤتى من العلم شيئاً. بل يصير أنكد وأضل وأشقى بهذا العلم الذي لم تخالطه بشاشة الإيمان.

اللهم انفعني بما علمتني و علمني ما ينفعني وارزقني علماً تنفعني به[3].

(٢) الظلال: ٢/ ٨٠٤.
(٣) المستدرك، ص ١٨٧٩.

لاخوف من الإلقاء بعد اليوم

الدورات معتمدة

كن خطيب زمانك

قالوا عن الدورة ...

تم تنفيذ ٣٠٠ دورة

وتدريب ٢٠,٠٠٠ متدرب ومتدربة

وتقديم ١٥ دورات دولية

وتقديم ١٠٠ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية.

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

- تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.
- كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
- كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
- التعرف على أسرار التاثير.
- تنمية مهارات الإصغاء.
- التعامل مع الأسئلة المفاجئة.

مدربون سعوديون
خبرة ١٢ سنة

الخطيب الصغير:

دورة إلقاء للأبناء :

آداب اجتماعية

+ علوم رجال

+ لبس المشلح

من إصداراتنا :

كتاب: لماذا نخشى الإلقاء؟

البوم قرص مدمج: فن الإلقاء

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات: جرير و العبيكان

يحصل المتدرب على: إصدارات المركز + تصوير أداؤه على سي دي + شهادة معتمدة

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء و المواجهة

www.alelqa.com

الرياض هاتف: ٠١/٤٧٧٩٩٩٢

جوال: ٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤/٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص رقم ٤٨٩٥/٢١٤

Badr: 0508948947

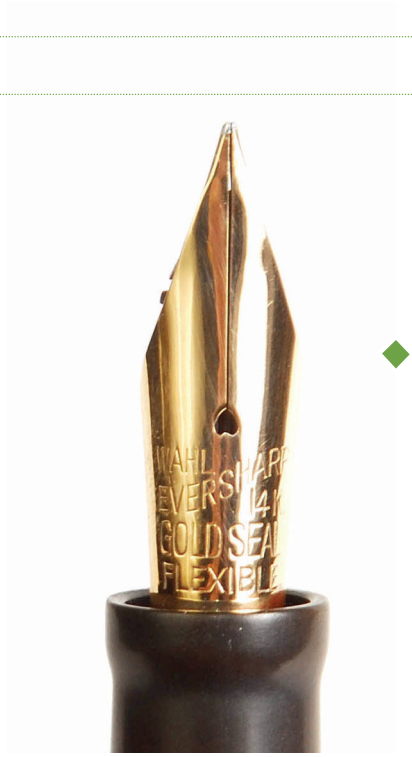

وصايا الآباء للأبناء...
خواطر وتنبيهات

عبد العزيز مصطفى الشامي(*)
Omarez1973@hotmail.com

لا شك أن الوصية في الدين والتناصح بين الناس عبادة جليلة مهجورةٌ في كثير من البيوت، ومنسية عند كثير من الأُسر، وشأن الوصية مهم وجليل، ولكن أعجب ما في الأمر أن وسائل الإعلام المعاصرة: من إذاعة وتليفزيون وصحافة وغيرها، قزَّمت من شأن الوصية، وأضعفت من دورها؛ حتى انزوى دورها في نوافذ ومجالات الدنيا فقط، فنشأ الصغير وشابَ الكبير على الوصية بالدنيا عملاً وحرصاً وأمناً، وصار الأب والأم كثير منهم لا يوصي أبناءه إلا بشيء من شؤون الدنيا، وقديماً عاب الله على أقوام لا يذكرون إلا الدنيا ولا يسألون ربهم سواها، فقال - جل وعلا -: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠١].

وهذا ذم في الحقيقة وعيب لمن لا همَّ له إلا الدنيا. قال سيد قطب - رحمه الله - عند هذه الآية: «إن هناك فريقين: فريقاً همه الدنيا، فهو حريص عليها، مشغول بها. وقد كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف في الحج فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولادٍ حسنٍ! لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً... وورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الآية نزلت في هذا الفريق من الناس. ولكن مدلول الآية أعم وأدوم. فهذا نموذج من الناس مكرور في الأجيال والبقاع. فالنموذج الذي همه الدنيا وحدها يذكرها حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء؛ لأنها هي التي تشغله، وتملأ فراغ نفسه، وتحيط عالمه وتغلقه عليه. هؤلاء قد يعطيهم الله نصيبهم في الدنيا - إذا قدَّر العطاء - ولا نصيب لهم في الآخرة على الإطلاق.

وفريقاً أفسح أفقاً، وأكبر نفساً؛ لأنه موصول بالله، يريد الحسنة في الدنيا ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة فهو يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. إنهم يطلبون من الله الحسنة في الدارين، ولا يحددون نوع الحسنة، بل يَدَعون اختيارها لله، والله يختار لهم ما يراه حسنة وهم باختياره لهم راضون. وهؤلاء لهم نصيب مضمون لا يبطئ عليهم؛ فالله سريع الحساب.

إن هذا التعليم الإلهي يحدد لمن يكون الاتجاه؛ ويقرر أنه من اتجه إلى الله وأسلم له أمره، وترك لله الخيرة، ورضي بما

(*) مدقق لغوي وباحث شرعي - مصر.

يختاره له الله، فلن تفوته حسنات الدنيا ولا حسنات الآخرة. ومن جعل همه الدنيا فقد خسر في الآخرة كل نصيب»[1].

وفي مقابل صورة الدنيا والوصية بها والحرص عليها، فقد ذكر الله لنا وصية لقمان لابنه بوصايا جامعة تربوية نافعة. قال - تبارك وتعالى -: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٦ - ١٩].

فهي كما نرى وصايا جامعة، في العقيدة كما في الآية الأُولى في إشارتها لوحدانية الله وقدرته المطلقة فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، وهو اللطيف الذي يُجري رحمته تحت أستار الخفاء، وأنه هو الخبير الذي خَبَر مخلوقاته في شتى شؤونهم: عدداً وقدراً وحياة وموتاً، فيوصي ابنه بتعظيم الله والإيمان بقدرته غير المحدودة، ومن ثَمَّ طاعته واتباع منهجه المعظم.

وفي الآية الثانية يوصيه بأمهات العبادات من إقامة الصلاة والخضوع فيها والخشوع، وألا يكتفي بالصلاح في نفسه حتى يدعو غيره، وأن يحمل مشعل الإصلاح في مجتمعه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصبر على ذلك إن مسَّه من ورائه أذى من الخلق.

ثم يوصيه في الآية الثالثة بالبعد عن مساوئ الآداب العامة في المجتمع؛ وذلك بعدم احتقار الغير ولا التكبر على الناس، والاعتدال في عواطفه ومشاعره، وعدم الفخر المطغي ولا التكبر المزري وألا يكون معجباً بنفسه مزرياً على الآخرين، والتخلص من هذه المساوئ لا بد له من علم وعدل؛ علم بالنفس والآخرين، والعدل مع النفس ولآخرين.

ثم يوصيه في الآية الرابعة بالتوسط والاعتدال ومراعاة أعين الناس وسمعهم، فلا يمشي مشية المضطرب العجول ولا مشية المائع الكسول، وألا يُحدث تلوثاً سمعيّاً ولا ضوضاء يؤذي الناس بصوته العالي، ولا يشق عليهم بصوته الخفيض غير المسموع، بل التوسط في الأمور والاعتدال في الأخلاق مفتاح لمحبة الخالق وقبول المخلوقين.

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٧٨.

أمثلة للوصايا المعاصرة:

صار كثير من الآباء يحرصون على وصية أبنائهم بالدنيا، فنشأ كثير من الصغار على حفظ أمثال شعبية وأقوال قديمة على أنها مسلَّمات وقواعد في الحياة، فبعض الآباء يذكر ابنه بين الحين والآخر بأن من معه قرش فإنه يساوي قرشاً، فيغرس فيه من صغره الميزان المالي لوزن الناس، فلا غرابة أن يُعجَب بخاله فلان دون عمه الآخر لأنه طبق المثل الذي حفظه من أسرته على أقاربه، وكان الأَوْلى أن تتصرف عناية الآباء إلى إرشاد أبنائهم إلى الميزان الأخروي في النظر للأمور ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وآخر يوصي ابنه بأن البلد بلد شهادات وأوراق، فيجدُّ في سرقة الإجابات والظهور على أكتاف الأقران، رغبة في تحصيل الشهادة من أي وجه كان... وهكذا.

وآخر يوصي ابنه ويسمعه كثيراً يذكر أن الأقارب عقارب، فينشأ مبتور الصلات الاجتماعية كارهاً لأقاربه، وآخر يذكر الزوجة أو النساء عموماً أمام أولاده بأوصاف غير مقبولة، وبكلمات حق يُريد بها باطلاً، كأن يقول لهم - مثلاً - عن النساء: ناقصات عقل ودين، هكذا يسوقها لهم جملة عامة ناسباً إياها إلى الشرع دون وضعها في أطرها وضوابطها الشرعية، من أن نقصان العقل إنما هو في أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، وأن نقصان الدين يتمثل في كونها تظل فترة من عمرها لا تصلي؛ وذلك لعذر الحيض والنفاس، وأنهن معذورات في ذلك.

وآخر يوصي أبناءه بأن من شتمك اشتمه، ومن ضربك اضربه، ومن، ومن، دون توجيه أو تفصيل. وأمر تلك الوصايا يطول.

وهناك بعض الآباء يهتمون بجسد الأبناء وتغذيتهم أكثر من توجيههم لخيري الدين والدنيا، فتراه لا يوصي الأبناء ولا أمهم إلا بحسن تغذيتهم، والقيام على رعاية أجسامهم حتى تنمو، ولكنها تتضخم في أجساد سمينة وعقول صغيرة.

وآخـــرون صـــار همهم الأكبر مســـتوى تحصيل الأبنـــاء في أمور الدراســـة والتعليـــم والتدريب، ولا يلقـــى أولاده إلا ويذكرهم ويوصيهم بالجد والاجتهاد والمتابعة، وحســـن التأسي بأفضل الطلاب وتحصيل أعلى الدرجات، ويكون ذلك هو المقياس للتفاضل بين الأبناء وذم هذا ومدح ذاك.

وبعـــضٌ آخر أيضاً يوصي أبنـــاءه بالحرص على قوة الجسد وخوض تدريبات وإتقان فنون الدفاع عن النفس وممارسة كثير من الرياضة، دون التنبيه على ما يليق وما لا يليق، والمباح والممنوع في الدين.

ومـــن الأمور المهمـــة أن بعض الآبـــاء يعتقد أنه بمجرد زواج ابنته، فإن حـــق وصيتها ونصيحتها قد زال عنه، وأنها في عصمة زوج ينصحها ويوجهها حتى لو نصحها بباطل أو وجَّهها إلى محرم، تراهم يقولون: هي مع زوجها ويســـتلون أيديهم من النصيحة لها أو وصيتهـــا وتوجيهها، وهذا خطأ؛ فالمعيار في الوصايا هي الوصايا الشرعية المقبولة.

خواطر وتنبيهات في أمر الوصية:

إن كثيراً من الوصايا الســـابقة قد تكون مفيدة ونافعة إذا ما انضم لها أخواتها من المقيدات والمحفزات؛ فليس عيباً أن يوصي الآباء أبناءهم باجتناب عيوب بعض الأقارب، وبأهمية الحرص على المال في غير بخل، وضرورة التحصيل الدراسي وأهمية القوة الجســـدية، كل هذه الوصايا لا حرج فيها، ولكن الأهم من ذلـــك كله أن يحرص الآباء على دين وخُلُق أبنائهم، وحســـن توجيههم للخير وغرســـه فيهم غرســـاً؛ فماذا يضر الآباء لو قـــال الواحد فيهم لابنه: هذا القـــدر من المال لك، هو مصروفك. واعلم أنـــك حر في إنفاقه في ما يلذُّ لك من الحلال ولكنك لو أنفقت جزءاً منه لتلك العجوز أو ذلك الفقير المسكين لكان لك أجر وخير في الدنيا والآخرة؟

وماذا يضيـــر الآباء لو أوصـــوا أبناءهم بالحصول على أعلى الدرجات في الطب والهندسة والكيمياء والفلك واللغات والحواســـب؛ رغبة في جمع المال من حله ومســـاعدة الأمة الإسلامية في تخصصات مهمة تحتاج إليها؟

ماذا لو أوصـــى الآباء بناتهم بأن يحرصن على الاجتهاد لينلن أعلى الشهادات ولأن الأمة تحتاج - مثلاً - طبيبةً ماهرة تصون أعراض المسلمات، وتحميهن من الأطباء الذكور.

إن وصايـــا الآباء للأبناء عبادة أمر الله بها ضمن جماعة المؤمنين فإذا كنـــا مأمورين بإيصاء الآخرين فإن أقربهم حقّاً عليهـــم وآكدهم في هذه الحقوق الأهل والأبناء. قال - تبارك وتعالى -: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

ونقلت لنا كتب الســـنة شيئاً من وصايا المصطفى لأبنائه، فمن ذلك وصيته لابنته؛ فعَنْ أُسَـــامَةَ بْنِ زَيْـــدٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَـــلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيّاً لَهَا (أَوِ ابْناً لَهَا) فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لِلرَّسُولِ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَـــيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَـــمًّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[1].

ومن ذلك ما صح عن عَلِي بْن أَبِي طَالِبٍ «أَنَّ رَسُـــولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَيْلَةً فَقَالَ: أَلَا تُصَلِّيَانِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُـــولَ اللَّهِ! أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا. فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَـــيْئاً، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٤]»[2] فأوصاها مع زوجها وهي متزوجة وعند غيره ولم ينس حقها في النصيحة والاهتمام.

وقد أوصى ابـــن عمه الغلام بوصايا نفيســـة ودرر رائعة، حفظها وبلغها كأروع ما تكون الوصية والتوجيه، وحســـن رعاية الصغار وتربيتهم؛ فعن ابـــن عباس - رضي الله عنهما - قال: كنت خلفت رســـول الله ﷺ يومـــاً، فقال: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفـــظ الله يحفظك، احفظ الله تجـــده تجاهك، إذا ســـألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللـــه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشـــيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعَت الأقلام وجفت الصحف»[3].

فما أحوجنا لإعادة صياغة التناصح والوصايا بين الآباء والأبناء.

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

[قصة قصيرة]

ثوب العيد

جميلة بحر

أحمد: عم صلاح! لقد أحضرت لك أخر حساء تأكله اليوم؛ فغداً سيكون العيد.

عم صلاح: آه... العيد؟ عيد بأي حال عدت يا عيد... لأمر قد مضى أم فيه تجديد.

أحمد : نعم العيد! فلن نصوم غداً، أنا سعيد لأنني سأكل من الحلوى التي صنعتها أمي، وسأشتري كثيراً من الشكولاته. لكن لماذا تبدو حزيناً كئيباً؟ ألا تحب العيد؟

عم صلاح: العيد هو عيد العافية يا بني! العيد هو فرحة الأطفال أمثالك . أما عجوز عاجز مثلي فقد أخذ نصيبه من البهجة و السرور والتمتع بالعيد. يا بني! ما معنى العيد لمثلي يعيش على قارعة الطريق؟

أحمد: ألن يأتي أبناؤك لرؤيتك؟

عم صلاح: رؤيتي؟

أحمد: نعم رؤيتك! فأنا سأذهب مع أبي إلى بيت جدي وسنتناول الغداء معه. إذا كانوا لا يستطيعون المجيء إليك، فلماذا لا تذهب أنت إليهم؟ ألا يوجد معك ثوب جديد للعيد؟

عم صلاح: و ماذا ينفع الثوب الجديد؟ ومن سيحضِر لي هذا الثوب؟

أحمد: أنا سأحضر لك ثوباً من ثياب أبي يفوح بالعود والبخور.

عم صلاح: لا عليك يا بني دع ثياب أبيك له؛ فماذا ينفع العود مع مَنْ زُكم أنفه برائحة الوقود؟

يرتفع صوت الأذان: الله أكبر، الله أكبر...

أحمد: يجب أن أسرع للمنزل، لكن لا عليك سأحضر لك الثوب والحلوى والشكولاته وتذهب معنا لصلاة العيد.

ترتفع تكبيرات العيد...

يتقدم أحمد مع والده نحو المسجد محاذيين الرصيف حيث يقطن العم صلاح. يبحث أحمد بعينيه عنه . لكنَّ المكان يبدو مهجوراً للوهلة الأولى فقد تبعثرت (الكراتين) التي كان يفترشها. أخذ أحمد يتساءل: «أين ذهب العم صلاح؟ هل ذهب للمسجد بثوبه المرقع؟ لماذا لم ينتظرني؟ هل تأخرت عليه؟ لا بأس سأعطيه الثوب في المسجد. سأطلب منه أن يلبسه قبل أن تبدأ الصلاة».

دخل المسجد مع أبيه، ترك يد أبيه وأخذ يبحث بين الصفوف المنتظرة للصلاة وعيناه تجوبان الوافدين، الراكعين والساجدين. ولم يجد في أيٍّ من الوجوه وجه العم صلاح. أخذ يتساءل من جديد: «هل جاء أبناؤه وأخذوه؟ هل ذهب إليهم؟ لماذا لم ينتظرني؟» نظر صوب الباب ولكن بلا جدوى، أُقيمت الصلاة فأخذ أحمد ينظر للمصلين وهم بين ركوع وسجود ينتظر العم صلاح! عاد بإحباط حيث جلس أبوه وسأله: «أين العم صلاح؟» لكن بدأ الإمام بإلقاء خطبة العيد فأحجم والده عن الإجابة وأشار إليه بالهدوء والتزام الصمت. استدار نحو جارهم أبي عبد الرحمن وسأله فنظر الجار إليه بإشفاق وأشار إلى طرف المسجد. انطلق أحمد مسرعاً إلى مقدمة المسجد حيث أشار الجار متجاوزاً الجالسين لكنه أيضا لم يجد العم صلاح . رجع حيث كان يجلس جارهم أبو عبد الرحمن وأعاد السؤال: «أين عم صلاح؟ لم أجده حيث أشرت!» أشار عليه الجار بالصبر حتى تنتهي الخطبة. جلس أحمد مكتئباً وهو ينظر إلى الثوب بين يديه و يتحسس الشكولاته التي أحضرها ويفكر «ها هو الإمام ينتهي من خطبته ولم يحضر عم صلاح ولم يلبس الثوب الجديد».

ما أن انتهت الصلاة حتى بادر أبا عبد الرحمن: «أين عم صلاح؟ لقد بحثت عنه حيث أخبرتني ولكن لم أجده».

نظر الجار إليه باستغراب وقال: انظر هناك إنهم يحملونه. سنصلي عليه الآن.

اتسعت حدقتا أحمد ذهولاً و هو ينظر إلى حيث كان تُحمَل الجنازة وبالكاد نطق: «ماذا؟ متى؟ مستحيل! كنت البارحة معه!».

أجاب الجار بهدوء: «لقد مات الفجر».

كبر المؤذن: «الصلاة على الميت يرحمكم الله...».

نظر أحمد إلى حيثُ وضع الجثمان النحيل والحزن يعتصر قلبه والعبرات تنسكب من عينيه تسكاباً. وقف ينظر ولا يبدو من العالم المحيط سوى العم صلاح يردد: «عيد بأي حال عدت يا عيد... لأمر قد مضى أم فيه تجديد».

نظرات نقدية في

أُسُس الأيديولوجية اللبرالية الغربية

(٢)

حرية التعبير... فوائدها وقيودها

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com

قلنا: إن الدعوة إلى الحرية هي الأمر الذي لا يكاد يُجمِع دعاة اللبرالية الغربيون على أمر سواه؛ وذلك لأنهم يكادون يختلفون بعد ذلك في كل شيء له علاقة بهذه الحرية. عندما يقول أحدٌ: إن الأصل في الإنسان أنه حر، فماذا يعني بذلك؟

الحريات التي يتحدث الناس عنها ثلاثة أنواع: حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية العمل:

أما حرية الاعتقاد: فهي حاصلة لكل إنسان بحكم الفطرة فلا داعي للدعوة إليها؛ أعني أن كل إنسان يستطيع أن يعتقد ما شاء ولا أحد غير الله – تعالى – يمكن أن يطَّلع اطلاعاً مباشراً على معتقده أو يمكن أن يجبره على اعتقاد ما لا يريد اعتقاده. فعندما يتحدث بعضهم عن معاقبة المرتد ويرى أنها اعتداء على حرية الفرد يخطئ في التصور أو في التعبير؛ لأن العقوبة ليست على المعتقَد – إذ ما أكثر المنافقين الذين يظهرون ما لا يضمرون – وإنما هي على التعبير عن المعتقَد الدال على الردة. لكن حتى حرية الاعتقاد هذه محدودة بمدى علم الإنسان، ولـمَّا كان علم الإنسان محدوداً كانت حرية اعتقاده بالضرورة محدودة لأن المرء لا يستطيع أن يعتقد ما لا علم له به.

وأما حرية التعبير وحرية العمل: فلا شك أنهما محدودتان، فالإنسان لا يستطيع أن يقول أو يفعل كل ما يريد. إن الله – تعالى – هو وحدَه الفعَّال لما يريد أما الإنسان فإنه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد. وكل الناس متفقون على أن حرية الإنسان محدودة بعوامل كثيرة، منها: تركيبه الجسماني؛ فهو لا يستطيع – مثلاً – أن يجري أو يمشي إلا في حدود، وهو يمرض ويموت، وهو في ما بين ذلك مقيد بقوانين وضعها الله في الكون تحد من حريته وتقيدها. ونظرية العقد الاجتماعي نفسها تعترف بأن الإنسان إنما انتقل من الحياة الفردية إلى الجماعية لأنه وجد أن هنالك أشياء كثيرة يحتاج إليها في حياته لكنه لا يستطيع أن يحققها إلا بمعاونة غيره.

فالحديث عن الحرية هو إذن حديث عما يستطيع الإنسان اعتقاده أو قوله أو فعله؛ فهل نستطيع أن نقول: إن من مصلحة كلِّ فرد أن يعتقد أو يقول أو يفعل كل ما يريد؟ يقول بعض اللبراليين أن نعم! وحجتهم في ذلك أن الإنسان الفرد هو وحدَه الذي يعرف مصلحته، فلا ينبغي لغيره أن يفرض عليه اختياراً لا يريده. ولكن: أصحيح أن كل إنسان يعرف كل ما ينفعه أو يضره؟ إن حال الإنسان يكذِّب هذا الزعم؛ إذ لو كان الإنسان عارفاً بكل ما ينفعه ويضره لكان مفطوراً على هذه المعرفة، ولظلت معرفةً مصاحبةً له طول حياته. لكن الذي نراه في الواقع أن رأي الإنسان في كثير مما ينفعه أو يضره يظل يتغير بتغير ما يكتسب من علوم ويخوض من تجارب. ما أكثر ما يفعل الإنسان في يومه فعلاً ثم يندم عليه في غده؛ ولذلك قال الله – تعالى –: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإذا لم يكن من مصلحة الفرد أن يقول أو يفعل كلَّ ما يستطيع قوله أو فعله، فهل من مصلحة المجتمع أن يتيح لأفراده مثل هذه الحرية؟ وإذا أراد أن يضع عليها قيوداً فبأي حق وعلى أي أساس يضعها؟

في عام ١٨٩٥م كتب المفكر البريطاني جون استيورت مل (١٨٠٦ – ١٨٧٣م) كتيباً عن الحرية حاول أن يجيب فيه عن مثل هذه الأسئلة. تقول المراجع: إن الحجج التي ذكرها في هذا الكتيب لدعم الحرية ما تزال هي أكثر الحجج التي يلجأ إليها اللبراليون للدفاع عن حرية التعبير والمناقشة[1]. ولن نستطيع بالطبع أن نبسط الكلام في تقويمنا لآراء (مل) في مقال قصير

(1) Mill on Freedom of Discussion Richmond Journal of Philosophy 5 (Autumn 2003) Will Cartwright.

كهذا؛ ولذلك سنكتفي بتعليقات جزئية نرجو أن تكون مفيدة.

يبني مل دفاعه عن حرية المناقشة على غاية صحيحة هي الدفاع عن الحقيقة. فيقول: إن الحقيقة إما أن تكون مع الأغلبية في المجتمع أو تكون مع الأقلية، أو يكون مع هؤلاء جزء منها ومع أولئل جزء آخر، ويرى أن فتح باب حرية المناقشة وعدم كبت المعارِض، فيه انتصار للحقيقة في كل هذه الحالات الثلاث. أما في الحالة الأولى: فإنه من مصلحة الأغلبية أن تتيح المجال لمخالفيها لكي تستمر في الدفاع عن الحقيقة التي آمنت بها؛ وإلا فستتسى الأسباب التي دعتها للتمسك بها، ولا خير في اعتقاد لا يعرف الإنسان أدلته.

وأما في الحالة الثانية التي يكون فيها الحق مع الأقلية: فإنه من مصلحة الأغلبية نفسها أن تتيح لها حرية التعبير عن رأيها والدفاع عنه لأن هذا من مصلحة الأغلبية نفسها؛ إذ إنه هو الطريق الوحيد الذي يمكِّنها من معرفة الحقيقة.

وأما في الحالة الثالثة: فالحجة واضحة لأن كلَّ طرف سيستفيد من الآخر فيعرف الحقَّ الذي غاب عنه. لكنَّ (مل) يبني دفاعه عن حرية التعبير أو المناقشة على دعوى أخرى لم يوافقه عليها كثير من المفكرين الغربيين؛ وإن كانت ما تزال مؤثرة في الفكر الغربي. هذه الدعوى هي: أن الإنسان لا يمكن أن يكون على يقين من صحة أي اعتقاد يعتقده. لكن معارضيه من أمثال صاحب المقال المذكور آنفاً يذكرون أمثلة مثل الحقائق الرياضية والحقائق الحسية المشاهدة في الرد عليه.

يعترف (مل) بأن الحرية لا يمكن أن تكون مُطْلقة، وأنه ما من جماعة بشرية وإلا ووضعت قيوداً على حرية التعبير. أما هو فيرى أن القيد الوحيد الذي يجب وضعه على الحرية هو قيد الضرر؛ أي أن كل تعبير يؤدي إلى ضرر فيجب منعه. ومفهوم التعبير يشمل عند الغربيين كل أنواع الفنون: من رسم ونحت وشعر وأغانٍ وموسيقى وغير ذلك. لكنَّ ناقدي (مل) وجَّهوا إلى رأيه - ونوجِّه معهم - سؤالين: هل يكفي الضرر وحدَه قيداً؟ وما الضرر الذي يُعَد قيداً؟ نقول: إن الأضرار أنواع منها أضرار حسية يجمع الناس كلُّهم على كونها ضرراً، لكن حتى هذه قد لا يعرف الواحد من الناس ضررها بل قد لا يعرف حتى المجتمع هذا الضرر إلا بعد أن يتبين، وهو قد لا يتبين إلا بعد حين. وأما الأضرار الأخرى فإنها تعتمد على المعيار الذي يقيس به الناس النفع والضرر، والمعايير تابعة للمعتقدات أو ما يسمى الآن بالأيديولوجيات. ففي الإسلام - مثلاً - أنواع من التعابير تمنع لكونها تدعو إلى الباطل أو الفجور أو لكونها تلهي الناس عن ذكر الله فتكون ضارة بهم في أخراهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

ذكر كاتب المقال الذي أشرنا إليه من قبل أن الحكومة البريطانية كونت في عام ١٩٧٧م لجنة لتنظر في نشر صور الجنس والعنف في وسائل الإعلام المختلفة، وأن هذه اللجنة انتهت إلى أنها لم تجد دليلاً على وجود أي ضرر في التعبير عن الفحش (الذي يسمونه بورنوجرفي)، كما أنها لم تجد دليلاً على عدم الضرر. لكنها اعتمدت معياراً آخر لم يذكره (مل) هو استفزار مشاعر الناس فوجدت دليلاً على أن هذا النوع من التعبير هو - فعلاً - مثير لاشمئزار كثير من الناس ومع أنها لم توص بمنعه إلا أنها أوصت بتقييده؛ بحيث إن الكتب والمجلات التي فيها مثل هذا الفحش لا تعرَض في أماكن عامة كسائر الكتب والمجلات؛ وإنما تُعرَض في أماكن خاصة. مما لا شك فيه أن قراراً كهذا مبنيٌّ على معتقدات أصحاب اللجنة وقيمهم الخلقية؛ فمن التقليد الأعمى والبليد أن يظن إنسان أنه ما دام لبرالياً فيجب أن يرى ما رأوا حتى لو كانت قيمه الخُلُقية ومعتقداته مختلفة عن قيم أصحاب تلك اللجنة ومعتقداتها. قارن ذاك الذي انتهت إليه اللجنة البريطانية بقول الله - تعالى -: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

إن قبول أيَّ قيد على حرية التعبير يدل على أن التعبير ليس غاية في نفسه وإنما هو وسيلة؛ إذا أدى إلى خير وحق فهو خير، وإذا إلى أدى إلى ضرر وشر وباطل فهو شر. والقيد على حرية التعبير كما يعترف (مل) نفسه ليس دائماً قيداً قانونياً؛ بحيث إن مخالف التعبير الفلاني يعاقب؛ وإنما يمكن أن يكون قيداً اجتماعياً والقيود الاجتماعية تخطئ وتصيب. ولذلك نجد في الإسلام دعوة قوية للناس إلى استعمال التعبير لنصرة الحق وإزهاق الباطل بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولأن التعبير إنما هو وسيلة جاء الأمر للناس بأن يقول أحدهم خيراً أو ليصمت.

نخلص من كل ما ذكرنا إلى أنه ليس هنالك شيء اسمه الحرية المطلقة - سواء في التعبير أو في غيره - وأن التعبير يجب أن تكون عليه قيود تبيح ما كان منه في صالح الناس وتمنع ما كان منه في ضررهم، وأن هذه القيود لا يلزم أن تكون كلها قيوداً يعاقب القانون على مخالفتها؛ وإنما هي في أكثرها قيود اجتماعية يقوم بها بعض الناس نيابة عن الآخرين، وكلما كثر عدد هؤلاء وكانوا على الحق والخير كان ذلك في مصلحة المجتمع. ونخلص مما ذكرنا إلى الحقيقة الكبرى التي تقول: إنه لا بد للناس من هدى إلهي يهديهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

مع نظرية المصلحة
عند نجم الدين الطوفي

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

تعتبر مقولة نجم الدين الطوفي الشهيرة: (تقديم المصلحة على النص) من أشهر المقالات الفقهية والفكرية في هذا العصر؛ لأنه تم توظيفها بمهارة لتكون بساطاً يسير عليه أي تحريف معاصر يرغب في تخطّي بعض النصوص الشرعية. ومع الجهود العلمية الحثيثة في توضيح هذه القضية وبيان الشذوذ والخلل فيها إلا أنَّ المقالة الطوفية ما تزال حاضرة في أي مشهد ثقافي يرغب في حذف بعض أحكام الشريعة.

نريد أن نقف مع هذه القضية في سؤالين جوهريين:
ما قصة هذه المقالة؟
وما علاقة التحريف المعاصر للشريعة بنظرية الطوفي؟

تبدأ القصة من أن نجم الدين الطوفي - وهو من فقهاء وأصوليي الحنابلة المبرِّزين (ت ٧١٦هـ) - لما جاء في كتابه (شرح الأربعين النووية) إلى حديث (لا ضرر ولا ضرار) قرر فيه أن الضرر والفساد منفي عن الشريعة وأن النصوص الشرعية دالة على اعتبار المصالح، وجعل هذا الحديثَ يدلُّ بعمومه على نفي الفساد؛ فإن جاء في النصوص ما يوهم فساداً فإن كان النصُّ قطعياً معارضاً للمصلحة من كل وجه فلا اعتبار للمصلحة، وإن كان النصُّ ظنياً ووجد دليل آخر يسنده فلا اعتبار للمصلحة أيضاً، وإن كان لم يسند بدليل فإن أمكن الجمع بين النص والمصلحة فَحَسَن، وإن لم يكن فإن كان في العبادات والمقدرات فلا اعتبار للمصلحة، وإلا قدِّمَت المصلحة على عموم النص من باب البيان والتخصيص لعمومها لا من باب الافتيات عليها[1].

(١) انظر: شرح حديث «لا ضرر ولا ضرر» ص ١٧ - ١٨ ملحق بكتاب (المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي) لمصطفى زيد.

فخلاصة الأمر في نظرية الطوفي أنها تقوم على خمس قواعد جوهرية:

١ – المصالح لا تقدَّم على النصوص القطعية.

٢ – المصالح لا تقدم على النصوص الشرعية المتعلقة بالعبادات والمقدرات.

٣ – المصالح المقصودة هي المصالح الشرعية التي جاءت الدلائل الشرعية باعتبارها.

٤ – أنه لا يلجأ إلى تقديم المصالح إلا بعد تعذُّر الجمع بين المصلحة والنص.

٥ – أن تقديم المصالح هو من باب تخصيص العموم وليس من الافتيات أو الردِّ الكلي للنص الشرعي.

فحقيقة كلام الطوفي قريب من تقرير عموم الأصوليين في الموضوع في المبحث الأصولي الشهير (تخصيص النص)؛ حيث يقرر الأصوليون أن عموم النص قد يكون ضعيفاً أو محتملاً لبعض الأفراد فيتم تخصيصه بناءً على نصٍّ آخر أو قياس أو مصلحة ضرورية أو حاجية ملائمة للشريعة، مع اختلاف بينهم في مدى إعمال هذه القاعدة وفي المسميات الأصولية التي يطلقونها على هذا الباب، فحقيقته في النهاية أنه من تخصيص النص بالنص، ومن إعمال النصوص جميعاً، ومن منهجية دفع التعارض عن النصوص[1].

فالطوفي لم يخرج عن قاعدة الأصوليين هذه، لكن تعبيره عن رأيه الفقهي بهذه الصياغة (تقديم المصلحة على النص) لم يكن موفقاً ولا مهذباً مع الدليل الشرعي، وقد كان سبباً لأن تتخذ مسماراً تشق به كلُّ قطعيات الشريعة، وأصبح الطوفي بعدها منبراً يعلو عليه كلُّ محرِّف تائه ليصرخ في وجه الشريعة باسم الطوفي، فرحمه الله وعفا عنه.

(١) حَمْل كلام الطوفي على جادة عموم الأصوليين في الموضوع هو ما توصَّل إليه بعض الباحثين المعاصرين كالباحث أيمن جبريل الأيوبي في رسالته القيمة (مقاصد الشريعة في تخصيص النص بالمصلحة)؛ حيث جمع كلام الطوفي بعضَه إلى بعض فجعله لا يخرج عن المنهجية الأصولية، غير أنه في تقرير الطوفي من العبارات المشتبهة والمجملة والملتبسة ما دفع بأكثرية المعاصرين إلى مخالفة هذا الرأي وحمل كلامه على تقديم المصلحة العقلية على النص أو تقديمها على النص القطعي أو نحو هذا مما يعد فيه الطوفي شاذاً عن الطريق الأصولي، ومن هؤلاء – على سبيل المثال – مصطفى زيد في المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي، ومحمد سعيد رمضان البوطي في ضوابط المصلحة في الشريعة الاسلامية، وأحمد الريسوني في نظرية المقاصد عند الامام الشاطبي، حسين حامد حسان في نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي، وغيرهم كثير.

كما أن الطوفي لم يمثل للمصلحة التي تقدَّم على النص، وهو ما يؤكد أنه لا يقصد المصلحة العقلية المحضة التي يقصدها أصحاب القراءات الجديدة للنص الشرعي ، بل يقصد المصلحة الشرعية التي جاءت الشريعة باعتبارها، وفي الحقيقة أنه لا يتصوَّر وجود تعارض بين المصلحة والنص؛ فالنص لا يمكن أن يأتي بما يعارض المصلحة، ولا تأتي النصوص إلا بأكمل المصالح وأنفعها. فمقصود الطوفي هو ما يظن أنه نص وليس كذلك؛ وإلا فالنص إذا ثبت لا يمكن أن يخالف المصلحة؛ وإنما تحصل المعارضة مع نصٍّ غير صحيح ولا صريح أو مع مصلحة موهومة غير حقيقية.

وهذا يدعونا إلى السؤال الثاني:

هل طريقة بعض المعاصرين في تحريف الشريعة باسم المصلحة لها علاقة بنظرية الطوفي؟

الواقع أن ثَمَّ فروقاً جوهرية بين مقولة الطوفي وبين من يستند إليه من المعاصرين:

١ **الاختلاف الجوهري في فهم المصالح:** فنظرة الطوفي إلى المصالح تعتمد على الميزان الشرعي في تعريف وتحديد المصلحة؛ فالمصالح تعم ما ينفع الناس في الدنيا والآخرة، وهي شاملة لما فيه حفظ الدين والدنيا، ويندرج فيها كلُّ ما جاءت الشريعة به من الأصول والأحكام. هذه صورة المصالح عند الطوفي وعند غيره من العلماء، لكن المشهد يتغير تماماً عند المتذرعين بالطوفي، فالمصالح عندهم مصالح دنيوية بحتة فقط، لا ترى أي اعتبار يذكر للمصالح الأخروية؛ لا يكادون يفهمون شيئاً اسمه مصلحة الدين؛ لأن الدين شأن ذاتي فردي لا علاقة له بالنظام، وينفون كثيراً من الأحكام الشرعية فلا يرون فيها أي مصلحة لأنها تنافي الثقافة العلمانية السائدة، ومن ثَمَّ فلفظ المصلحة متفق بين الطرفين، لكن معناه يختلف جذرياً بين من ينطلق من مفهوم إسلامي للمصلحة وبين من ينطلق من مفهوم علماني لها، وحينها ستجد أن الطوفي وغيرَه يرون أن الجهاد وقتل المرتد ومنع المحرَّمات هو من أعظم المصالح لما فيه من حفظ مصلحة الدين، وهو الشيء المزعج لدى كثير من المعاصرين لأنهم يرونها

أحكاماً تنافي المصلحة.

٢ الاختلاف الجوهري في فهم النصوص: فالطوفي وغيره لا يتحدثون عن نصوص قطعية ذات دلالة واضحة فيقدمون النصوص عليها؛ فهم أهل تعظيم للشريعة وحرماتها وأعلامها، فهم بعيدون جداً عن هذا الطريق الذي يريد الحداثيون تعبيده باسم الطوفي، فالنص القطعي لا يجوز لأي مسلم تخطِّيَه، لكن إشكالية كثير من الحداثيين أن النصوص كلَّها محل إشكال؛ فكلها لا تدل على قطع ولا يُستمَد منها يقين، وإذا سمعوا كلمة (قطعي) قالوا مباشرة: (من يمتلك الحقيقة؟)!

٣ الاختلاف الجوهري في تمييز الأبواب الشرعية: فأبواب العبادات والمقدرات خارجة تماماً عن الموضوع، لأننا علمنا – قطعاً – أنَّها مراد الله فلن يجرؤ مسلم على مناقضة الله في حكمه ولا حكمته، فلا إمكانية لأي مصلحة حقيقة لأن تكون مخالفة لها، فلا يمكن أن يتم تخطِّي بعض أحكام العبادات أو الحدود أو المواريث أو الديات أو تفاصيل الجنايات أو الكفارات أو العِدَد أو الطلاق أو شروط النكاح لأنها جاءت مقدَّرة محددة فلا إمكانية لأي مصالح فيها؛ لأن المصلحة قطعية في اتباع مراد الله.

٤ الاختلاف الجوهري في منهجية النظر في النصوص: فالطوفي وغيره من أهل العلم يقصدون الجمع بين النصوص وإعمال كافة الأدلة، وقد يخطئ بعضهم في بعض أحكامه، لكن المنهج الكلي العام هو الجمع بين النصوص وإعمالها جميعاً. بينما تقوم الطريقة الحداثية ومن تأثر بها على إعمال المصالح الدنيوية المحضة، ومواكبة العصر، ومسايرة التطور، ثم وجدوا أثناء ذلك نصوصاً وأدلة لا تنتج ما يريدون، فاضطروا إلى تأويلها وتحريفها حتى لا تكون عائقاً عن الحداثة والتقدم، بل إن بعضهم لم يلتفت إليها أصلاً إلا لـمَّا رأى أن الناس منجذبين إلى هذه النصوص فعلم أن مجرد الإعراض عن النصوص لا يكفي؛ فلا بد من عودة إليها لتخليص العقل المسلم من الانجذاب نحوها، فشتان بين من ينظر في النصوص ليهتدي بها ويسير وراءها ممن يفكِّر خارجها ولا يأتي إليها إلا لمهمة التخلُّص منها.

فنهاية الأمر في تقديم المصلحة على النص هو أن تكون النصوص عبئاً لا فائدة منها، فالإنسان يتبع مصالحه أينما كانت، فإن وافق المصلحة عمل بالنص اتباعاً للمصلحة، وإن خالفه عمل بالمصلحة، فكان وجود النص عبئاً وتلبيساً وإشغالاً للناس لا غير، وهو نتيجة طبيعية لمن ينظر للمصلحة بمعيار يختلف عن معيار الشريعة، فالنصوص إنما جاءت بما فيه مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، فافتراض التعارض بينها وبين المصلحة افتراض مغلوط وسؤال خاطئ؛ لأنه يفترض أن النصَّ شيء يختلف عن المصلحة، بينما النصوص في الحقيقة لا تأتي إلا بأكمل المصالح وأشرفها، فالتعارض لا يكون بين المصلحة والنص؛ بل بين مصالح الشريعة التي جاءت بها النصوص والمصالح الكاذبة التي تأتي بها أهواء النفوس.

ومع كلِّ هذا ستبقى مقولة (تقديم المصلحة على النص) حاضرة في مشهد التحريف والعبث المعاصر، وسيبقى الطوفي – رحمه الله – حاضراً على لسان وقلم كلِّ عابث، وما كان يدور في خلدِ أحد أن عبارة قيلت قبل سبعة قرون ستكون ذريعة وستراً شرعياً لأرتال العبث الفكري المعاصر، وهذا نموذج لخطورة زلَّة العالم التي تجعلنا نستشعر عظمة فقه عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين قال: (ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن والأئمة المضلون).

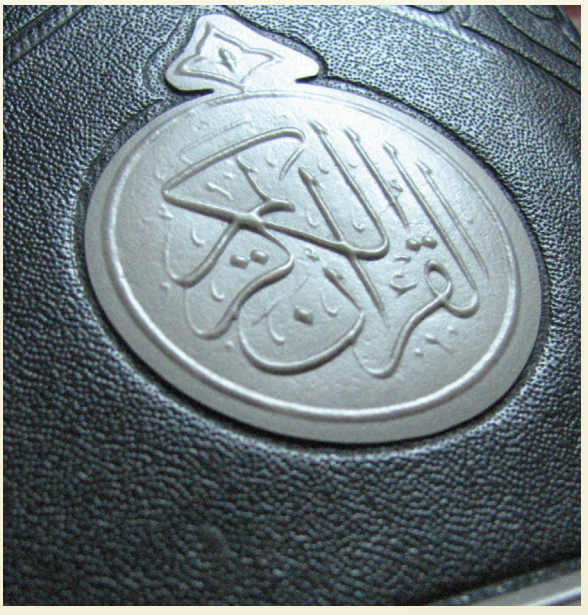

السلاح السِّري

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com

إنه أقوى سـلاح يمكن أن يتسـلح به الإسـلاميون في صراعهم مع القوى العَلمانية والليبرالية واليسارية... إلخ.

إنه «سـلاح» ولكنه «مسـالِم» لا يؤذي أحـداً ولا يجرح إنساناً، بل يحمل كل الخير للناس.

إنه سلاح متضمَّن في قوله - تعالى -: ﴿إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾. [الأنعام: ٧١]

إنه سـلاح «الدعوة» إلى الله - تعالى -: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقـال ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه»(١).

إننـا نتحـدث كثيراً عـن السياسـة والبرامج السياسـية والإستراتيجيات والأحزاب الإسـلامية والانتخابات والرئاسة... إلخ، ولكن تبقى قوة الإسـلاميين الأساسـية فـي قدرتهم على اكتساب أتباع جدد؛ وهي قدرة لا تتوفر لغيرهم ولا يقدرون عليها. هل يمكـن أن نتخيل جماعة ليبرالية تنطلـق بين الناس لتمارس «الدعوة» إلى الليبرالية، فتصاحبهم وتؤاكلهم وتشاربهم وتؤانسهم؟

لا يُعقَـل ولا يُفعَل، فهذه خصوصية ليسـت لأحد إلا لمن يحمل مضموناً إسلامياً في دعوته.

في كثير من الدول العربية - خاصة الثائرة منها - أصبح «تعداد» أو «شـعبية» كلٍّ شـريحة أو قِطَاع جماهيري أو قوة سياسية: ذا دلالات بالغة الأهمية؛ فأي قوة سياسية إذا أرادت لبرنامجها النجاح فإنه يجب عليها أمران:

الأول: أن تعمل على زيادة شعبيتها، وزيادة أعداد المنتمين إليها.

والأمر الثاني: أن تبرز قوَّتها الجماهيرية بشـتى السبل من حين لآخر.

إن العقبة الأساسية التي تواجهها القوى العَلمانية: أنها تحمل «مضموناً نخبوياً» لا يصلح أن يسمعه كل أحد، هذا غير تصادُمه مـع فطرة الناس وتراثهم؛ لذلك يظـل أتباعهم محدودين دوماً، وهذا سر نِقمَتهم على استخدام «الدين» في الحملات الانتخابية؛ فهم يزعمون أنه ليس من العدل أن يمتلك الإسلاميون «مضموناً جماهيرياً شعبياً» بينما هم يحملون أفكاراً نخبوية.

ليست هذه مراهنة على «جهل» الجماهير أو قلة ثقافتها؛ بـل هـي مراهنة على التوافـق الفطري بين مـا يدعو إليه الإسلاميون وما يؤمن به الناس ويعتقدونه.

سلاح الإسلاميين في غمده:

على الرغم من قوة هذا السـلاح وفعاليته في صراعات الإسلاميين؛ إلا أنهم مع ذلك يستخدمونه في أضيق الحدود! نعـم! هم يهتمون كثيراً بالدعوة العامة - أي الخطاب الديني الموجه لعموم الناس - ولكن التقصير حادث في مجال «الدعوة الفردية» التي تتعامل بصورة مباشرة مع المدعو.

ففي مصر - مثلاً - إذا كانت مليونية الإرادة الشـعبية (٢٠١١/٧/٢٩م) قد أظهرت أن تعداد الإسـلاميين في مصر لا يقـل بحال عن (٤) أو (٥) ملايين، فإن دلالة ذلك (دعوياً) أن كلَّ إسـلامي من هؤلاء - ذكـراً أو أنثى - لو قام بواجبه الدعوي والتزم بهداية شـخص واحد فقط على مدار العام، فإن العدد سوف يتضاعف، وسيصبح الخمسة (عشرةً)، وفي العام الصتالي سيصبح العشرة (عشريناً)، وهكذا.

بالطبع هذه رؤية مثالية، ولكنها تُبرِز لنا مستوى التقصير في مجال الدعوة المباشرة، ولك أن تتخيل لو أن نصف هؤلاء أو ثلثَهم أو ربعَهم قام بواجبه الدعوي، ماذا يمكن أن يحدث؟

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

التكامل بين الحركات الإسلامية في مصر

جلال الشايب
جمال سالم(*)

- الأستاذ عادل الأنصاري (المستشار الإعلامي لحزب الحرية والعدالة التابع لجماعة الإخوان المسلمين).
- الشيخ نشأت أحمد (الداعية الإسلامي وعضو الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح).
- الأستاذ أحمد عمرو (مدير وحدة الحركات الإسلامية بالمركز العربي للدراسات الإنسانية).
- الشيخ هشام عبد القادر عقدة (الداعية الإسلامي والباحث الشرعي).
- الدكتور هشام محمد برغش (الداعية الإسلامي).

(*) رئيس قسم التحقيقات بجريدة (عقيدتي) في مصر.

المشاركون في هذا التحقيق يؤكدون على أن:

- **التكامل بين الحركات الإسلامية في مصر (ضرورة وحتمية آنية وتاريخية).**
- **مساحات التوافق بين التيارات الإسلامية أكثر من مساحات الخلاف بكثير.**
- **لا بد أن يكون الاختلاف اختلاف تنوع وتكامل وليس اختلاف تعصب وتصادم.**
- **علينا أن نفهم جيداً طبيعة التحدي الأكبر لهذه الحركات في المستقبل، وهو «السلطة».**
- **جمعة الإرادة الشعبية كانت إنجازاً كبيراً في جمع الشمل؛ رغم الخلاف الواقع في بعض الجزئيات.**
- **لا بد من هيئات تجميعية وتنسيقية تجمع القيادات من تلك الحركات. وعلى الأزهر الآن أن يلتقي مع تلك الهيئات لتوحيد الصف، وليكون التحرك رسمياً وشعبياً.**
- **فلول النظام البائد والإعلام الخبيث يحرصون على إحداث الوقيعة بين التيارات الإسلامية.**
- **الحاجة الشديدة للتآخي والتلاحم واتخاذ مواقفَ تُعيد لهذا التيار بكامله كرامته وحريته.**
- **لا بد من العمل على إحداث عملية تغيير حقيقة على صعيد البُنَى الفكرية ومناهج التربية.**
- **لا بد من تكوين لجنة مؤقتة لمتابعة سبل التناصح والتعاون بين العاملين في الحقل الإسلامي**

لا يخفى على المتابع لواقع كثيرٍ من الجماعات والحركات الإسلامية الحالية في مصر - خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير - مظاهرُ التحول الإيجابي والانفتاح والتعاون بين هذه الفصائل وتلك الجماعات، وإن كان لا يرقى إلى المستوى المنشود الذي تمليه التحديات التي تواجه الدولة المصرية كلها، وهي التي تتعرض لضغوط متنوعة وكبيرة لحرفها عن مسارها وتغييبها عن هويتها وشريعتها في ظل تكالب وتكاتف وتعاون كافة القوى العلمانية والليبرالية والنصرانية في الداخل والخارج، والتنسيق بينها في مواجهة التوجه الإسلامي للشعب المصري.

ومن هنا انطلقنا في محاول للتعرف على المدى الفعلي لإمكانية وكيفية تحقيق التعاون والتكامل بين الحركات الإسلامية على أرض مصر، وهي المتمثلة في تيارات العمل السياسي ذات المرجعية الإسلامية، والحركات الدعوية والخيرية الإسلامية؛ وذلك بغية عدم التنازع في ما بينهم؛ تصديقاً لقول ربنا - سبحانه -: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله - تعالى -: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

توافُق في المنطلقات:

في البداية يؤكد الأستاذ عادل الأنصاري على أن مساحات التوافق بين معظم التيارات الإسلامية أكثر من مساحات الخلاف، وفرص التقارب أوفر من التباعد؛ فنحن نتكلم عن تيار واحد وليس تيارات متعددة، ربما اختلفت لدى فصائل التيار الواحد الرؤى لمعالجة بعض القضايا، وربما اختلفت وجهات النظر في الأولويات التي ينبغي على الجميع أن يهتم بها في كل مرحلة؛ إلا أن هذا الخلاف المقبول وذلك التنوع المنطقي لا يخرج عن دائرة التوافق في إطار تيار واحد وإن تعددت فصائله وتنوعت مواقفه.

وأكد فضيلة الشيخ نشأت أحمد على أن المصائب تجمع المصابين؛ فهذه التيارات كلها امتحنت خلال الفترات الماضية، بل لاقت أشد العنت والمشقة والقهر في المعتقلات والسجون، ولم يسلم من إيذاء النظام البائد تيار واحد.

ويجمع الأستاذ أحمد عمرو هذه الأمور التي تتوافق عليها التيارات الإسلامية في مجملها؛ فهي تعمل على إحياء المشروع الإسلامي في الأمة في إطاره السياسي والاقتصادي والاجتماعي... إلخ؛ بحيث تصبح مرجعية الكتاب والسنة هي المُحَكَّمة في جميع تلك الأمور، وكذلك من القواسم المشتركة بينها مقاومة عمليات التغريب التي يتعرض لها المجتمع؛ سواء في

شـــكلها البسيط (التغرب في الأشكال والعادات)، أو في أشكالها الأكثر عمقاً (عملية تغريب عقول المسلمين)، وأيضاً من القواسم المشتركة رفض عملية التبعية، والسعي لتحقيق استقلالية العالم الإسلامي؛ سواء كانت تلك التبعية سياسية أو اقتصادية.

اختلافٌ منطقي:

بالنســـبة لأوجه التباين والخلاف فيرى الأســـتاذ عادل الأنصاري أنه علينا ألا نتجاهل بعض الاختلافات الواقعية بين الفصائل المختلفة، مشـــيراً إلى أن منبع هذه الاختلافات ربما يرجـــع إلى عدد من المصادر: كالاختـــلاف في تقدير الواقع، والاختلاف فـــي الأولويات لدى كل فصيـــل، والاختلاف في التجارب والخبرات الدعوية والسياسية.

وعن مجالات الخلاف كذلك، يبرز فضيلة الشيخ الداعية هشام عبد القادر عقدة هذا الاختلاف في أمرين:

الأول: هـــل نعمل في هذه الفرصـــة للوصول إلى تحكيم الشـــريعة بالفعل وإقامة الدولة الإسلامية المنشودة، أم نكتفي بمرحلة في هذا الاتجاه؟ ولكلٍّ رأي حيثياته.

والثانـــي: طريقة الخطـــاب أو الوصـــول للهدف ما بين متحفظ تجاه الشـــعارات الإسلامية وآخر صريح أو صدامي، عليهم أن يرجعوا في النهاية إلى فقه أولويات المرحلة الراهنة.

بينما يرى فضيلة الشيخ الدكتور هشام محمد برغش أنه لا منازعة في أنَّ تعدُّد الاجتهادات وتفاوت التقديرات سُنة من سنن الاجتماع، وأنه حقيقة ملازمة لكافة التجمعات البشرية في مختلـــف الأزمنة والأمكنة. ولا يُذَم هذا الاختلاف إلا في صورة من هذه الصور:

- أن يكون في الأصول والقطعيات.
- التعصـــب المذموم الذي يفضي إلـــى التفرق ويخترق به سياج الأخوة الإيمانية.

كما بين الشيخ برغش أنَّ مكمن الخطر عندما يصل الأمر بإحدى الحركات أن تظن احتكار الحقيقة؛ وأن قولها وعملها فقط هو الصواب، بينما عمل غيرها خطأ غير مقبول منه.

ضرورة التعاون:

وعن ضرورة التعاون والتنســـيق بين الحركات الإسلامية فيرى المستشـــار الإعلامي لحزب الإخوان الأســـتاذ عادل الأنصاري أن التكامل أمر واجب بين فصائل التيار الإســـلامي، كما يرى أن تركِّز الفصائل على العمل الدعوي والعلمي مع أولوية الحفاظ على هوية الأمة من الذوبان، ولا مانع أن يركز تيار آخر على التواصل السياسي مع التيارات الفاعلة في المجتمـــع إذا كان يملك تجربة مقبولة في هذا الاتجاه، بينما تقوم فصائل أخرى بدور إعلامي وفكري وثقافي وهكذا نســـتطيع أن نجمع التنوع الفطري بـــين الفصائل في إطار تيـــار حقيقي يصب في نهاية المطاف في مصلحة الأمة بدلاً من أن ينشغل كل فصيل بما يجيده الآخر ويتميز به.

ويذكر الشيخ هشام برغش في هذا الشأن: أن الأصل في هذه التيارات وتلك الجماعات التخصص والتكامل؛ فتعدديتها تعددية تنوع وليس تعددية تضاد، فخلافها فقط في الأولويات وتقديم ما تحسنه. وهذه طبيعة فروض الكفايات التي لا يسع كل أحد القيام بها جميعاً؛ فيقوم ببعضها مع إيمانه بالأخرى، ولا يزال المسلمون عبر التاريخ: منهم المجاهدون، ومنهم المحتسبون، ومنهم المعلمون، ومنهم المحدِّثون، ومنهم الفقهاء، ومنهم العُبَّاد، ومنهم الســـاعي على الأرملة واليتيم وابن السبيل، ومنهم المقتصد الذي لا اشتغال له بمـــا زاد على الفرائض، ثم هو بعد ذلـــك منهمك في مهنته، وكذلك هذه الجماعات والتيارات: فمنها القائم بالتعليم وتصحيح العقيدة، ومنها المشـــتغل بالتزكية والتربية، ومنها المنتصب للعمل السياسي بروافده ومجالاته المتعددة، ومنها المتخصص في العمل الاجتماعي... وهكذا؛ فهو إذن تعدُّد التنوع والتخصص والتكامل، وليس تعدُّد من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

ومن ثَمَّ فإن دعم هذا التكامل وتشجيعه مما تمليه طبيعة هذه الفروض وتلـــك التخصصات وطبيعـــة التحديات التي تواجهها الحركة الإســـلامية في الواقع، وعلى قيادات ورموز هـــذه الكيانات أن تعمل جاهدة علـــى دعم هذه التخصصات وإسناد كل مهمة إلى من يحسنها ودعمه في ذلك.

ولا يجوز لهذه الكيانات أن تنازع في ما لا تحسنه من منطلق العصبية والتوسع ولو على حساب مصلحة الإسلام الكلية.

خير مثل:

وقد برز هذا الشـــكل الأمثل لهذا التعاون في مصر في جمعة (الإرادة الشـــعبية) التي اجتمعـــت عليها وفيها أغلـــب التيارات الإســـلامية (الإخوان، والســـلفية، والجماعة الإسلامية، وسلفيو الإســـكندرية) وقد اعتبرها الشيخ هشـــام عقدة إنجازاً كبيراً في جمع الشمل رغم الخلاف الواقع في بعض الجزئيات، وقد سبقها خطوات في جمع الشـــمل بدءاً من قيام الهيئة الشـــرعية للحقوق والإصلاح في أيام الثورة، ثم اجتماع الإســـلاميين على رأي موحد تجاه استفتاء مارس ٢٠١١م على التعديلات الدستورية، إلى صدور بيان موحد لائتلاف القوى الإســـلامية في رفـــض وثيقة المبادئ الحاكمة على الدســـتور ثم كانت مليونية (الإرادة الشـــعبية). وكل ذلك كان يسبقه سهر الليالي في جلسات التنسيق بين الإسلاميين.

كما يرى الأستاذ أحمد عمرو أنها كانت مثالاً واضحاً على أهمية إيجاد عدد من القضايا أو المشاريع والتوحد حولها؛ فقد شهد الجميع لجمعة (الإرادة الشعبية) بالنجاح وأحدثت الأثر المرجوَّ منها من قِبَل التيارات الإسلامية المشاركة فيها، وهو الأمر الذي يبعث برسالة مفادها: أنه يمكن التوحد والتكامل. شارك في جمعة (الإرادة الشعبية) التيارات السلفية بمختلف مشاربها، والجماعة الإسلامية والإخوان والمستقلون... وهو أمر محفز للاتجاه نحو قضايا مشتركة تجتمع عليها الكلمة كما اجتمعت الكلمة في جمعة (الإرادة الشعبية).

هيئات جامعة:

وعن الهيئات التي تعمل على توحيد صف الأمة من بين الحركات والأحزاب الإسلامية؛ ليكون بذلك جبهة إسلامية متكاملة تستطيع أن تقف وتصمد أمام تحديات الوقت الراهن في مصر يقول الباحث أحمد عمرو عنها: إنها ضرورة وواجب الوقت؛ لكن إن لم تسبقها مشاعر التجرد والرغبة الصادقة في التكامل والتعاون فلن تؤتي أُكُلَها؛ بل ستظل أعراساً من شموع لا حراكة فيها جامدة إلا إذا ضحى الجميع وبذل جهده من أجل وحدة الكلمة وجمع الصف.

ويُقسِّم الشيخ هشام عقدة هذه الهيئات التجميعية للتيارات الإسلامية؛ فمنها ما يتعلق بالدعوة كالهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح، ومنها ما يتعلق بعمل الأحزاب كمكتب التنسيق بين الأحزاب الذي يقوم عليه عدد من الإسلاميين الموثوقين ذوي العلاقة الحسنة بالتيارات المختلفة، ومنها اللجنة التنسيقية للحشد العام كما في المليونيات وهي أوسع دائرة من الهيئة وإن كانت قد نشأت نتيجة لدعوة الهيئة الشرعية للتيار الإسلامي للاجتماع والحشد في بعض المواقف، وكذلك انبثق عن دعوة الهيئة ائتلاف القوى الإسلامية الذي شمل الهيئة والإخوان والسلفيين وأنصار السنة والجماعة الإسلامية، وهو قابل للمزيد من التجميع.

ويرى الشيخ هشام برغش أن الأَوْلى أن تجتمع هذه الهيئات بجهود مباركة إن شاء الله؛ فتجمع كل التيارات ذات المرجعية الإسلامية ورموزها؛ على أعمال وأهداف مشتركة، بعيداً عن روح التوجس والتحفز والتشكك؛ فتلتقي - بفضل الله عز وجل - كلماتهم، ومن ثَمَّ جهودهم.

كما أن هذه الهيئات الجامعة - أو هكذا نتمنى منها - مطالَبة بأن تقوم بالدور السابق نفسه في إطار الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية، ويجب على الجميع أن يدعمها بكافة سبل الدعم؛ فهذا واجب الوقت في المرحلة المقبلة التي تحتاج إلى توحيد الصفوف وتنسيق الجهود ونقل الخبرات وكشف المؤامرات التي تحاك لهذه الأحزاب من القوى الليبرالية التي جمعت كلمتها على مواجهة التيارات الإسلامية كافة. ثم لا بد من التنسيق والتعاون بين الهيئات واللجان حتى يتم التنسيق بين جميع الفصائل وأذرعها على أكمل وجه وأتمِّه.

الوقيعة... والتصدي لها:

وعن محاولات الوقيعة التي تحدث عنها الشيخ برغش في السابق يرى الشيخ نشأت أحمد (عضو الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح) أن هذا التلاقي بيننا لن يروق لأعدائنا لا في الداخل ولا في الخارج؛ وهم أعلنوا أنهم سيسعون جاهدين؛ لتفريق هذا الزخم وهذا التوجه الإسلامي، لكن نسأل الله أن يعصمنا بفضلٍ منه ورحمة، وأن لا يمكِّن لنزغات شياطين الإنس والجن أن تفسد بيننا، والأمر يحتاج لإخلاص شديد، يحتاج لمواصلة هذا التلاقي حتى تُعالَج أي شبهات تثار أولاً بأول وحتى لا يتمكن أعداؤنا من إفسادهم بيننا.

وذكر الشيخ هشام عقدة أنه لا بد من الإشارة إلى حرص فلول النظام البائد والإعلام الخبيث على إحداث الوقيعة بين التيارات الإسلامية بل وبين القوى الوطنية عموماً، ولكن بفضل الله توجد حالة انتباه لهذا من جهة أبناء التيار الإسلامي ويمكن زيادتها وصقلها باستمرار النجاح في التواصل الذي نشط منذ الثورة بين فئات التيار الإسلامي؛ لا سيما مع رصد بعض الفئات المخلصة جُلَّ جهدها من أجل إدامة هذا التواصل المتضمن للشورى والمناصحة والرصد لتحركات مَن حولنا وتبادل المعلومات في ذلك.

مطالب المرحلة:

لقد اجتمعت كلمة جُلِّ من شارك في هذا التحقيق حول أولوية الحاجة الشديدة للتآخي والتلاحم واتخاذ مواقف تُعيد لهذا التيار بكامله كرامته وحريته وقدرته على أداء دوره في الحياة بل قدرته على استخلاص حقوقه، وعلى الوصول لأفضل حياة ممكنة في وسط هذا الزخم الذي وصلنا إليه، وهو ما يكون بالتواصل بين الفصائل المختلفة وكثرة اللقاءات التي تجمع بينهم في نقاشات علمية وفكرية وإدارية متوازنة للاتفاق على محددات هذ ه الأدوار ليقوم كلٌّ فصيل بما يمكن أن يقدمه لخدمة دينه وأمته، وهو ما ذكره الشيخ نشأت أحمد والأستاذ عادل الأنصاري وغيرهما.

أما الأستاذ أحمد عمرو فيرى أن من أهم مطالب المرحلة هو إحداث عملية تغيير حقيقة على صعيد البُنَى

الفكرية ومناهج التربية التي يتكون من خلالها أفراد وأتباع التيارات الإسلامية؛ بحيث تخلو المناهج التربوية وخطابها لأتباعها من استصغار الجهود وبخس الإنجازات ورؤية النفس فقط.

ويرى الشيخ هشام برغش أنه علينا أن نؤكد مراراً وتكراراً على أن التعددية في ظل العصبية والخصومة أمر مرفوض وفتنة كبيرة، والمنهج الصحيح للتعامل مع هذه الفتنة، يكون بوضع منهج عملي لدفع مفاسدها وتقليلها ورأب الصدع بين هذه الجماعات ونزع أسباب الفرقة، من خلال إحياء فقه الاختلاف وآدابه وقواعده، وليس بتبديع هذه الجماعات أو السعي في نقضها والدعوة إلى اعتزالها.

وكما وجدت المذاهب والمدارس الفقهية المختلفة في ظل صفاء ومودة وأُلفة بين أصحابها، فإنه من الممكن أن توجد الجماعات الإسلامية المختلفة على أساس التعاون وإشاعة روح التنافس الشريف.

ويشير الشيخ برغش إلى أنه يجب على هذه الجماعات جميعاً أن تدرك أنها مهدَّدة بانعدام الشرعية، إذا لم تؤسس نظرتها إلى التعدد على هذا النحو، وترسم من خلاله إطاراً للتكامل والتراحم؛ تمهد به الطريق إلى إقامة الجماعة التي جاءت بها النصوص بمفهومها العام والشامل.

مبيِّناً أن لهذه النظرة سالفة الذكر آثاراً مهمة ولازمة في علاج واقع تلك الجماعات، والأسباب التي أدت إلى الاحتقان بينها، ومن هذه الآثار: زوال عقدة الانغلاق على النفس، والاستعلاء على الآخرين، وامتهاد الطريق إلى مزيد من التواصي والتناصح وقطع السبيل على دعاة الفتنة، وتصحيح النظرة إلى الآخرين وانتهاء التشنيع عليهم بالجزئية والقصور؛ لأنه في ظل هذا التصور لا حَرج في الجزئية أو التخصص، وما تقصر فيه جماعة تتداركه جماعة أخرى، فتتكامل هذه الجماعات في أداء هذه الفروض الكفائية، ويرتفع الإثم عن الجميع.

كما أشار فضيلته إلى مجموعة أخرى من الواجبات الحتمية على كل التيارات الإسلامية الآن، منها: الاتفاق على الكليات والثوابت والتغافر في موارد الاجتهاد، منطلقة على أساس جملة من المبادئ والركائز، أهمها: منهج أهل السُّنة والجماعة وهو الإطار الذي يجب أن تتقيد به كافة الحركات الإسلامية، ومسائل الإجماع يجب أن تكون موضع قَبُول من الجميع، وأما مسائل الاجتهاد فلا يُضَّيق فيها على المخالف؛ فمن عمل فيها بأحد القولين لم يُنكر عليه ولم يُهجر، أما مسائل الخلاف المعتبَر فهو خلاف أهل العلم، لا خلاف العامة وأشباههم، وأن الاجتهاد المبني على الموازنة بين المصالح والمفاسد من دقائق الفقه التي يجب أن تفوَّض إلى أهل العلم، ولا مدخل في ذلك للعامة ولا لأشباه العامة.

وكذلك منطلقة من أهمية بحث قضايا الخلاف المنتشرة بين كافة الفصائل، وتحرير محلِّ النزاع فيها يكون من خلال تشكيل لجان علمية متخصصة من المبرزين من أهل العلم في كل فصائل التيار الإسلامي؛ بهدف الوصول إلى رؤية مشتركة حولها، وتحديد الموقف الصحيح منها.

ويختم الشيخ برغش كلامه بقوله أنه مما لا شك فيه أن من أهم عوامل ترشيد هذه الجماعات والكيانات، هو السعي الحثيث لإحياء دور العلماء الربانيين، و تفعيل دور المؤسسات الإسلامية الرسمية، ومن أعظمها وأهمها ولا شك الأزهر العريق، والعمل الجاد على أن تستعيد هذه المؤسسة ريادتها واستقلاليتها وفاعليتها، وأن تكون هي حاملة راية الدفاع عن الإسلام وشريعته، والمتبنية لقضاياه، والداعمة لها، ويوم كان الأزهر هو قلب الإسلام النابض، وحامل لواء الشريعة؛ لم نجد هذا التمزق وذلك التشرذم الذي تعاني منه الأمة اليوم.

ومن جانبه أشار فضيلة الأستاذ الدكتور محمد المختار المهدي الرئيس العام للجمعية الشرعية، إلى المؤتمر الذي عقده الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في مصر، وقد تضمن جلسة كاملة عن التيارات الإسلامية، وقد استهدفت هذه الجلسة الوصول إلى قناعات مشتركة وميثاق شرف للتعاون بين هذه التيارات.

كما أكد فضيلته على أن الجلسة انتهت بمجموعة من التوصيات، منها: تكوين لجنة مؤقتة لمتابعة سبل التناصح والتعاون بين العاملين في الحقل الإسلامي، والاتفاق على ميثاق شرف يقوم على عدد من المبادئ، منها: الحرص الشديد على كل ما يحقق وحدة الدين ووحدة الأمة، وترك كل ما يؤدي إلى الاختلاف الذي يضر بها، والعهد مع الله في إقامة الإخلاص والعدل، مع الالتزام بالموضوعية وعدم التجريح للمخالفين أفراداً ومؤسسات، وضرورة توحيد المواقف إزاء القضايا الكبرى والمصيرية للأمة، وتوعية الأعضاء والأتباع في كل جماعة بأدب الخلاف والتعامل مع الآخرين، وتجنب التراشق على مستوى الإعلام، أو الانجرار إلى معارك يفتعلها الآخرون، وأخيراً مراعاة الأولويات الشرعية في الخطاب والتطبيق.

[المسلمون.. والعالم]

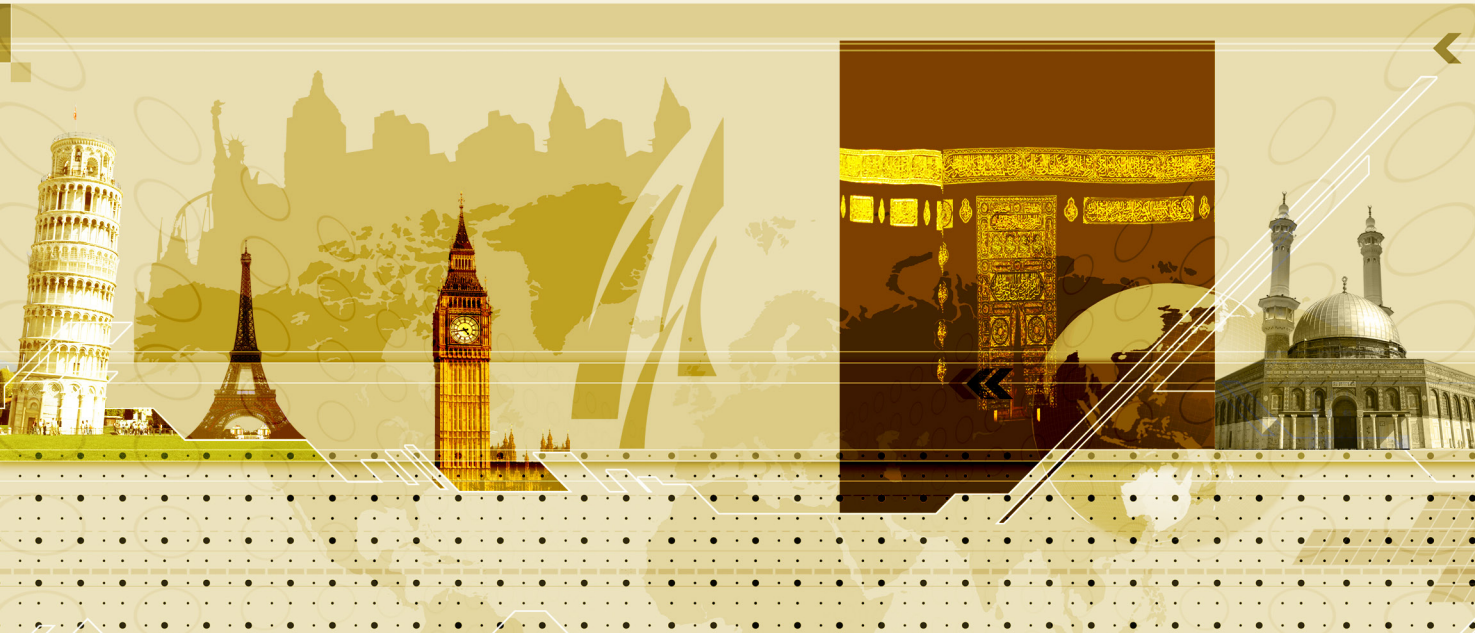

الشعب السوري يفكك مؤسسات القمع
د. بشير زين العابدين

ليبيا... نحو فجر جديد
أحمد أبو دقة

مساجد تونس في رمضان من القيود إلى ثورة العبادة
عاطف بن زينة

العراق وغـــزو من نوع جديد
د. أكرم المشهداني

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

الشعب السوري يفكك مؤسسات القمع

د. بشير زين العابدين(*)

بينما كانت دبابات الجيش السوري منهمكة في دكّ المدن وقصف الأحياء واستهداف المنازل الآمنة، كان نائب وزير الخارجية السوري فيصل المقداد يزور جمهورية جنوب إفريقيا في مهمة يائسة لمنع صدور قرار ضد نظامه في مجلس الأمن.

وقد أعادت هذه المتناقضة العجيبة إلى الأذهان تساؤلات طال طرحها حول كيفية تسلط أقليات معزولة على أنظمة الإدارة والحكم، وقدرتها على تشييد صروح المؤسسات الدستورية الحامية لها، ونجاحها في تسخير القانون لفرض شرعيتها؟

فعلى الرغم من استعانة منظري الاجتماع السياسي بالمرحلة الاستعمارية لدراسة نماذج من حكم الأقليات، إلا أن نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا (١٩٤٨ - ١٩٩٤م) مثَّل النموذج الأبرز لحكم أقلية لا تتجاوز نسبتها ٩ ٪ على سائر أبناء المجتمع.

ربما لم يكن لدى المقداد وقتاً كافياً للتأمل في رمزية هذه الزيارة ومدلولاتها؛ فبمجرد عودته إلى دمشق كانت أجهزة الإعلام العالمية تكثف حملتها في كشف مكونات البنية القمعية للنظام السوري، وفضح جرائم المؤسسة العشائرية (العسكرية التي كانت تختفي خلال العقود الخمسة الماضية خلف واجهة حزبية مدنية).

لقد نجحت الثورة السورية في تسليط الضوء على مؤسسات القمع الحاكمة، وأرغمتها على مواجهة الرأي العالمي، في ظل صمت أجهزة الحكم المدني، وعجز الآلة العسكرية عن تبرير جرائمها في حق الشعب.

(*) أكاديمي سوري.

الإرث الفرنسي:

تعود جذور نشأة الحكم (العشائري - العسكري) في سوريا إلى شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠م عندما وصل حافظ أسد إلى سدة الحكم على ظهر دبابة سجلت المحاولة العسكرية الحادية والعشرين للوصول إلى السلطة في غضون واحد وعشرين عاماً[1].

فقد ورثت الجمهورية السورية خلال المدة بين عامي (١٩٤٦-١٩٧٠م) عن الانتداب الفرنسي نظام حكم مدني ضعيف، ومؤسسة عسكرية شغوفة بتولي مقاليد السلطة في البلاد.

(١) الانقلابات وحركات التمرد والعصيان التي قام بها الجيش خلال الفترة (١٩٤٩-١٩٧٠م) هي: انقلاب حسني الزعيم (مارس ١٩٤٩م)، انقلاب سامي الحناوي (أغسطس ١٩٤٩م)، انقلاب أديب الشيشكلي الأول (ديسمبر ١٩٤٩م)، انقلاب أديب الشيشكلي الثاني (نوفمبر ١٩٥١م)، الانقلاب ضد الشيشكلي (فبراير ١٩٥٤م)، محاولة انقلاب غسان جديد ومحمد معروف (١٩٥٦م)، عصيان الضباط البعثيين (مارس ١٩٥٧م)، المحاولة الانقلابية بتخطيط من الحسيني والشيشكلي (أغسطس ١٩٥٧م)، انقلاب الانفصال (سبتمبر ١٩٦١م)، المحاولة الانقلابية الثانية في عهد الانفصال بقيادة النحلاوي (مارس ١٩٦٢م)، عصيان المدن الشمالية (مارس ١٩٦٢م)، عصيان حلب (أبريل ١٩٦٢م)، محاولة انقلاب مجموعة الانفصال (يناير ١٩٦٣م)، انقلاب البعثيين والناصريين (مارس ١٩٦٣م)، عصيان الضباط البعثيين (أبريل ١٩٦٣م)، انقلاب مجموعة زياد الحريري (يونيو ١٩٦٣م)، محاولة انقلاب الناصريين (يوليو ١٩٦٣م)، انقلاب صلاح جديد (فبراير ١٩٦٦م)، محاولة انقلاب الضباط الدروز بقيادة فهد الشاعر (أغسطس ١٩٦٦م)، محاولة انقلاب سليم حاطوم (سبتمبر ١٩٦٦م)، انقلاب حافظ أسد (نوفمبر ١٩٧٠م).

وبمجرد تولي حافظ أسد الحكم لم يكلِّف نفسه عناء البحث عن بدائل بنيوية لترسيخ سلطته؛ فقد وجد في نمط الانتداب الفرنسي بنية تحتية قوية لفلسفة القمع من جهة، وكسب الشرعية الدستورية من جهة أخرى.

وكان النموذج الفرنسي قد قام في مرحلة الانتداب (١٩٢٠ - ١٩٤٦م) على المزج بين إثارة النعرات الطائفية، واستخدام القوة العسكرية لقمع المعارضة؛ حيث عمد ديغول إلى إخماد الثورة السورية (الأولى) من خلال تبني سياسة التقسيم الطائفي للبلاد[١]، ولجأ إلى تجنيد بعض أبناء الأقليات لتشكيل فرق: «القوات الخاصة» التي قامت بمهام قتل المدنيين وتعذيبهم في الشوراع، وإهانتهم، وإذلالهم نيابة عن الفرنسيين.

وقد سارت السياسة السورية خلال عامي (١٩٧٠ - ٢٠٠٠م) على النسق نفسه؛ إذ عمد النظام إلى ترسيخ الإرث الفرنسي المتمثل في: نظام حكم مدني ضعيف، وأحزاب لا تملك نظرية سياسية ناضجة، في مواجهة مؤسسة عسكرية تشكل عنصر التوازن الفعلي في الإدارة المحلية والأمن؛ وذلك بالاعتماد على العنصر العشائري الذي استند عليه الفرنسيون في مرحلة الانتداب.

لقد أدرك حافظ أسد في الثلث الأخير من القرن العشرين أن الشق (الحزبي - المدني) هو الحلقة الأضعف بين الفئات المتصارعة على السلطة، فأعطى لمؤسساته نمطاً شكلياً يقتصر على قطاع محدود في أجهزة الإدارة والحكم، وجعل توازن النظام يقوم على فرق عسكرية ومؤسسات أمنية تهيمن على الحياة العامة، واعتمد في ذلك على العنصر (العشائري - العائلي) باعتباره العامل الأكثر ضماناً في تحقيق معادلة التوازن الصعبة داخل النظام.

وفي استجابة عارمة لحملات القمع لم تتراجع المؤسسات المدنية عن منح حافظ أسد نسبة ٩٩٪ في خمس انتخابات رئاسية خاضها دون منافس، وأعطته بموجب الدستور صلاحيات مطلقة في الحكم، ثم وافقت على توريث هذه السلطات إلى ابنه بشار الذي حصل على نِسَب قريبة من والده في انتخابات عامَي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٧م[٢].

إلا أن حركة الاحتجاجات الشعبية قد نجحت في الكشف عن زيف الأرقام التي كان يعلنها كلٌّ من حافظ وبشار، وتمكنت من سحب بساط الشرعية عن نظام قام على مؤسسات القمع وأجهزة الاستخبارات.

ويمكن تفصيل أهم إنجازات الثورة من خلال محورين رئيسين متمثلين في: إضعاف البنية التحتية لمؤسسات القمع من جهة، والمخاطر التي تعرَّض لها المشروع الطائفي الذي تدعمه إيران من جهة أخرى.

«النظام السوري ضحية الشعب»!

عبثاً حاول النظام السوري إقناع الرأي العالمي بأنه قد وقع ضحية شعبه الذي كبده مئات القتلى والجرحى من رجال الأمن والجيش.

وقد لجأ القصر الجمهوري إلى هذه الفرضية لتبرير حملة القمع التي شنها ضد المتظاهرين العزل، فزج في مواجهته معهم أكثر من مائة ألف مقاتل من القوات الخاصة[٣]، والحرس الجمهوري[٤]، والفرق المدرعة: الرابعة[٥]، والسابعة[٦]، والحادية عشر[٧]، كما تمت الاستعانة باللواءين المدرعين (الرابع عشر والخامس عشر) التابعين للفيلق الثالث بحلب لقمع المظاهرات الشعبية في الشمال والشمال الشرقي، واستخدمت هذه القوات نحو ١٥٠٠ دبابة من طراز (T٧٢) روسية الصنع، وعدد كبير من الطائرات المروحية، وراجمات الصواريخ، والمدفعية الثقيلة.

(١) أعلن ديغول قيام: دولة حلب في الثامن من سبتمبر سنة ١٩٢٠م، ودولة العلويين في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٢٠م، ودولة جبل الدروز في ٢٠ إبريل سنة ١٩٢١م، ودولة دمشق: التي اتخذت من العاصمة اسماً لها، كما مارست سلطة الانتداب الفرنسية حكماً مستقلاً لإقليم الجزيرة، وسنجق الإسكندرون.

(٢) انتخب حافظ أسد رئيساً للجمهورية عام ١٩٧١م لمدة سبع سنوات، ثم أعيد انتخابه أربع مرات؛ حيث انتخب في فبراير ١٩٧٨م لفترة رئاسية ثانية، وانتخب في فبراير ١٩٨٥م لفترة رئاسية ثالثة، وانتخب في فبراير ١٩٩٢م لفترة رئاسية رابعة، وانتخب في فبراير ١٩٩٩م لفترة رئاسية خامسة، وفي جميع هذه الانتخابات كان حافظ أسد هو المرشح الوحيد وكان يحصل على نسب تتجاوز ٩٩٪. وانتخب ابنه بشار عامَي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٧ بنسب تزيد قليلاً عن ٩٧٪.

(٣) تقع قيادة القوات الخاصة في دمشق، وتتكون من ١٥ ألف مقاتل، ويتبع لها أحد عشر فوجاً منتشرة في مختلف قطعات الفيالق الثلاثة.

(٤) تقع قيادة الحرس الجمهوري في دمشق، وتمثل فرقة النخبة، وينضوي تحتها مجموعة من آل أسد وآل مخلوف، ويبلغ تعدادها ٣٠ ألف مقاتل.

(٥) تخضع لقيادة ماهر أسد، ولكنها تتبع من الناحية التنظيمية لقيادة الفيلق الثاني، وتتكون من لواءين مدرعين، ولواء مؤلل، ويبلغ قوامها ٨ آلاف مقاتل.

(٦) تخضع لقيادة الفيلق الأول بدمشق، وتتكون من لواءين مدرعين، ولواء مؤلل. وجدير بالذكر أن جميع الفرق المدرعة السورية تتكون من لواءين مدرعين، ولواء مؤلل، إضافة إلى لواء مدفعية يحتوي على أربعة كتائب، ويتم تجهيز الألوية المدرعة بثلاث كتائب دبابات تتضمن حوالي ٣٠٠ دبابة، وخمسين عربة مدرعة، تدعمها ألوية مؤللة مزودة بحوالي ٣٠٠ عربة مشاة مصفحة، وعربات نقل مشاة.

(٧) تخضع لقيادة الفيلق الثاني بالزبداني، وتتكون من لواءين مدرعين، ولواء مؤلل، ويبلغ قوامها ٨ آلاف مقاتل.

كما دفع الأمن في هذه الحملة بأكثر من ثلاثمائة ألف عنصر من أجهزة: الاستخبارات العسكرية، والأمن السياسي، والأمن العام، والمخابرات الجوية، ومكافحة الشغب، وزودتهم بالأسلحة الرشاشة، وبنادق القنص، والمسدسات، والذخير المتفجرة، والهراوات والأسلحة البيضاء، ودعمتهم بفرق من عصابات الشبيحة والمرتزقة من أصحاب السوابق، دون أن تنجح في احتواء التظاهرات الشعبية حتى الآن[1].

وعلى الرغم من صعوبة القبول بالرواية الرسمية للأحداث؛ إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن الثورة الشعبية قد ألحقت بالنظام خسائر فادحة، من أبرزها:

١ - إزالة مساحيق التجميل (الحزبية - المدنية) عن وجه مؤسسة القمع الدميم؛ حيث غابت حكومة عادل سفر عن الأحداث بشكل مريع، وصمتت فروع حزب البعث العربي الاشتراكي على الرغم من كثرة أعضائها بين عامل ونصير[2]، ولم يكن للقيادة القومية أو القطرية أو اللجنة المركزية أي دور يذكر. وفي الوقت الذي اقتصر فيه دور مجلس الشعب على الهتاف والتصفيق، لم تنبس أحزاب الجبهة التقدمية ببنت شفة[3].

٢ - نجاح شعارات الثورة في تشتيت شمل قوى القمع، وبث روح التمرد والانشقاق بين أفرادها، وهو ما اضطر رئاسة الأركان إلى سحب جميع الفرق المرابطة في الحسكة ودير الزور والبو كمال واستبدالها بعناصر من الفرقة السابعة، وفي ٣١ يوليو ٢٠١١م رفضت قيادة إحدى الفرق المدرعة التحرك من قطنا في عصيان شمل جميع أفراد الفرقة، وفي هذه الأثناء أصبح مشهد إعلان الضباط انشقاقهم على القنوات الفضائية مألوفاً، بينما انهمكت قيادة الجيش في مفاوضات شاقة لاستعادة مدرعاتها في كناكر والرستن ودير الزور.

٣ - ظهور بوادر الصراع على السلطة (تماماً كما حدث بين حافظ ورفعت عام ١٩٨٤م)؛ حيث غاب العماد علي حبيب عن المشهد العسكري، بعد إثارة الشكوك في ولائه لبشار أسد، وتذمره من إدارة ماهر أسد للحملة ضد المتظاهرين، وما نتج عن ذلك من تمرد عناصر من الجيش، وجاءت إقالة علي حبيب على خلفية الانقسام الواقع داخل بنية الطائفة الحاكمة، وقد تحدثت صحيفة: «نيويورك تايمز» الأمريكية في مطلع أغسطس ٢٠١١م بتوسع عن ذلك، مشيرة إلى احتمال انقلاب العلويين على نظام الحكم؛ وخاصة أن عائلة حبيب تعتبر أكبر من عائلة أسد داخل عشيرة المتاورة، وأكدت الصحيفة أنه: «إذا اطمأن قادة العلويين البارزين إلى سلامتهم، فإنهم قد يشرعون في سحب تأييدهم من أسرة الأسد ويجربون حظهم مع المعارضة، وإشارة منهم يمكن أن تقنع قادة الجيش العلويين المتنفذين بالانشقاق وأخذ ضباط آخرين معهم».

لقد وقعت مؤسسات النظام ضحية التفكك أمام إصرار الشعب على نيل الحرية وإنهاء فترة الاستعباد.

حلب: عاصمة المشروع الإيراني:

يستغرب بعض المحللين من ضعف تجاوب حلب مع الحراك الشعبي، ويتساءل آخرون حول احتمال وجود تفاهم بين تجار حلب مع النظام؟ إلا أن العنصر الغائب في هذه التحليلات هو ما تتعرض له المدينة من قمع وتشديد أمني، وما تمثله من أهمية بالغة للحرس الثوري الإيراني الذي يتخذ من مدينة حلب قاعة ارتكاز لتنفيذ مشروعه التوسعي:

١ - فقد قام نظام طهران بتأسيس مجموعة من المصانع والشركات التجارية بحلب، منها: شركة «سيامكو» (السورية - الإيرانية) التي تنتج سيارة «شام»، وتغلغلت هذه الشركات في البنية التحتية بالمدينة؛ حيث تعاقدت وزارة الإسكان السورية مع شركة «توساب» الإيرانية لدراسة تطوير محطة معالجة الصرف الصحي بمدينة حلب بكلفة قدرها ٢٣ مليون ليرة، وتتوج هذا التعاون التجاري بإعلان حلب عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦م بالمشاركة مع مدينة أصفهان.

٢ - ويسود اعتقاد أن النشاط التجاري الإيراني في

---

(١) يقدر تعداد عصابة الشبيحة بحوالي عشرة آلاف عنصر، وقد انضم إليهم في الأحداث الأخيرة المئات من المجرمين وأصحاب السوابق.

(٢) بلغ عدد أعضاء حزب البعث سنة ٢٠٠٠م: ١٩٠٤٥٨٠ عضواً، منهم ٤٠٦٠٤٧ عضواً عاملاً، ويوجد في الجيش السوري ٢٧ فرعاً لحزب البعث و ٢١٢ شعبة، و ١٦٥٦ حلقة حزبية بلغ عدد أعضائها ٢٥٠٦٦ عضواً، وتشير المعطيات إلى تغلغل الحزب في قطاعات أخرى غير المؤسسة العسكرية؛ حيث إن: ٩٩٨ من أصل القضاة العاملين في سورية الذين يبلغ عددهم ١٣٠٧ هم حزبيون، ويبلغ عدد الحزبيين من محاضري جامعة دمشق ٥٦٪، و ٥٤٪ من محاضري جامعة حلب، و ٧٩٪ من محاضري جامعة تشرين، و ٨١ ٪ من محاضري جامعة البعث، ويهيمن الحزب على وسائل الإعلام بصورة مطلقة. انظر: إيال زيسر (٢٠٠٥م) باسم الأب بشار الأسد، السنوات الأولى في الحكم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص١٢٤.

(٣) أحزاب الجبهة التقدمية بعد توسيعها هي: حزب البعث العربي الاشتراكي، جناح الحزب الشيوعي السوري برئاسة وصال بكداش، جناح الحزب الشيوعي السوري برئاسة يوسف فيصل، حزب الاتحاد الاشتراكي، الحزب الوحدوي الاشتراكي برئاسة فايز إسماعيل، الحزب الاشتراكي برئاسة أحمد الأحمد، الحزب الوحدوي الاشتراكي الديمقراطي المنشق عن الوحدويين الاشتراكيين برئاسة فضل الله ناصر الدين، حزب الوحدة العربية الديمقراطي برئاسة غسان أحمد عثمان، وحزب العهد الوطني.

مدينة حلب ليس إلا غطاء لمشروع التوسع العسكري الإيراني، وتنسيق نشاط الميليشيات الطائفية الممتدة ما بين طهران وبيروت، فقد قدم الإيرانيون دعماً كبيراً للجيش السوري في تشكيل الفيلق الثالث بمدينة حلب، وهو الذي أوكلت إليه مهمة حماية منشآت تصنيع الصواريخ ومنصات الصواريخ[1].

وتشير المصادر إلى أن الحرس الثوري الإيراني قد أسهم في تأسيس سلاح الصواريخ بمدينة حلب، ويتكون من ثلاثة ألوية صواريخ (أرض، أرض) محمولة[2]، كما أشرفت إيران على تطوير برنامج متقدم للصواريخ في مدينة حلب، يتضمن نحو خمسة عشر موقعاً سرياً يتم تشغيلها من قِبَل خبراء إيرانيين، ويهدف البرنامج إلى تطوير منظومات صواريخ (Scud-C) التي يبلغ مداها ٥٠٠ كم بحمولة تبلغ ٥٠٠ كغ.

٣ – أما الدور الأبرز للمشروع الإيراني في حلب فيتمثل في اتخاذ المدينة قاعدة لتهريب الأسلحة، وتوصيل الإمدادات وتقنية الصواريخ إلى عناصر «حزب الله» بلبنان؛ ففي شهر مارس ٢٠١١م أجبرت طائرتان تابعتان للجيش التركي طائرة شحن إيرانية على الهبوط في ديار بكر، وكانت الطائرة متجهة إلى مدينة حلب السورية، ولدى تفتيش الطائرة تبين أن حمولتها هي عبارة عن شحنة أسلحة تتضمن قذائف مدفع بعيارات مختلفة، وبنادق كلاشنكوف، وبنادق أوتوماتيكية أخرى، وتمت مصادرة جميع المعدات العسكرية وإيداعها في مخزن تابع للجيش التركي بديار بكر، وقد أكدت قيادة الجيش التركي أن عملية توصيل الأسلحة الإيرانية إلى لبنان عبر مدينة حلب تتم بصفة دورية، لكنها لا تنجح دائماً في كشفها.

وفي ٦ أغسطس ٢٠١١م كشفت السلطات التركية مرة أخرى عن اعتراض شحنة أسلحة أخرى كانت متجهة من إيران إلى الأراضي السورية، إلا أنها امتنعت عن تقديم مزيد من التفاصيل.

جدير بالذكر أن الجيش السوري قد نأى بنفسه عن عمليات تهريب الأسلحة إلى لبنان، وأوكل هذه المهمة إلى عصابة الشبيحة، لتجنيب ضباطه الوقوع تحت طائلة المسائلة الدولية في حالة الكشف عن أعمال التهريب، واتهامهم بخرق حظر السلاح الذي تفرضه الأمم المتحدة على إيران.

وبناء على ذلك فإنه من غير المستغرب أن تتسق عصابة الشبيحة جهودها مع عناصر الحرس الثوري الإيراني بهدف منع قيام حراك شعبي في مدينة حلب، ومشاركتهم في قمع التظاهرات فيها بعنف شديد.

وفي الوقت نفسه فإن إيران ترمي بثقلها خلف النظام السوري وتقدم له مختلف أنواع الدعم الفني والاستخباراتي؛ وذلك لحماية مصالحها الكبيرة المتركز في مدينة حلب[3].

وعلى الرغم من ذلك الحشد الطائفي لصالح نظام بشار، إلا أن المصادر تؤكد قيام كل من إيران و «حزب الله» بدراسة بدائلهما بجدية، وقيامهما بنقل أسلحة ومعدات إلى مناطق أخرى أكثر أمناً في ظل تزايد الضغط الشعبي والتنديد الدولي بالنظام السوري.

ومن خلال المقارنة مع تجربة حكم الأقلية في جنوب إفريقيا؛ يمكننا القول بأن نمط حكم الأقليات لا يقوم إلا على مؤسسات القمع وحكم العسكر؛ فعندما تزايد ضغط الأكثرية على الأقلية، لجأ نظام الفصل العنصري بجنوب إفريقيا إلى القمع؛ فعمد إلى تجريم حركات الاحتجاج الشعبي، وزج بأكثر من ثلاثين ألف معتقل في السجون، وارتكب مجموعة مجازر أبرزها مجزرتي «بوبياتونج» و «بيشو» عام ١٩٩٢م.

ولما أعيته الحيلة؛ لجأ النظام العنصري إلى سلسلة إصلاحات وهمية لتجنُّب التغيير الحتمي، ولكن مؤسساته القمعية لم تصمد أمام الضغط الشعبي فتفككت بصورة كاملة عام ١٩٩٤م، وانتهى حكم الأقلية بعد مدة حكم استمرت ٤٦ عاماً.

ويقف القطر السوري اليوم على أعتاب مرحلة جديدة، تؤذن بانهيار مؤسسات حكم الأقلية بعد أن حكمت البلاد مدة ٤٨ عاماً، تكبد فيها الشعب آلاف القتلى والجرحى والمعتقلين والمهجرين.

ولو امتلك فيصل المقداد بعضاً من الوقت للتأمل أثناء مهمته الرسمية في مطلع شهر رمضان، لربما خرج بنتيجة رئيس الوزراء السويدي الأسبق «أولوف بالمه» نفسها عندما أكد أن نظام حكم الأقلية في جنوب إفريقيا: «لا يمكن إصلاحه، بل يجب القضاء عليه».

---

(١) يتكون الفيلق الثالث من: اللواء ١٤ المدرع، واللواء ١٥ المدرع، واللواء ١٩ المؤلل، إضافة إلى أربع ألوية من المشاة، ولواء حرس الحدود، وفوج مدرع مستقل، وفوج من المغاوير، كما تتمركز في حلب قيادة الفرقة الثانية من الاحتياط التي تستطيع تشكيل لوائين مدرعين، وألوية أخرى من المدفعية والمشاة.

(٢) تتضمن كل من هذه الألوية كتيبة: (SSM ٧–FROG) وكتيبة (SS–٢١ Scarab SRBM) وكتيبة (SS–١ Scud–B).

(٣) لمزيد من التفاصيل حول الدعم الإيراني لسوريا أثناء الاحتجاجات يمكن مراجعة: M. Segall (٢٠١١) 'How Iran is Helping Assad Suppress Syria's Arab Spring', Jerusalem Centre for Public Affairs, vol. ١١، no. ٩، ٢٠th July ٢٠١١.

ليبيا... نحو فجر جديد

أحمـــد أبـــو دقـــة

يودع الشعب الليبي في هذه الأيام المباركة مرحلة كانت مظلمة في تاريخـــه، قاده فيها معمر القذافي الذي انقلب على الملك إدريس الأول عام ١٩٦٩م هو ومجموعة من الضباط في الجيش ليحكم البلاد مدةً زادت علـــى الأربعين عاماً، عانـــت خلالها ليبيا من انعدام حرية الرأي والتعبير، والتهميش السياســـي، وشهدت سجون النظام الليبي جرائم بحق المعارضين الإسلاميين الذين أعدمَ كثيرين منهم دون محاكمة. وأشهر جرائم القذافي كانت مجزرة (سجن بو سليم) عام ١٩٩٦م؛ حيث قتل ١٢٠٠ من سجناء الرأي، وكانت هذه الجريمة ســـبباً في تأجيج الثورة الليبية؛ ففي بداية العام الحالي اعتقلت السلطات الليبية محامي أُسَر الضحايا (فتحي التربل) فخرجت مسيرات في بنغازي تطالب بالإفراج عنـــه وتأججت التظاهرات نتيجة قمع النظام الليبي حتى أُطلِق عليها اسم ثورة ١٧ فبراير وتم تشـــكيل المجلس الانتقالي الليبي في الشـــهر الثاني من الثورة ليمثـــل جميع المدن الليبية بقيادة وزير العدل السابق مصطفى عبد الجليل.

تخلى الكثيرون من أتبـــاع القذافي عنه بعد أن بدأ الثوار بتشـــكيل جيش لتحرير ليبيا ســـاهم في تأسيســـه اللواء عبد الفتاح يونـــس (وزير الداخلية السابق في نظام القذافي) لكنه لم يكمل مهمته وقُتِل في ظروف غامضة. وأقيـــم تحالف دوليٌّ مكوَّن من فرنسا وإيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وقطر والإمـــارات وتركيا تحت مســـمى (مجموعة الاتصـــال الخاصة بدعم الثـــورة الليبية)، وقام هذا التحالف بحشـــد قوة عسكرية ســـاهمت في تدمير القدرة العسكرية لقوات القذافي ومساندة تقدُّم ثوار

ليبيا في معاركهم خلال السيطرة على المدن الليبية. لكن هذا التدخل الغربي وُجِّه له انتقادات لاذعة خشية من أطماع غربية للسيطرة على الثروات النفطية الليبية.

وتعيش ليبيا حالة اقتصادية سيِّئة على الرغم من قلة عدد السكان الذي لا يتجاوز ٥ ملايين نسمة مقارنة بمساحة الأراضي الواسعة التي تقارب مليوني كم٢، وكذلك الثروات النفطية التي تقدَّر بـ ٤١,٥ مليار برميل من النفط الخام تصدِّر منه يومياً ٢ مليون برميل، وعلى الرغم من كل ذلك فإن متوسط دخل الفرد لا يتجاوز ٥٠٠ دولار أمريكي بسبب تعمُّد النظام سلبَ ثروات البلاد.

بعد أن ودَّعت الثورة الليبية في أخر معاركها في طرابلس الغرب (آخر معاقل) القذافي آلافَ الشهداء تبدأ قيادة الثورة الممثلة بالمجلس الانتقالي بتوجيه البلاد إلى مرحلة الاستقرار، وكان رئيس المجلس الانتقالي (مصطفى عبد الجليل) حذر في تصريحات لقناة الجزيرة الفضائية الأحد ٢٠١١/٨/٢٢م من لجوء بعض الثوار إلى القصاص مضيفاً: أن ليبيا تتجه إلى مستقبل مشرق.

وتضم قيادة الثورة أقطاباً سياسة مختلفة التوجهات؛ فمنهم الإسلاميون ومنهم الليبراليون، لكن الجميع يراهن على أن مستقبل الحكم في ليبيا ستحسمه انتخابات ديمقراطية.

وقال أيضاً: إنه لا وقت للاقتصاص، وإن هناك دولة جديدة ستبنى في ليبيا وكشف النقاب عن أنه فكَّر في الاستقالة، ورفض وجود عقليات وصفها بالمتطرفة في صفوف الثوار.

ونقلت صحيفة البيان الإماراتية عن مصدر مقرَّب من المجلس الانتقالي أن هناك خطة يُعِدُّها المجلس لإدارة ليبيا تتضمن تقسيم ليبيا إلى خمسة أقاليم إدارية، وكذلك تبنَّى وثيقة دستورية تنص على تسليم البلاد إلى مجلس منتخَب خلال ثمانية شهور.

وتتضمن الخطة تقسيم ليبيا إلى خمسة أقاليم هي (برقة، وطرابلس، ومصراتة، وجبل نفوسة، وفزان)، ويضم إقليم برقة المنطقة الشرقية ويتكون من محافظات (تبرق، والبيضاء، ودرنة، وبنغازي، وأجدابيا، والكفرة)، ويضم إقليم مصراتة محافظات (سرت، وبني وليد، وترهونة، وزليطن، والجفرة). ويمتد إقليم جبل نفوسة من مدينة زوارة على الساحل الشمالي إلى مناطق الطوارق في الجنوب، وتكون عاصمته مدينة يفرن ذات الحضور الأمازيغي المكثف، وستكون المناطق العربية في غرب ليبيا مثل الزنتان والرجبان وبدر وتيجي والعجيلات ورقدالين... وغيرها جزءاً من الإقليم الأمازيغي، وسيُسمَح لهذا الإقليم بوضع إشارة خاصة على عَلَم الاستقلال في إقليمهم.

أما إقليم طرابلس فسيضم المناطق المجاورة مثل (الجفارة، والزاوية، والنواحي الأربعة، وتاجوراء) على أن يتم تقسيم مؤسسات الدولة بين طرابلس وبنغازي، ويختص إقليم فزان بمناطق الجنوب الأوسط وتكون عاصمته سبها.

وينوي المجلس الانتقالي بعد السيطرة على طرابلس تعيين مجلس تنفيذي مؤقتاً وهو ما يشبه حكومة انتقالية تقوم بتصريف شؤون البلاد.

وستكلَّف الحكومة بتنظيم انتخابات لاختيار (مؤتمر وطني) في مهلة أقصاها ٢٤٠ يوماً (ثمانية أشهر)، وسيكون المؤتمر بمثابة برلمان انتقالي يضم ٢٠٠ عضو.

وبعد انعقاد الجلسة الأولى للمؤتمر الوطني، يتخلى المجلس الانتقالي عن السلطة ليصبح المؤتمر الوطني هو الممثل الشرعي والوحيد للشعب الليبي. وخلال مهلة لا تتعدى ثلاثين يوماً، يعيِّن البرلمان الانتقالي رئيساً للوزراء يشكل حكومة تُطرَح لنيل الثقة في البرلمان.

ومنذ يوم الأحد ٢٠١١/٠٨/٢٢م بدأت قوات الثورة تدخل العاصمة طرابلس وسيطرت على المدينة بسهولة وبدأت تحاصر باب العزيزية الذي يُعَد مركز حكم القذافي، وكان هناك تفاوض بين المجلس الانتقالي ومحكمة الجنايات الدولية لتسليم سيف الإسلام القذافي (نجل العقيد القذافي) للمحكمة الدولية.

وعلقت صحيفة «ذي تايمز» على حالة الفرح التي يعيشها الشعب الليبي بمناسبة تحرره بالقول: «على الرغم من الثوار الذين يحتفلون في شوارع طرابلس؛ إلا أن الوصول لنتيجة نهائية للصراع أمر بعيد وغير مأمون».

وتعتقد الصحيفة أن صراعاً سينشب بعد الانتهاء من القضاء على نظام القذافي بين الثوار بسبب اختلافاتهم السياسية.

ورأت الصحيفة أن «الأسابيع المقبلة ستحدد ما إذا كانت ليبيا ستستطيع التماسك في ظل تحديات إعادة إعمار البلاد عقب القذافي، أَمْ أنها ستسقط في فوضى عندما يؤدي تدمير النظام القديم إلى تسارُع الإسلاميين وقادة القبائل ووحدات الجيش وعناصر الجيش من أجل ملء فراغ السلطة».

لكن الشعب الليبي الذي يشكل أهلُ السُّنة الغالبية العظمى منه، يعتقد كثيرون من قيادات الثورة أن خياراته واضحة إذا ما أتيح له انتخابات حرة ونزيهة، لكنَّ مخاوف غربية تخرجها الصحف الغربية خوفاً وتهويلاً من سيطرة الإسلاميين على السلطة؛ لأنهم الفئة الأكبر من الذين ساهموا في الثورة (عسكرياً وسياسياً).

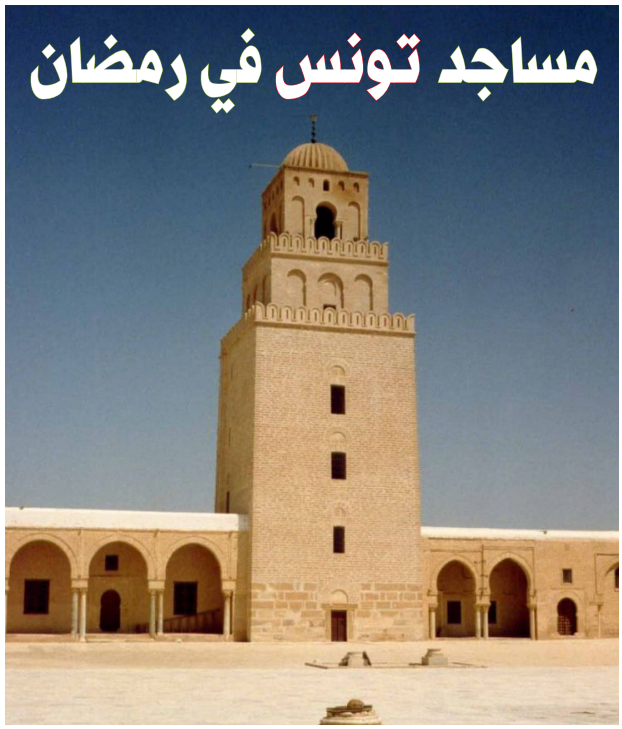

من القيود إلى ثورة العبادة

عاطف بن زينة

ثورة الكرامة، ثورة الياسمين، ثورة الشباب... كلها تسميات لثورة تونس المباركة التي قلبت الموازين وكذبت الخبراء والباحثين وأطاحت بالطاغية (بن علي) وأزلامه الذين حكموا البلاد والعباد بالحديد والنار لأكثر من عقدين من الزمان. أكثروا خلالها الفساد والعناد وحوَّلوا شعب تونس المسلم الأبي إلى خدم وعبيد للعائلة الحاكمة.

ولم يكتفوا بهذا فقط؛ بل سولت لهم أنفسهم الخبيثة سلبَه هويتَه الإسلامية، وطمسَ معتقداته، والتضييق على أداء شعائره الدينية، مستترين بغطاء الحداثة ومحاربة الرجعية بأمر من أجندات وأملاءات خارجية لا تخفى عن الجميع. فكانت الحرب على الإسلام التي بذلوا من أجلها الجهود والأموال في سبيل إعلاء الباطل على الحق وتحقيق مساعيهم الهابطة ومكائدهم الماكرة.

وما كان من هذا الشعب المؤمن إلا أن تمسك بحبل الله في مواجهة هذه الحملة الشرسة فصابَر ورابَط غير عابئ بالتضييق والاعتقالات والسجون، سالكاً طريق الأنبياء والدعاة.

فلم يترك الله – سبحانه وتعالى – تضحيات هذا الشعب الممتزجة بالدماء والأشلاء تذهب سدى فردَّ كيد الظالمين إلى نحورهم وأنزل نصره المبين مزلزلاً عرش الطغاة والمنافقين وفاتحاً الباب لصوت الحق الذي لا يعلوا فوقه صوت. فكان الفجر الجديد فجراً أعاد لهذه البلاد أمر رشدها ونزع عنها أغلال الظلم والاستبداد ورفع الإسلامُ فيها رايته عالياً رغم عواء الحاقدين من أهل الكفر وأتباع الشيطان، الذين زاد في غيظهم وسخطهم قدوم شهر رمضان المبارك وما يصحبه من إقبال شعب تونس على المساجد والعبادات والطاعات.

إن رمضان هذه السنة له طعم مغاير للعادة فالحال غير الحال. كيف لا ومن كان يمنع التونسيين عن دينهم ويجفف منابع إسلامهم قد ولَّى مدبراً. ليدرك الجميع عجائب قدرة الحكيم العزيز.

واليوم يكفي أن تطلَّ على المساجد وترى أجواء شهر رمضان المبارك فيها لتدرك حجم النعمة والفضل الذي منَّ به الله على شعب تونس.

فالمساجد لم تعد تستوعب روَّادها الذين تدفقوا شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً، حتى أمست الشوارع المحيطة بها تغصُّ بالراكعين السجَّد، وسابقاً كان المرء لا يأمن على نفسه حتى إذا صلى داخل المسجد. ولا أبالغ إن قلت: إنه في الأعوام الماضية يعتبر ذهاب بعض الشباب الملتحي للمسجد مغامرة غير محسوبة العواقب؛ فأعوان الشر وأذنابهم بأزيائهم المدنية يتربصون بكلِّ من تبدو عليه علامات الإيمان والتقوى.

فهذا أيمن – وهو أحد هؤلاء الشباب – يقول: «كنت أضطر أحياناً لهجر المسجد اتقاءً لشر هؤلاء الفاسقين وهرباً من فحش كلامهم وقلَّة أدبهم؛ فما إن يدخل رمضان حتى تراهم يحومون حول المساجد، خاصة عند خروج المصلين من صلاة التراويح للتضييق عليهم وإرهابهم.

وبوقاحة وجهل يسألونني: لماذا تصلي ولا تجلس في المقاهي؟ ما زلت صغيراً عن الصلاة».

ثمَّ يضيف أيمن: «والله! لقد كنت أتسائل: هل نحن في دولة إسلامية؟».

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ فالمساجد في هذا الشهر الكريم تُغلَق أبوابُها مباشرة بعد كل صلاة، وكلُّ عمل بعد ذلك يعدُّ مخالفة للقانون تستوجب العقاب.

فمنظومة المخلوع بن علي التي ورثها عن سلفه بو رقيبة، والتي تقوم على محاربة الإسلام وتجفيف منابعه، أفرزت من ضمن ما أفرزت «قانون المساجد» سيئ الصيت، الذي

خلاصته كما قال أحد الشـــباب: «صلِّ وأرفع حذائك»؛ لا جلوس ولا كلام بعد الصلاة. والويل كلُّ الويل لمن ســـولت له نفسه مخالفة هذا القانـــون. حينها يكون له موعد مع قصَّة درامية تنتهي به في مراكز الأمن. وإن كان محظوظاً ولم تلفَّق له تهمة، يطلق ســـراحه ببعض الكدمات وكمٍّ هائل من الألفاظ البذيئة.

وبما أن هذا الشـــهر هو شهر الطاعات الذي يسارع الناس فيه إلى الخيرات، فإنَّ له تحضيراً خاصاً لا من عامة المسلمين فحسب، بل من السُّلطات أيضاً.

يقـــول إبراهيم (وهو أحد أئمة المســـاجد): «مـــا إن يُطلُّ علينا شـــهر رمضان حتى يأتي أعوان الأمر بالمنكر والنهي عن المعـــروف، ويحذروننا من إقامة الدروس، بـــل يفرضون علينا الدعاء لـ (إلههم) بـــن علـي. بصـراحة ما باليد حيلة، ننفِّذ ما يقولون اتقاء شـــرهم، وهو ما يضعف من عزائم الناس ويظنون بنا الظنون، وهو ما يضعنا بين ناريين».

كانت الســـلطات تتدخل في كل شيء وتفرض على الناس كيف يعبدون ربَّهم.

أمـــا الآن فالحال قد تغير، ولو يعلـــم الطاغية كيف عادت المســـاجد إلى أجوائها الربانية المشـــرقة طاعات وعلماً ونوراً، لانفطر قلبه كمداً وحسرة.

فبيوت الرحمن، أصبحت مفتوحـــة على مصراعيها، ليلاً ونهاراً لاســـتقبال كل مـــن يرجو رحمة الله ويســـعى لطاعته، والشـــيوخ والدعاة يتنقلون بين المساجد لشحذ العزائم وإعلاء الهمم وتعليم الناس أمور دينهم.

وحِلَـــق تحفيظ القرآن والـــدروس لا تـــكاد تغيب عن أيِّ مســـجد، بل هناك مساجد تقام فيها دورات علمية في مختلف علوم الدين: كالأصول والعقيدة وعلوم الآلة... وتمَّ فتح الكتاتيب الملحقة بالمساجد لتحفيظ الناشـــئة القرآن من صغرهم. وفي الوقت نفسه تنشط بعض الجمعيات الخيرية الإسلامية في توزيع الكتب الدينية في المســـاجد، وتشكلت لجان خاصة بالمساجد تقوم علـــى تنظيم برامج إقامة الـــدروس والمحاضرات وجمع التبرعات لموائد الإفطار، بالإضافة للاهتمام بشؤون المسجد.

وأصبح معظم الأئمة الخطباء من الشـــباب الملتحي الملتزم بعد أن كانت وزارة الشؤون الدينية في زمن المخلوع – تلك التي لم نكن نعـــرف لأي دين تدعو – تفرض أئمـــة يجهلون أحكام القرآن وأبســـط أمور الإســـلام ولكنَّهم يجيدون الدعاء والثناء على الرئيس وحرمه، وينســـبون لهما الفضل في كل مناســـبة، متناسين من بيده ملكوت السموات والأرض.

وفي العشر الأواخر من شهر رمضان كانت الحسرة تدمي قلوبنا ونحن نشاهد عبر الفضائيات شعائر الاعتكاف والتهجد وما يجتمع معها من عبادات وطاعات وتلاوة وذكر ودعاء، تقام في كلِّ بلاد أمتنا الإســـلامية ونحن تحرَّم علينا؛ لا لســـبب إلا أنهم يخافون تجمُّع المسلمين وتمسكَهم بدينهم.

يؤكد الشـــاب سامي أنه يُســـمَح لأهل البدع والضلال من الصوفيـــة والقبوريـــين بالتجمع والاعتـــكاف وإقامة أذكارهم وتوسلاتهم الشـــركية. ويمنع من يلتزم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ من القيام بشعائره.

ويضيف ســـامي: «تغيَّر الحال الآن ولله الحمد؛ فالمصلون والعباد يعمرون المساجد، لإحياء سنن الاعتكاف والتهجد، وعلى رأس هذه المســـاجد، جامع عقبة بن نافـــع بالقيروان، وجامع الزيتونة المعمور».

ولا مكان الآن للقبوريين لنشـــر خرافاتهم وســـمومهم بعد أن كانوا مدعومين من الســـلطات للبس الحق بالباطل وإفساد عقائد الناس.

وفـــي نهاية هذا الشـــهر المبارك كانت الســـلطات تفرض على أئمة المساجد الاحتفال بليلة السابع والعشرين على اعتبار أنَّها ليلة القـــدر. ويحطُّ بن علي في جامع الزيتونـــة المعمور بقلب العاصمة وســـط تصفيق وهتاف أنصاره الذين لا يتورعون عن إنشـــاد «طلع البدر علينا» وكأنَّ هذا الظالم هو النبي المختار القائم على أمر الله!

خلاصـــة المقال: كانـــت بيوت الله في رمضـــان في الأيام الغابرة تواجه حرباً شاملة، وقد وصل الأمر إلى إغلاق بعضها ومنـــع كثير من الأئمة من الصلاة بالناس. وأصبح ما بقي منها مفتوحاً، مرتعاً لأهل الأهواء والضلال ودعاة تقديس الرئيس.

إلا أنـــه لهذا الدين ربٌّ يحميه، والأيـــام دول، ودوام حالها من المحال؛ فالمســـاجد الآن مشـــرقة عامرة بالمصلين، مشرعة الأبواب لمريدي الأجر والتوبة. وما على الشعب التونسي إلا أن يدرك قيمة هذا النصر الرباني ويســـعى للحفاظ عليه وتوفير سبل استمراره. وهذا لن يكون إلا بتمسُّكه بوحدته وعدم التفرُّق واعتصامه بحبل الله وسنَّة رسوله ﷺ.

ولا بد مـــن التواصي بالحق والصبر، وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فبها يصلح المجتمع ويســـود الخير وينزل النصر ويُرفَع البلاء ويقام الشرع.

وليعلم هذا الشـــعب الكبير، أن الثـــورة لتوِّها بدأت ولا بدَّ من إكمال بقيَّة مشوارها الذي لن يكون مفروشاً بالورد فأعداء الثـــورة يتربصون بكـــم لإجهاض ثورتكم وســـلبكم نجاحاتكم؛ فالعمل العمل! والحذر الحذر! والثبات الثبات!

العراق وغزو من نوع جديد

د. أكرم المشهداني(*)

كان العراق إلى حد عام ٢٠٠٣ يوصف من بين الدول النظيفة من آفة المخدّرات زراعةً وإتجاراً وتناولا، أما بعد الإحتلال الأمريكي - الإيراني للعراق، فقد أصبحت المُخدّرات خطرًا حقيقيًا وواقعاً مؤلماً، بعد ان تمكن تجّار المخدرات المحميون من أوساط حكومية وحزبية ميليشياوية، من ادخال كميات كبيرة الى العراق وإغراق البلاد بانواع مختلفة منها، بمشاركة عصابات دولية تقوم على شبكات مُحكمة التنظيم، ومزودة بأمكانات كبيرة، الأمر الذي يُشكل تهديداً حقيقياً للأمن الإجتماعي، والأقتصادي، وتخريباً للبناء القيمي الذي تميّزَ به المجتمع العراقي على الدوام. كما تحوّل العراق إلى منطقة عبور للمخدرات القادمة من الشرق باتجاه المنطقة العربية وأوربا. حيث كشفت «المنظمة الدولية لمراقبة تهريب المخدرات» التابعة للأمم المتحدة في تقرير لها نشرته يوم ١١ مايو «أن العراق قد تحول إلى محطة ترانزيت لنقل الهيروين المُصنع من أفغانستان وإيران إلى أوروبا». وقال رئيس المنظمة «إن الهيروين والمخدرات المستخرجة من الأفيون المزروعة في أفغانستان وإيران تنقل عبر العراق إلى الأردن ودول الخليج حيث ترسل إلى الأسواق في أوروبا» وأضاف: «لقد أصبح هذا الوضع ممكناً بفعل الوضع الأمني الداخلي المتهرئ في العراق، حيث تنعدم المراقبة على الحدود، مما يُمكن المهربين من الدخول إليه بزيّ أو صفة زوّار عتبات مقدسة». وحَثَّ المجتمع الدولي والحكومة العراقية على العمل معاً قبل أن يترسخ طريق دولي لتهريب المخدرات عبر البلاد، مؤكداً أن مشكلة المخدرات يجب أن تحتل أولوية قصوى في برامج الحكومة العراقية.

(*) كاتب وأكاديمي عراقي.

يوم ٢٠١١/٦/٢٣ نشـرت جريـدة «الصباح» الحكومية العراقيـة تصريحا لرئيس لجنة المتابعة في مجلس محافظة واسـط (الكوت) جنوب بغداد قال فيه: «ان اللجنة رصدت ارتفاع حالات زراعة نباتي الخشـخاش والداتورا المُخدّرين في اماكن من المحافظة»، واوضح ان اللجنة رصدت وحددت اماكـن زراعة هذه المخدرات والمعامل التي يتم تصنيعها فيها والمتاجريـن بهـا، مطالبا الجهات المسـؤولة بمكافحة هذه الظاهرة «لما تشـكله من خطورة على حياة الشـباب كونها تعد آفة كبيرة تحتاج الى تكاتف جميع الجهود لاجل القضاء عليها نهائيا». كما وردت أنباء من مناطق في الفرات الأوسط أن بعض مزارعي الرز تحولوا إلى زراعة المخدرت كونها أكثر مردوداً!.

وزير الصحة العراقي من جانبه إعترف بوجود زيادة في ظاهرة الإدمان على المخدرات في العراق، وقال أنه «بالرغم من أن أجواء العراق غيـر ملائمة عموماً لزراعة المخدرات، إلا أن هنـاك زيادة في ظاهرة الإدمان من خلال المؤشـرات وملاحظات الأطباء العاملين في هذا المجال». وأضاف ألوزير أن «العراق محاط بسلسـلة من البلدان التي تنتج مخدرات الأفيون والخشـخاش والترياق والهيروين وغيرها، وبالتالي فان هذه المخدرات تنتقل عبر إيران إلى العراق، وما سـهل ذلك هو ضعف السـيطرة على الحدود بعد سقوط النظام». وأوضـح وزير الصحـة أن «العراق الآن يعتبـر من الأماكن المعرضة لخطر المخدرات بشـكل كبير بسبب وقوعه وسط الدول المنتجة والمسـتهلكة للمخـدرات»، مبينا أن «الإدمان فـي العراق يتركز حاليا في المناطق الحدودية المحاذية لدول الجوار». وأشـار إلى أنه «لا يوجد لحـد الآن أي إحصائية دقيقـة لعدد المدمنين في العراق» إلا أن «هناك تنسيقا بين وزارة الصحة ومكتب الأمم المتحدة لمكافحة المخـدرات من أجل إجـراء إحصائية دقيقة بهذا الشأن».

الأخبـار تؤكد أن المخـدرات صارت تدخل بكميات هائلة من جهة الشـرق بسبب إستغلال تجـار المخدرات لأفواج زوار العتبات المقدسـة لإدخال المخدرات الى العـراق، وباتت الحبوب المهلوسـة والأدويـة الممنوعة، تبـاع علنا على الأرصفـة في العديد من مـدن المراقد الدينية ويتداولها بعض الشباب، وصار معلوماً أن جهات معينة تعمل على تشـجيع إنتشـار المخدرات بين أبناء المجتمع العراقي، وبخاصة بين فئة الشـباب، وتوريطهم في الإدمان والمتاجرة، إستكمالا لأدوار مخطط التدمير الأخلاقي الإجتماعي الذي شجع عليه الفلتان الأمني الذي أوجده الإحتلال.

كما نشرت الصحف العراقية نقلا عن تصريحات لمصدر فـي وزارة الداخلية أنه قد صودرت كميـة من ٣٢٥ كلغ من (حشيشـة الكيف) مؤخرا في البصرة كانت أدخلت إليها عبر ايـران، وأقر المصدر بان كميات كبيـرة من المخدرات دخلت الي البلاد من ايران وتحدث عن تزايد اسـتهلاك المخدرات في صفوف الشـباب. واوضح ان اطرافا خارجية ضالعة في تهريب المخدرات لان لها -كما قال- مصلحة في الابقاء علي حالة الفوضي وعدم الاستقرار الامني في العراق.

أعضـاء بالهيئة الوطنية لمكافحة المخـدرات في العراق أكدوا قلقهم من تزايد أنشـطة عصابـات تهريب المخدرات داخل العـراق، مؤكدين أن «آفة المخدرات والمواد ذات التأثير النفسـي أصبحت عاملا آخر يضاف إلى طرق الموت العديدة التي تسـتهدف شريحة الشباب العراقي كل يوم وتنذر بتخلي البلـد عن موقعه ضمن قائمة الدول الفتية، ودماراً آخر يزيد من أعبـاء الحكومة». وقـال أحدهم في حديـث لصحيفة «الشرق الأوسط»، (إن ما خلفته الحرب من فوضى وانفلات أمني مريع، هيـأ فرصة ذهبيه لتجارة المخـدرات الداخلية والخارجية مستفيدة من كثرة العصابات والجماعات المسلحة لتنشط حركة مافيا المخدرات وتجعل العراق محطة ترانزيت نحو دول الخليج ودول إقليمية أخرى، إضافة إلى تكوين سوق حرة داخلية نجم عنها تحويل مشـكلة الإدمان من المسكرات

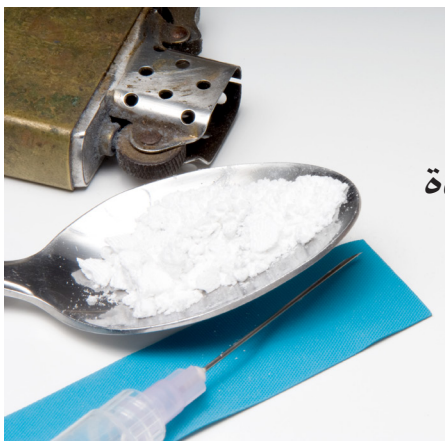

" وزير الصحة العراقـي من جانبه إعترف بوجود زيادة في ظاهرة الإدمـان على المخدرات في العـراق "

والعقاقير المهدئة إلى المخـــدرات، وهناك دلائل تم الحصول عليها عن طريق اســـتجواب عدد مـــن المتاجرين بالمخدرات بعـــد القبض عليهم في مناطق متفرقـــة من العراق، وهم من جنسيات مختلفة، تشـــير إلى تحول طريق الحرير القادم من شرق آسيا والمار عبر العراق، إلى طريق للمتاجرة بالمخدرات والســـلاح والآثار العراقية وتهريب النفط المســـروق، من قبل عصابـــات منظمة تخصصت في هذه الأعمال ولها ارتباطات واسعة مع العالم، بما في ذلك حكومات بعض الدول).

كما تزايـــدت أعداد المرضى المدمنين، فقد كشـــف أحد التقارير الصادرة عن مستشـــفى ابن رشـــد، الذي يُعدّ من أكبر مؤسســـات العلاج النفســـي في العراق، أنَّ حالات الإدمان زادت بنســـبة ٧٥٪. وأن الوضـــع العام للإدمان بات أكثر انتشـــارا من قبل، وأصبح منظر المراهقين والأطفال في الشـــوارع أكثر بشاعة، خاصة وهم يقومون بشم مواد مخدرة بدائية عالية السُميّة، مثل البنزين والثانر والسيكوتين وغيره، وبات بعضهم، وبإرشـــاد جانحين كبار، يتعلم كيفية صنع مواد أخرى غير مألوفة تعطي نفس الأثر.

ان انتشـــار الظاهـــرة الخطيرة في اغلـــب أحياء بغداد الفقيرة يقـــرع جرس الإنذار من خطر كبير يهدد مســـتقبل الشـــباب، ولابد من تحـــرك حكومي عاجل مـــن الوزارات والأجهـــزة الأمنيـــة المختصة لوضع حد لهـــذه الآفة المميتة، مشـــيراً إلى ان حجم المشـــكلة وخطورتها بات اكبر من قدرة منظمات المجتمع المدني وإمكانياتهـــا التي تعتمد على مبالغ ووسائل محدودة. لقد استفحلت ظاهرة تهريب المخدرات الى العراق عقب الاحتلال الأميركي عام ٢٠٠٣ حيث اشار تقرير صادر عن الهيئة الوطنية لمكافحة المخدرات إلى وجود ٧٠٠٠ مدمن مســـجل في عموم المحافظات عام ٢٠٠٤، وارتفع الى ٢٨ ألف مدمـــن في عام ٢٠٠٦ بحســـب تقرير مكتب الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة والمخدرات، وهو ذات التقرير الذي أكد ان العـــراق أصبح الممر الرئيس لتجـــارة المخدرات عبر العالم. والملفت للانتباه هنا ان تجار المخدرات عمدوا إلى بيع هذه السموم في البدء بأســـعار زهيدة لزيادة الإقبال عليها، حيث يقول احد اعضاء اللجنـــة الوطنية لمكافحة المخدرات: «ان الوجبة الأولى من المخدرات وزعت في بغداد مجاناً كنوع من الدعاية والترويج لها في حين اســـتقرت الأسعار الحالية على ٧٥٠ دينار، ثمن شريط الحبوب المهدئة الذي يحتوي على

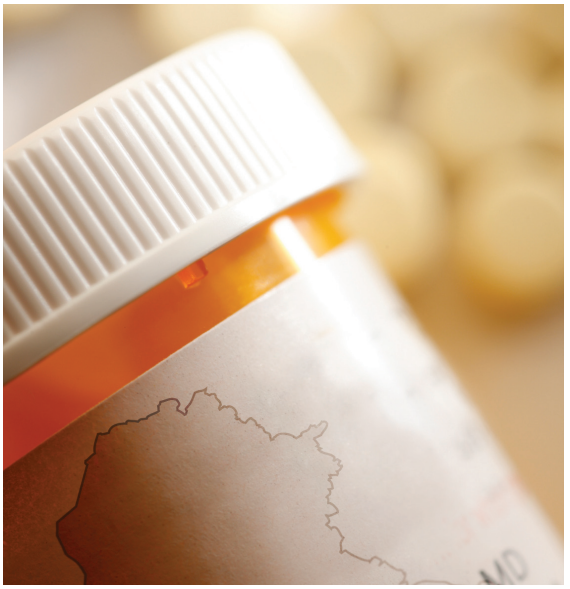

١٢ حبة تكفي الواحدة منها لإيهام متعاطيها بالراحة والخدر المؤقتين».ويرتفع الســـعر مع زيـــادة الجرعة واختلاف نوعها فثمن جرعة متوسطة تؤخذ عن طريق الحقن من الكوكايين او الهيروين يصل إلى ٣٠ ألف دينار في حين يكون ثمن الجرعة الأكبر من ذات المواد ٦٧ ألف دينار، أما مادة الحشيشـــة فيتم احتســـاب ثمنها بالغرام او تباع كسكائر بعد خلطها بالتبغ او توضع مع مادة المعسل المستخدمة في الاركيلة والتي تدخن في مقاهي خاصة او بالبيوت. ويمكن للمتعاطي ان يحصل على المواد المخدرة من مصدرها الرئيس في سوق الباب الشرقي او من تجار المفرد الذين ينتشـــرون في عدد من الأحياء الشعبية ويوزعون بضاعتهم بواسطة وكلاء لا يجلبون الانتباه وغالباً ما يكون هؤلاء من الأطفال او طلبة المدارس.

إن الازديـــاد الخطيـــر الحاصل في تعاطـــي المخدرات بأنواعها، والإتجار بها في العراق في ظل الإحتلال يعد واحدة من المخاطر الإجتماعية والصحية والأمنية التي تهدد مستقبل المجتمع العراقي، والمجتمعـــات العربية الأخرى، لأنه يبدو أن الهدف ليس فقط مجرد تحويل العراق إلى (معبر) للمخدرات الى عمـــوم المنطقة والعالم، وتخريب البنـــاء الإجتماعي من خلال إفســـاد الشباب، وإتلاف عقولهم وتحويلهم إلى مصدر للتخريب بدلا من أن يكونوا مصدرا للبناء والتطوير. ولايمكن بأية حال مـــن الأحوال أن ننفي مســـؤولية قوات الغزو ومن عاونها من ميليشـــيات طائفية عما حل بالعراق من مشـــاكل ونكبات ومنها نكبة إنتشار المخدرات.

مركز سطام للعسل

ثقة العميل هي رأس مالنا منذ سنوات

تختلف فوائد العسل حسب فوائد النباتات المحيطة بالنحل..

استفد من هذه الخاصية وابدأ باستعادة النظام الطبيعي لجسمك إلى سابق عهده

١- **عسل الربو:** يقوي مناعة الصدر ضد الحساسية والسعال والبلغم وضيق التنفس.

٢- **عسل القولون العصبي:** يفيد في المشاكل الباطنية والغازات والإمساك والأرق والعصبية وعسر الهضم.

٣- **عسل الصداع:** يفيد في علاج الصداع المزمن والشقيقة.

٤- **عسل المعدة:** للقرحة والحموضة وجرثومة المعدة وسوء الهضم.

٥- **عسل البروستاتا:** لإلتهاب البروستاتا وأعراضه كمشاكل البول وضعف الحيوانات المنوية وألم أسفل الظهر والضعف الجنسي.

٦- **عسل الكبد:** يساعد في تنظيم أنزيمات الكبد ويقوي مناعة الكبد ضد الفيروسات.

٧- **عسل الجيوب الأنفية:** لإلتهاب الجيوب الأنفية والرشح المزمن.

٨- **عسل التسمين:** لفتح الشهية وزيادة الوزن.

٩- **عسل الروماتيزم وآلام المفاصل والركب.**

١٠- **عسل لتنشيط الذاكرة.**

١١- **عسل الزلوع الخاص بكبار السن.**

جميع أنواع العسل في هذا الإعلان مضمونة مخبرياً وخالية من الخلطات المجهولة.

ملاحظة: ليس لدينا موزعين ومنتجاتنا متوفرة في مركزنا

الرياض - مخرج ١٥ - هاتف: ٤٩٣١٧٣٧

جوال: ٠٥٠٦٢٤٥٩٨٤

زوروا موقعنا على الانترنت
s-asal.blogspot.com
دوام المركز من الساعة 4 -10:30

إمكانية الإرسال لمناطق المملكة - رقم الحساب بمصرف الراجحي: ٤٤٩٦٠٨٠١٠٠٦٧٦٨٣

Samer 055 34 99660

مرصد الأخبار

جـــلال ســـعـــد الـــشـــايـــب
galal_elshayp@hotmail.com

تشومسكي: أميركا تنهار

قال المفكر الأميركي نعوم تشومســـكي في مقال نشـــره بموقع «تروث آوت دوت أورغ» إن مؤشرات انهيار أميركا بدأت منذ بلوغ أوج القوة بعد الحرب العالمية الثانية، وتلاها التفوق الملحوظ في المرحلة التي تلت حرب الخليج الثانية في التسعينيات؛ مع أن ذلك كان مجرد خداع للذات.

وقال: إن المشهد قادم لإرعاب حتى المنظمين؛ فالشركات التي وضعت المتشددين في مراكز القرار هي الآن قلقة من أنهم يُسقِطون الصرح الذي بنته، وتفقد امتيازاتها والدولةَ القوية التي تخدم مصالحها.

أما بالنسبة للمؤسسات المالية فإن أهم ما يشغلها هو العجز، وهو ما يتردد على الألسنة، وتؤيد نسبة كبيرة من السكان مواجهة العجز بفرض الضرائب على الأغنياء جداً، ووَفْقَ استطلاع أجرته كلٌّ من واشنطن بوست و (أي بي ســـي نيوز) فقد وافق على ذلك ٧٢٪ مقابل رفض ٢٧٪، بينما يعارض ٦٩٪ من الســـكان خفض دعم النظام الطبي ويعارض ٧٨٪ خفض دعم الرعاية الصحية.

وتحدث تشومســـكي عن اســـتطلاع آخر أجراه «برنامج التوجه السياســـي الدولي». وقال مدير البرنامج ســـتيفن كول: «إن الاســـتطلاع يكشف انقســـاماً عميقاً؛ فأكبر فرق في الإنفاق هو أن الجمهور يفضل إجراء تخفيضات كبيرة في الإنفاق العســـكري، في حين يميل البيت الأبيض ومجلس النواب إلى زيادات متواضعة. كمـــا يفضل الجمهور مزيداً مـــن الإنفاق في التدريب على العمل والتعليم ومراقبة التلوث أكثر مما فعل البيت الأبيض أو مجلس النواب».

وأضاف تشومســـكي: إن الحل الوسط «النهائي»، أو بعبارة أدق: الاستسلام لليمين المتطرف بات من شبه المؤكد أن يؤدي إلى تباطؤ النمو وتضرر الجميع على المدى الطويل باستثناء الأغنياء والشركات وهما الطرفان اللذان حققا أرباحاً قياسية.

وقال: إن الكونغرس يملك أســـلحة أخرى في معركته ضد أجيال المســـتقبل، فبســـبب مواجهة المعارضة الجمهورية لحماية البيئة أهملت أميركان إيلكتريك باور (وهي شركة طاقة كبيرة) جهوداً وطنية بارزة لالتقاط غاز ثاني أكســـيد الكربون من مصنع للطاقة العاملة بالفحم، وهو ما وجه ضربة لجهود كبح جماح الانبعاثات المسؤولة عن ظاهرة الاحتباس الحراري وَفْقَ ما ذكرت صحيفة نيويورك تايمز.

وقال تشومســـكي إن هذه الإجراءات منهية لما كان يسمى «العصر الذهبي» لرأسمالية الدولة. وأوضح أن تركيز الثروة أنتج قوة سياسية أكبر، وهو ما سرَّع دائرة مغلقة جهنمية قادت إلى تجمُّع كمية كبيرة من الثروة بيد ١٪ من السكان، وهم - أساساً - المديرون التنفيذيون لكبار الشركات.

ومن جهة أخرى تضخمت تكاليف انتخاب الحزبين بشكل فلكي وهو ما وضعهما في جيوب الشركات. أما ما بقي من الديمقراطية السياسية فقد قوضه لجوء الطرفين إلى بيع المناصب القيادية بالمزاد في الكونغرس، كما يقول توماس فيرغيسون في فايننشال تايمز.

[الجزيرة نت ٢٠١١/٠٨/٨م]

وفد إسرائيلي على متن الرحلة الأولى بين إسرائيل وجوبا!

رافق وفد من الكنيست الإسرائيلي الرحلة الجوية الأولى بين إسرائيل وجوبا؛ وذلك لإعادة مئات من اللاجئين السودانيين الذين حصلوا على تذكرة سفر باتجاه واحد إلى هناك.

وكانت قد عُرِضَت هذه المبادرة الجديدة خلال الأسبوع الجاري في الكنيست أمام رئيس ما يسمى بـ «لجنة الاستيعاب والشتات» برئاسة عضو الكنيست دان يدانون «الليكود» وعُلِم أن منظمة تُدعَى «بليس يو» تعمل في جنوب السودان، قد اتفقت مع السلطات المحلية هناك على تمويل عودة اللاجئين السودانيين. كما عُلِم أن المنظمة ستعرض على اللاجئين تذكرة سفر ومبلغاً قدره «٥٠٠» دولار، ومساعدتهم في إيجاد عمل لهم في جنوب السودان.

وتوجه ممثلو المنظمة إلى دانون وطلبوا منه أن تعمل لجنة الكنيست التي يترأسها، على توفير تمويل حكومي إضافي للمشروع.

وفي السياق ذاته كشفت صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية أن رجال الأعمال اليهود بدؤوا بالفعل عملهم بجنوب السودان لإقامة تعاون اقتصادي متين بين الدولة الإسرائيلية ودولة الجنوب في مجالات مختلفة، منها: الطب والأمن والبنية التحتية والزراعة.

ومن الجدير بالذكر أن «إسرائيل» تُعَد من أول الدول التي اعترفت بدولة الجنوب، أملاً منها في الارتباط بشكل وثيق معه في المستقبل (وهو ما كان).

[موقع القدس العربي ٢٣/٧/٢٠١١م]

دعوى تكشف عن مكتب للموساد بالأردن!

أظهرت دعوى قضائية رفعتها موظفة أردنية تعمل في السفارة الإسرائيلية بعمان ضد السفير الإسرائيلي وموظفين آخرين عن وجود مكتب لجهاز الاستخبارات الإسرائيلي (الموساد) داخل مبنى السفارة.

وقد تبيَّن في لائحة الدعوى التي نشرتها صحيفة الغد الأردنية أن الموظفة التي تعمل لدى السفارة بوظيفة إدارية منذ عام ١٩٩٩م اتهمت السفارة باحتجاز حريتها والتهديد بخطفها وإيذائها؛ وذلك في إطار تحقيقات تتعلق باختلاسات مالية موجهة لموظفة إسرائيلية سابقة هناك.

وقد نقلها حرس السفارة إلى الطابق الرابع في مبنى السفارة، وهذا الطابق «محظور» دخوله بصورة مطلقة وصارمة على كافة الموظفين العرب والإسرائيليين؛ لأنه مخصص فقط لعمل رجال جهاز الاستخبارات الإسرائيلي (الموساد)، ثم بدؤوا بصورة مخالفة للقانون ولمبادئ حقوق الإنسان، بالتحقيق معها وتهديدها بخطفها خارج الأردن إلى مركز الموساد في إسرائيل».

[موقع الجزيرة ٧/٨/٢٠١١م]

مقر سري لـ (CIA) بمقديشو

كشفت تقارير صحفية، أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) قامت مؤخراً بإنشاء مقرٍّ سريٍّ لها في العاصمة الصومالية مقديشو، في إطار أنشطتها لمكافحة ما يسمى بـ «الإرهاب».

وقد وذكرت مجلة «ذا نايشن» الأمريكية أن وكالة الاستخبارات تدير مجمعاً مترامي الأطراف محاطاً بجدران حماية صلبة، يوجد به مطار خاص، كما يضم سجناً سرياً، يقع أسفل مقر الاستخبارات الصومالية، ضمن مشروع موسَّع لمكافحة «الإرهاب» في المنطقة.

ومن الجدير بالذكر أن أمريكا تنظر إلى حركة «الشباب» التي تعتبر من أقوى التنظيمات الإسلامية المعارضة في الصومال على أنها حليف قوي لتنظيم «القاعدة»، وتسيطر الحركة على أجزاء واسعة من جنوبي الصومال، كما كانت حاضرة عسكرياً حتى أسابيع مضت في أحياء من العاصمة نفسها، وتخوض الحركة معارك مستمرة مع الحكومة الصومالية والقوات الإفريقية التي تدعمها.

[موقع مفكرة الإسلام ٢١/٧/٢٠١١م]

الموسوعة السياسية

ليبرالية (تحررية):

هي مذهب أو حركة وعي اجتماعي سياسي داخل المجتمع، تهدف لتحرير الإنسان (فرداً وجماعةً) من القيود السلطوية الثلاثة (السياسية، والاقتصادية، والثقافية)، وقد تتحرك وَفْقَ أخلاق وقيم المجتمع الذي يتبناها، وتتكيف الليبرالية حسب ظروف كل مجتمع؛ إذ تختلف من مجتمع إلى مجتمع.

وهي مذهب سياسي واقتصادي معاً؛ ففي السياسة تعني تلك الفلسفةَ التي تقوم على استقلال الفرد والتزام الحريات الشخصية وحماية الحريات السياسية والمدنية.

وبخصوص العلاقة بين الليبرالية والأخلاق، أو الليبرالية والدين، فإن الليبرالية لا تأبه لسلوك الفرد طالما أنه لم يخرج عن دائرته الخاصة من الحقوق والحريات، ولكنها صارمة خارج ذلك الإطار.

أن تكون متفسِّخاً أخلاقياً! فهذا شأنك. ولكن أن تؤذي بتفسُّخك الأخلاقي الآخرين، فذاك لا يعود شأنَك. وأن تكون متديناً أو ملحداً فهذا شأنك أيضاً.

وتعني الليبرالية إنشاء حكومة برلمانية يكون فيها حق التمثيل السياسي لجميع المواطنين، وكذلك حرية الكلمة والعبادة، وإلغاء الامتيازات الطبقية، وحرية التجارة الخارجية، وعدم تدخُّل الدولة في شؤون الاقتصاد إلا إذا كان هذا التدخل يؤمِّن الحد الأدنى من الحرية الاقتصادية لجميع المواطنين.

(وقد افتُتن مقلدو الغرب لدينا بهذه الفكرة الجاهلية التي تُعارِض أحكام الإسلام في كثير مما نادت به؛ وعلى رأسه: حرية الكفر والضلال والجهر به، والمساواة بين ما فرَّق الله بينه... إلى آخر تلك الانحرافات).

[مصادر]

مرصد الأرقام

أظهر استطلاع للرأي أن المسلمين الأمريكيين هم أكثر من يعارض مهاجمة المدنيين؛ سواء من قِبَل الجيش أو المجموعات المسلحة. فقد كشفت نتائج استطلاع معهد غالوب في «أبو ظبي» أن ٧٨٪ من المسلمين رفضوا تبرير قتل الجيش للمدنيين، غير أن غالبية المسيحيين واليهود قالوا: إنه أمر يمكن تبريره أحياناً.

وجاءت النتائج بتقرير أصدره مركز غالوب في (أبو ظبي) تحت عنوان «المسلمون الأمريكيون... الدين والحرية والمستقبل» بناء على مسوحات أجراها المركز في عام ٢٠١٠م.

وقالت الغالبية من جميع المجموعات الدينية بالولايات المتحدة: إن قتل فرد أو مجموعة أفراد لمدنيين لا يمكن تبريره أبداً، غير أن المسلمين سجَّلوا نسبة الرفض الأعلى التي بلغت ٨٩٪.

[صحيفة الـ «bbc» ٢٠١١/٨/٤م]

أوضح التقرير الشهري الصادر عن البنك المركزي تراجع إجمالي صادرات مصر خلال الربع الثالث من العام المالي ٢٠١٠ - ٢٠١١م بنحو ٤,٩٪؛ أي ما يعادل ٣٢٢,٥ مليون دولار، ليبلغ نحو ٦,٢٤٣ مليار دولار مقابل ٦,٥٦٥ مليار دولار حققها في الربع الثاني، وارتفع مقارنة بالربع الثالث من ٢٠٠٩ - ٢٠١٠م، الذي بلغ ٥,٤٥٠ مليار دولار.

[جريدة الشروق المصرية ٢٠١١/٧/٢٨م]

أكدت منظمة دولية أن أكثر من ١٦٠٠ سوري قد لقوا مصرَعهم منذ بدء الاحتجاجات المناهضة للنظام في سورية، فضلاً

عن ٣ آلاف مفقود بحسب منظمة العمل السياسي الدولية «أفاز دوت أورغ»؛ وذلك منذ بداية الأحداث في سورية في منتصف شهر مارس الماضي.

[موقع CNN العربي ٢٠١١/٨/٨م]

أظهرت آخر التقارير الاقتصادية أن شركة «آبل» الأمريكية لديها سيولة مالية أكثر من الحكومة الأمريكية ذاتها التي تعاني من مسألة زيادة سقف الدين العام وخفض العجز في ميزانيتها.

فلقد ذكرت وزارة الخزانة الأمريكية أن حجم السيولة المالية للحكومة الأمريكية يصل حالياً إلى نحو ٧٣,٧ مليار دولار. بينما بيَّنت آخر التقارير المالية «لآبل» أن لديها احتياطياً يصل إلى ٧٦,٤ مليار دولار.

ويشهد مجلس النواب الأمريكي خلافات بين قيادات الحزبين (الجمهوري والديمقراطي) حول رفع سقف الدَّين العام. وأشارت آخر التقديرات إلى أن الحكومة الأمريكية تنفق شهرياً ٢٠٠ مليار دولار أكثر من إيراداتها.

[موقع روسيا اليوم ٢٠١١/٧/٣٠م]

كشف تقرير صادر عن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، أن نسبة المستوطنين في الضفة الغربية، ارتفعت مع نهاية عام ٢٠١٠م بمقدار ١,٤٪ مقارنة بنهاية عام ٢٠٠٩م.

وأكد التقرير أن عدد المستوطنين في الضفة في نهاية عام ٢٠١٠م بلغ ٥١٨,٩٧٤ مستوطناً، مقارنة بـ ٥١١,٧٣٩ مستوطناً في نهاية عام ٢٠٠٩م.

[المركز الفلسطيني للإعلام ٢٠١١/٨/٣م]

أكدت قوات (إيساف) التي يقودها حلف شمال الأطلسي (ناتو) نبأ تحطُّم إحدى المروحيات في أفغانستان، وهو الحادث الذي أسفر عن مصرع ٣١ جندياً أميركياً من قوات العمليات الخاصة وسبعة جنود أفغان.

ويُعَد سقوط هذا العدد من القتلى أفدح خسارة بشرية في حادث واحد يُمنَى بها التحالف الدولي الذي يقاتل حركة طالبان منذ نهاية عام ٢٠٠١م.

وبحادث تحطُّم المروحية في ميدان وردك يرتفع عدد الذين قُتلوا من القوات الأجنبية بأفغانستان هذا العام وحده حتى الآن إلى ما لا يقل عن ٣٧٤ جندياً، أكثر من ثلثيهم من الأميركيين طبقاً لوكالة رويترز للأنباء.

[الجزيرة (نقلاً عن رويترز) ٢٠١١/٨/٦م]

زرع عمال فلسطينيون أمس، أعلام ١٢٢ دولة أعلنت اعترافها بالدولة الفلسطينيَّة قبيل توجُّه القيادة الفلسطينية إلى الأمم المتحدة في سبتمبر المقبل للمطالبة بانضمام دولة فلسطين إليها.

وغرس العمال هذه الأعلام في ساحة محاذية تماماً لمقر الرئاسة الفلسطينيَّة ولضريح الرئيس الفلسطيني الراحل (ياسر عرفات)، وسيشارك نحو ٣٠٠٠ طفل بعد بضعة أيام في مهرجان ختامي لمخيمات صيفية، يتضمن الاحتفالَ بالدول التي اعترفت بالدولة الفلسطينيَّة.

وقالت ميسون حجة (إحدى المسؤولات عن اللجنة الوطنيَّة للمخيمات الصيفية التي تقف وراء الفكرة): إن ١٢٠٠ طفل فلسطيني سيشاركون في رسم علم فلسطين في الساحة المحاطة بأعلام الدول، البالغة مساحتها نحو ألف متر مربع.

ويذكَر أن الرئيس الفلسطيني [المنتهية ولايته] محمود عباس أعلن مراراً تمسُّك الفلسطينيين بالتوجه إلى الأمم المتحدة للحصول على اعتراف بدولة فلسطينيَّة ضمن حدود عام ١٩٦٧م.

وكانت السلطة الفلسطينية قد أكدت أمس دعمها الكامل للاحتجاجات الشعبية الفلسطينية ضد إسرائيل خلال المرحلة المقبلة، على أن تقتصر على النشاطات السلمية وتتحصن من الفوضى.

وقال الناطق باسم المؤسسة الأمنيَّة اللواء عدنان ضميري في بيان صحفي: إن القيادة الفلسطينية «تقف بجانب المقاومة الشعبية السلمية للاحتلال والمحصنة من الفوضى والانفلات أو الانزلاق إلى مصائد العنف الدموي الإسرائيلي».

[موقع الإسلام اليوم ٢٠١١/٨/٨م]

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

الأقلية المسلمة في توجو

جمهورية توجو: هي أصغر دولة في غرب إفريقيا يحدها من الشرق (بنين)، ومن الغرب (غانا)، ومن الشمال (بوركينا فاسو)، ومن الجنوب (المحيط الأطلنطي).

عدد السكان: ٦ ستة مليون نسمة (طبقاً لتقديرات عام ٢٠٠٩م).

الجماعات الإثنية: الإيوي في الجنوب (٢١ ٪)، والمينا والكوبيي في الشمال (١٢ ٪)، الكوتولي والموبا (٦٧ ٪).

الأديان: النصارى (٤٧ ٪)، ديانات تقليدية (٣٣ ٪)، مسلمون (٧، ١٣ ٪)، ديانات أخرى (١، ٦٪).

اللغات: الفرنسية هي اللغة الرسمية وهناك الإنجليزية ولغات محلية أهمها الإيوي والمينا في الجنوب والكوبي في الشمال.

تتنوع في توجو الطوائف الدينية حيث تشمل المسلمين والكاثوليك والبروتستانت، ويحتكم الناس لدستور مصدره الديانات الموجودة.

تنتشر النصرانية التي أدخلها الاستعمار الألماني عام ١٨٨٤م لدى قبائل الجنوب، بينما ينتشر المسلمون في الشمال امتداداً للمملكة الإسلامية التي ضمت دولاً إفريقية أخرى، ولم تصل الدعوة للجنوب بسبب وعورة المنطقة فاستغل المبشرون بأساليبهم المعهودة الفرصة جيداً بمساعدة الاستعمار.

تنتشر هناك مدارس إسلامية أنشأها الأزهر الشريف عام ١٩٦٤م ، وأولها كان في لومي وسكودي وبالمي. ثم انتشرت في أنحاء البلاد برعاية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. وينتشر في مختلف البلاد دعاة قدِموا من بلدان إسلامية مختلفة يساهموا في انتشار الإسلام هناك، كما يوجد في لومي العاصمة مركز إسلامي كبير يضم المعهد المتوسط، والمعهد الثانوي، والمسجد الكبير، وقاعة كبرى للمحاضرات، ومستوصفاً للعلاج المجاني. ويقوم المركز بتقديم الخدمات التعليمية والثقافية والدعوية والاجتماعية.

نسبة التعليم في البلاد هي ٦٢,٥٪ من مجموع الأطفال بين ٦ – ١٤ سنة، وتصل هذه النسبة في مناطق النصارى إلى ٦٩,٥٪، بينما تصل في مناطق المسلمين إلى ٥٤٪؛ وذلك لأن الاستعمار الألماني والفرنسي فرض التبشير على المعاهد العلمية وهو ما أدي إلى رفض الأهالي إرسال أبنائهم إليها.

التحديات التي تواجه الدعوة الإسلامية نوعان: نوع من خارج الجسد الإسلامي، ونوع من داخل الجسد الإسلامي نفسه.

أما التحديات الآتية من خارج الجسد الإسلامي فتشمل التبشير النصراني الذي تسانده الكنائس العالمية الغنية، وتشمل أيضاً الماسونية والليونز والروتاري؛ وهي منظمات دولية تنتشر بخبث ودهاء وسط الطبقات الراقية ومراكز صناعة القرار، وهناك أيضاً البهائية والقاديانية التي تدَّعي الإسلام في الظاهر بينما باطنها يدعو إلى التحلل من أحكام الشرع.

وأما التحديات النابعة من داخل الجسد الإسلامي فتتركز على فرق التيجانية التي تنشر معتقداتها بين المسلمين البسطاء الذين ليس لديهم وعي وثقافة إسلامية، ويوجد مقرهم الرئيسي إضافة إلى مدينة سكودي ومدينة بافيلو وقرى إسلامية أخرى.

ومن أهم المساجد في توجو مسجد «لومي» في العاصمة و «مسجد الهوسا» و «مسجد اليوربا أناجو» و «مسجد اليوربا الوطني»، وقد مضى على بناء هذه المساجد أكثر من قرن أي أنها من المساجد الأثرية أما المساجد الأخرى المنتشرة في المدن فهي: «مسجد سوكودي» في الشمال، و «مسجد بالمي» في الجنوب.

المراجع والمصادر:

• د محمد عاشور مهدي، دليل الدول الإفريقية، معهد البحوث الإفريقية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٤٠٩.

• Fact book

اعتراف

عبد الصمد الإدريسي

سوف أقول كل شيء يا سيدي!

لا تتزعـــج، ولا تغضب، فلم أتعود الكذب من قبل. كل ما حفظته عن والدي – رحمه الله – منذ صغري أن من لم يفعل شـــيئاً يســـتحق عليه العقاب فلا خوف عليه. لذلك سأصارحك منذ البدء بأن كلَّ ما سـأقوله لك هـو عين الحقيقة، تلك الحقيقة التي لم أزل ألهث لاكتشـــاف أمرها في قضيتي أنا بالذات.

لا تلوِّح بيدك يا سيدي! سأقول كل شيء.

لكنني تعبت من الجلوس على هذا الكرسي البارد جداً

اعذرني على ارتجافي وارتعادي؛ فلم يسبق لي أن جلست على كرسي التحقيق؛ لذلك اعتبرْ كلَّ ما أقولـــه حقيقة تنقصها الجرأة؛ تلك الجرأة التي ندمت على أنني لـــم أتعلمها قبل أن يداهم بيتنا رجالُك المخلصون، أبقاهم الله لك ســـنداً وعوناً. فلم تكن لي مغامرات مع شـــباب الشوارع والأزقة أو في الحانات والبارات، لم أتلقَّ هذه الدروس في مرحلة الطيش التي لم أعشـــها مطلقاً حتى في أكثر أفعالي إجراماً. أتذكر يوم ســـرقنا التفاح من ضيعة (الحاج عيسى)، لم أكن أنا المبادر. كل ما شاركت به أنني لما رأيت الأولاد هربوا، لم آلو على شـــيء، كنت أسرعهم ركضاً حتى تهت عن الطريق الذي سلكوه، ولم أعلم أي زقاق ابتلعهم.

هكذا أنا بين يديك تنقصني الجرأة، الجرأة فقط؛ ربما لأكتشـــف ما الذي ارتكبته وأقر بما يتهمونني به.

لا تزم شفتيك يا سيدي! قد تنفجران دماً أنت في غنى عنه. لشدَّ ما أكره رؤية الدم، حين ضربني أحد رجالك على فمي ففاض دماً سامحته؛ كرهاً لرؤية دم أخر على وجـــه والدتي أو أخي الصغير الذي بكى حينها بكاء مريراً.

لشـــدَّ ما أمقت اللون الأحمر في كل شـــيء إلا في ســـجاد المسجد الأحمر. آهٍ... نســـيت أن أقول: إنني طوال مدَّة ارتيادي للمسجد لم أقم بـــأي تصرُّف مشـــبوه، ليس لأني كنت أعلم أن مقـــدم الحي مدمن على متابعتنا؛ ولكـــن لأنني هكذا! تقول لي: لماذا؟ هكـــذا أنا، هل تريدني أن أعترف بما لم أفعل؟ هذه حالتي فقط، وَلْتسأل مقدم الحي عن سلوكي. بل عن سلوكنا جميعاً نحن الأربعة: (عادل) و (رضوان) و (حسن) و (أنا).

لا، لا تكتب أســـماءهم، بالله عليك لا تكتبها؛ فهم بريئون أكثر مني، يكفي أن واحداً منا اعتُقِل، هم أطهر في علانيتهم وأنصع في سرهم من هذه الورقة البيضاء التي لم تكتب فيها شيئاً لحد الساعة يدينني.

المعذرة... لا تزعج!

لكني أريد أن أعرف لماذا أنا هنا؟

ثق بأن كل ما قيل عنا إنما هو هراء وكذب وتلفيق.

نعم! حفظتُ القران في المسجد فقط، وحتى دار القران التي أُغلقَت قبل اعتقالي بأيام لم ألتحق بها إلا قبل شهرين. لم أدرس كثيراً من العلم. ولذلك ربما أنا أجهل كثيراً من الحقائق.

وشيخنَا الذي كان... آهٍ، هل بإمكاني أن أسألك عن شيخي: أين هو الآن؟ ســـمعت أنه ذهب وراء الشـــمس تلك الليلة كانت ليلة بدون نجوم، هبـــت الرياح فيها بعنـــف، وزحفت الثعابـــين ولا أدري من أين خرجت! أتأســـف على أنني لم أدخل المدرســـة، ولم أدرس الجغرافيا لأعرف أين تقع (ما وراء الشمس)؟

نعم، نعم، أنت الذي تسأل وأنا أجيب فقط.

لا تنزعج سأقول كل شـــيء، أنا وعدتك أنني لن أكذب. أعرف أنك تكره الكذب، ولكن رجالك يكذبون. لقد قالوا حين أخذوني: إنني عنصر خطيـــر. ها أنت ترى، لقد كذبـــوا على أمي. لكني لم أَثُر في وجوههم أو أشتمهم؛ لأنني أكره لون الدماء.

أنا لا أكذب، لقد قلت كل شيء، ماذا بقي؟

آهٍ كنا نفطر شـــاياً وخبزاً وزيتاً كلَّ يـــوم تقريباً، إلا يوم الجمعة كان يوم عطلة فكنا نشـــرب القهوة والحليب قبـــل أن نتجهز لصلاة الجمعة. كنا نذهب بعيداً لنصلي وراء شـــيخنا. من سينوب عنه في هذه الخطبة المقبلة؟ ربما لن يخطب أحد؛ فليس هناك من يمكن أن يعوضه. والجميع يشـــهد بذلك؛ ولذلك يغص المســـجد حتى تتوقف حركة المرور بالشوارع المحيطة به.

أنـــا أذكرك فقط فمن المســـتحيل ألا تكون صليـــت وراءه يوماً. إنه محبـــوب عند الجميع، ويقول الحـــق. قلت لي قبل قليل: إنك تحب الحق والحقيقة، فقد كان يُبكي الناسَ وراءه في خشوع.

لكن هل يمكن أن تكون صلاة الجمعة بدون خطبة؟ لم أســـأله هذا الســـؤال من قبل! إننـــي لا أتناقض. لقد قلت لك: إننـــي جديد في دار القران.

ادع لي يا سيدي أن أتعلم ما أجهل، فـ (اثنان لا يتعلمان: صاحب الحياء، والمتكبـــر) أريد أن أكون عالماً. حين ختمت القران بكى والدي – رحمه الله – وقال: هذا يوم عرسي، أريد أن يكون لي عرس ثانٍ كما تمنى والدي أن يراني عالماً كبيراً. رحمه الله، لن يراني كذلك أبداً؛ لقد طواه الموت، ووالدتي أعدَّت لنا حينها ما لذ وطاب وقالت: هذا هو (الباروك).

آهٍ أيـــن تكون أمي الآن؟ لم أتصل بها منـــذ دخلت هذا المكان، حين أخذوني احتضنتْ أخي الأصغر وبكت، وهو أيضاً بكى، لقد ذكَّرني بكاؤه بيوم عرسي الذي حكيت عنه. قال: إنه يريد أيضاً أن يختم القران، ويقام له (الباروك) ، ويلبس الجلباب والبلغة والطربوش الأحمر... سيفعل مثلي تماماً، لكن هل ســـتأخذونه كما أخذتموني؟ لا بـــد أن أعلمه وأنبِّهه إلى هذا الأمـــر؛ لقد تعلمت الدرس، لكني لا أعـــرف بالضبط لماذا أنا هنا؟ لقد قلت كل شـــيء، ثق بي ســـأعلمه كل شيء. ولن يتلعثم أمامك كما أنا الآن، لن يتلعثم.

قراءة صهيونية لواقع الأحداث في سورية

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

وصفت أوساط صهيونية مطلعة ما يحدث في سورية اليوم بأنه «نهايةٌ عمليةٌ» لحكم الرئيس السوري بشار الأسد، وربما يستغرق الأمر أسابيع أو شهوراً لكن السؤال الأهم هو: كم جثة ستوجد في الطريق؟ زاعمة أنّه يحاول تصدير أزمته الداخلية إلى «إسرائيل» لصرف الأنظار عن الأعمال التي يقوم بها ضد المتظاهرين، وأن المشاهد والأصوات التي تصل من سورية تشير إلى أن الطرفين، وصلا مرحلة يشعران فيها بنفاد كل السبل، ولن يتنازلا عن مطالبهما مهما كان الثمن.

وأضافت هذه الأوساط: أن الشعب السوري لم يعد يخاف الخروج للشوارع بجموعه، وبالمقابل فقدت السلطة الردع تجاه إطلاق النار الكثيف نحو صفوف الجماهير، وكلما تقلصت دائرة المؤيدين للأسد، يزداد إحساس الحصار لديهم، وخيبة أملهم، وسيبدون مستعدين للقتال حتى «السوري» الأخير، مقترحة قيام طائرات صهيونية بإنزال الأدوية بمظلات من طائرات صغيرة بدون طيار فوق مدن سورية، باعتباره «استثماراً جيد جداً للمستقبل».

مثلث الأسباب:

قال الكاتب الصهيوني «هافيل أمايـن»: إن النظر إلى ما وراء الأحداث السورية يعطي صورة أوضح لصانع القرار في تل أبيب لفهم حقيقة ما يجري بالإشارة إلى عدة نَوَاحٍ داخلية وخارجية:

١ - **الأوضاع السياسية:** العلاقات السورية مع الدول الإقليمية والمجتمع الدولي - تقريباً - سيِّئة، وفي أحسن الأحوال فاترة، إن لم تكن باردة.

٢ - **الظروف الاقتصادية:** في ظل غياب الاقتصاد الرسمي ظهر «الاقتصاد المخفي»، الذي يشكِّل ٣٠ ٪ من الناتج القومي، وبلغ عدد المهرِّبين ممن يديرون الآلة الاقتصادية ٥٠ ألفاً.

٣ - **الأبعاد الاجتماعية:** بسبب تعثُّر الاقتصاد، وغياب السياسة الداخلية - التي لم يكن الأسد مولعاً بها - صار الفساد سمة بارزة في المجتمع، وكانت نتائجه خطيرة على كل المستويات؛ فالنظام القضائي لفظ أنفاسه الأخيرة، وتدنَّى قَدْره، وصار فاسداً وعاجزاً، بسبب سيطرة الأجهزة الأمنية والمحاكم الخاصة التي لا أرضية دستورية لها، والنظام التربوي تدهور بحيث باتت الجامعات السورية بلا قيمة علمية، والعلاقة بين العاصمة دمشق وباقي المدن باتت تُقاس بـ «السرعة الضوئية»؛ فانتشر الفقر والبطالة، بينما بقيت العاصمة منتجعاً للفاسدين الكبار وأصحاب القرار النهائي في الدولة والمجتمع؛ ما عدا مدينة حلب بسبب تنافسها التاريخي مع دمشق، وهيمنة النخبة التجارية السنيَّة والأرمنية فيها، كما دخل الريف في غياهب النسيان؛ رغم مزاعم السلطة أنها جاءت من أجل الفلاحين، وزجَّت كثيراً منهم على مقاعد البرلمان.

(*) كاتب فلسطيني.

الدولة الأمنية:

في المقابل، فإن سورية كانت قبيل اندلاع الأحداث الأخيرة «دولة متوترة ومجتمعاً غاضباً حتى النخاع وفي الوقت نفسه خائفاً محاطاً بالفزع»؛ حيث هدمت أركان الدولة والمجتمع، وتم إرساء ٣ دعائم تزيد من انكسار الدولة مستقبلاً، وتقويض أعمدة المجتمع:

الأُولَى: مجموعة من الأجهزة الأمنية أصبحت مراكز قوى تؤثر ظاهراً وباطناً على كل مفاصل الدولة والمجتمع، أهمها المخابرات العامة والمخابرات العسكرية والأمن السياسي والمخابرات الجوية.

الثانية: محاكم تعسفية غير مؤسَّسة دستورياً كالمحكمة العليا لأمن الدولة ومحكمة الأمن الاقتصادي، وتحولت المحكمة الدستورية العليا «وحشاً بلا أنياب» لمحاسبة المتلاعبين بالدستور والمعتدين عليه.

الثالثة: الجيش العقائدي التابع لحزب البعث، والمسيطَر عليه من قِبَل الأسد والضباط المقربين منه.

وينوِّه إلى ملاحظة غاية في الأهمية تخص أداء الدولة السورية في مواجهة الأحداث، وتتعلق بأن بشار الأسد الذي أعلن أكثر من مرة عن الحاجة للتغيير، واجه معارضة قاسية مما يوصفون بـ «الحرس القديم»؛ فكان كلٌّ منهما يحاول أن يسيطر.

شيء واحد غاب عن بشار (أو غيَّبه)، وهو: أن تلك العصبة المسيطرة على الثوابت الثلاثة الراسخة هي التي جاءت به للسلطة لاستمرار النظام الذي أراده والده، وغيَّرت الدستور، كَوْنَ الرئيس يجب أن يكون عمره ٤٠ عاماً في حين أن عمره لم يتجاوز ٣٤ عاماً وقتَ موتِ والده... هذان النقيضان بدءا يخوضان صراعاً ساكناً، لكن ناره تحتد وتشتد شيئاً فشيئاً.

ومع ذلك، فقد كان بشار في البداية عازماً على القيام بالإصلاح السياسي والاقتصادي معاً، لكن ضغط المتشددين البعثيين جعله يركز على الأمر الثاني فقط؛ بحيث أراد «وضع الخبز قبل الحرية»، وأن الديمقراطية وحقوق الإنسان عليهما أن تنتظرا دَورَهما، وأقصى ما توصَّل إليه هو خفض سعر تكلفة البناء أو المازوت، وهذه إجراءات تكون في أية دولة بلغت الديمقراطية وليست آليات لتحقيق الديمقراطية في بلد تعاني من الحكم الدكتاتوري المطلق، ويطالب شعبُها بالديمقراطية!

كما أن بشار بدأ يواجه مرة أخرى ثنائية من النقائض؛ حيث لا يمكن تحقيق الإصلاح الاقتصادي دون أن يكون ذلك موازياً للإصلاح السياسي الشامل؛ لأن المنظومة الاقتصادية في نهاية المطاف تخضع لبيئة مفتوحة سياسياً وقوانين صادرة من أعلى المراكز السياسية لولادة الاقتصاد الحر.

تراجع الرهان الإقليمي:

لا شك أن مرحلة في حياة سورية قد أوشكت على الانتهاء؛ بالرغم من «الرهان الإقليمي والدولي» على دمشق بسبب استحواذها على بعض الأوراق الهامة مثل: علاقتها بإيران، والتدخل في العراق أو لبنان، وتمسُّكها بحماس وحزب الله، والجبهة الهادئة في الجولان منذ عام ١٩٦٧م بالرغم من صيحات المقاومة والممانعة، وإيوائها لمنظمات فلسطينية، بدافع السيطرة عليها.

لكن هذا الرهان بدأ يضعف ويفقد بريقه بسبب ثورة الشعب السوري ضد النظام وترهُّل الجبهة الداخلية، كما أن المناخ الإقليمي والدولي قد تغيَّر، أو على وشك أن يتغير. ولا شك أن النظام السوري يحاول تفعيل هذه الأوراق بكل الطرق والوسائل، والتشبث بها لترويع الدول الإقليمية، والضغط على المجتمع الدولي، لا سيمَّا إذا اقتربت خطاه من غرفة الاحتضار.

ويمكن إرجاع ذلك إلى المأزق الكبير الذي سقط فيه بشار بمحاولته التوفيق بين نقيضين يستحيل أن يجتمعا (التغيير، والاستمرارية)؛ فلا يمكن أن يكون هناك تغيير بدون فك البنية التحتية التي يقف عليها النظام، وإسدال الستار على العقلية الأمنية والعسكرية، وهذا يعني زوال الاستمرارية لصالح التغيير.

وبوجود هذا المأزق، وجد بشار نفسه بين «فكَّي الأسد»، وهو ما يجعل المرحلة القادمة شاهدة على تحقُّق أحد السيناريوهات التالية، أو أكثر منها في الوقت نفسه:

١ - استمرار النزاع على ما هو عليه لفترة طويلة.

٢ - تهدئة مؤقتة مع بقاء النظام، إلى أن تنظِّم المعارضة نفسها على كل المستويات، لخوض جولة قادمة وأخيرة. وبالإعلان عن انتهاء «صراع النقائض» قد لا يخبو صوت الشعب إلى أن يتم القضاء على قاتله.

٣ - حرب أهلية بين القوميات والطوائف.

٤ - تدخُّل دولي بشكل أو بآخر، وقد ينتهي بتدخُّل عسكري.

٥ - انقلاب عسكري في غمرة الفوضى والانشقاقات.

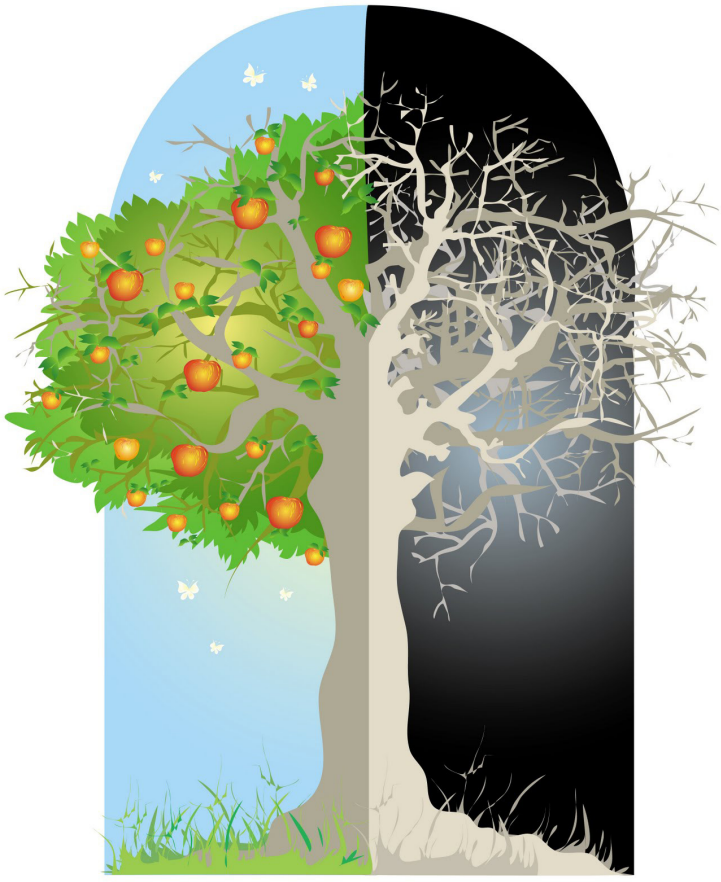

نظرية الفجور السياسي

رشيد شريت(*)

عبَّر الدكتور فريد الأنصاري عن نظرته لطبيعة التدافع بين المشروع الإسلامي والعلماني، عبر سلسلة من الحلقات الأسبوعية نشرت في بداية سنة ١٩٩٩م، على صفحات أسبوعية التجديد لسان حركة التوحيد والإصلاح، وقد عُنونَت هذه السلسلة من المقالات بـ (الفجور السياسي)[١]. ثم جمعت وطبعت لاحقاً في كتيب من الحجم الصغير.

وفي تشخيصه للحالة السياسية المغربية، يرى أنها – أي نظرية الفجور السياسي – حالة أيديولوجية[٢] لحماية الوضع الفاسد وضمان استمراره واتساع رقعته وتعميق جذوره في المجتمع حتى تتمكن من ضمان مصالحها، والعمل على قلب الموازين، وقتل الحاسة النقدية في المجتمع.

وهكذا يبدو الفرق بين الفجور الطبيعي والفجور السياسي: أن الأول استجابة للرغبة الذاتية الحيوانية للفساد بصورة مستهترة وانجراف قوي لداعي الهوى. أما الثاني – أي الفجور السياسي – فهو فلسفة للفجور وممارسته ثقافة وأخلاقاً أولاً، ومدافعته جبهة الصلاح ثانياً من خلال ترسيخ فلسفة الانحلال في المجتمع وتشويه السلوك الصالح السليم؛ وذلك باستغلال طاقة الفجور الطبيعي في النفس الإنسانية ودعوتها إلى التحدي.

(*) صحفي وكاتب من المغرب.

(١) نشرت نظرية الفجور السياسي على صفحات أسبوعية التجديد لسان حركة التوحيد والإصلاح،في ست حلقات ضمن نصف صفحة خصصت للراحل فريد معنونة فقه الدعوة: التدين أولا.ما بين ٢٠بتاريخ ٠٧ أبريل ١٩٩٩.و ص ١٣ بتاريخ ٠٢ يونيو ١٩٩٩.

(٢) الفجور السياسي خيار الجبهة العلمانية/الفرونكفونية بالمغرب –التجديد عدد ١١ ص ١٥ بتاريخ ٠٧ أبريل ١٩٩٩

الفجور سياسي إستراتيجية لمكافحة المدِّ الإسلامي:

ولكن من يقف محركاً للظاهرة؟ ولصالح من؟

يجيب الدكتور الأنصـــاري بأن هناك طرفين اثنين يقفان وراء الظاهرة ويختلفان باختلاف الموقع والتوازنات السياسية:

الطبقـــة العلمانيـــة الفرانكفونيـــة النافذة، ثـــم النظام السياسي الرسمي.

موضحاً أن الفجور السياســـي قد اتخذ صورة خاصة. وهي التمكين للفساد الخُلُقي[1] والدعاية له بوسائل شتى، متخندقاً في جبهة واحدة رغم تعدد أصنافه واتجاهاته؛ لتحقيق أهداف مهما بدت كثيرة إلا أنها تؤول في النهاية إلى مآل واحد وهدف وحيد؛ ألا وهو محاصرة الصحوة الإســـلامية باعتبارها توجهاً سياسياً، أو ذات بُعْد سياســـي. فالحركة الإســـلامية بطبعها لا يمكن أن تنتعش في مجتمع فاجر مســـتهتر بالقيم غارق في شهواته إلى درجة أنه لا يستســـيغ الخطاب الخُلُقي ولا أذنَ له لســـماعه. إن عمل الحركة الإســـلامية في مجتمع كهذا يعني الفشل الذريع؛ فلا بد أولاً من قابلية للاستماع قبل الاستجابة.

وقد رأينا هذه الإســـتراتيجية مطبَّقـــة في بعض البلاد الإســـلامية (عربية وغير عربية) تحت ما اشـــتهر باســـم: (سياســـية تجفيف منابـــع التطرف الدينـــي). والحقيقة أن الـــذي تجففت منابعه هـــو التدين نفســـه لا التطرف. وإذا كانت بعض البلاد العربية والإســـلامية قد اختارت الأسلوب الدموي المتخلف لقمع حركة التدين في المجتمع، أو أســـلوب القانون العسكري، فإن بعضها قد اختار الأسلوب الاجتماعي السياســـي للقضاء على حركة الوعي الإســـلامي. ولعل هذا الأســـلوب الأخير أخطرها جميعا وأكثرهـــا فعالية في بلوغ هدفه بأقل الخسائر.

والمغرب واحد من البلاد الإســـلامية التي قامت سياسته الرســـمية على هذا المنهج؛ بل لعله من الرواد في هذا المجال، لاعتماده على هذا الخيار السياسي بشكل يكاد يكون أحادياً، والمراهنة عليه وحدَه – تقريباً – بصورة واضحة وعلنية. ويزيد هذا الهامش خطورة عندما يســـمح بهامش ضئيل من التدين المشـــوَّه للناس... وحينما يســـتقرئ الدارس سائر التعليلات الرســـمية المطمئنة بـــأن المغرب لن يعـــرف ظاهرة التطرف الديني، يجد أنها كلها ترجع إلى أمرين اثنين:

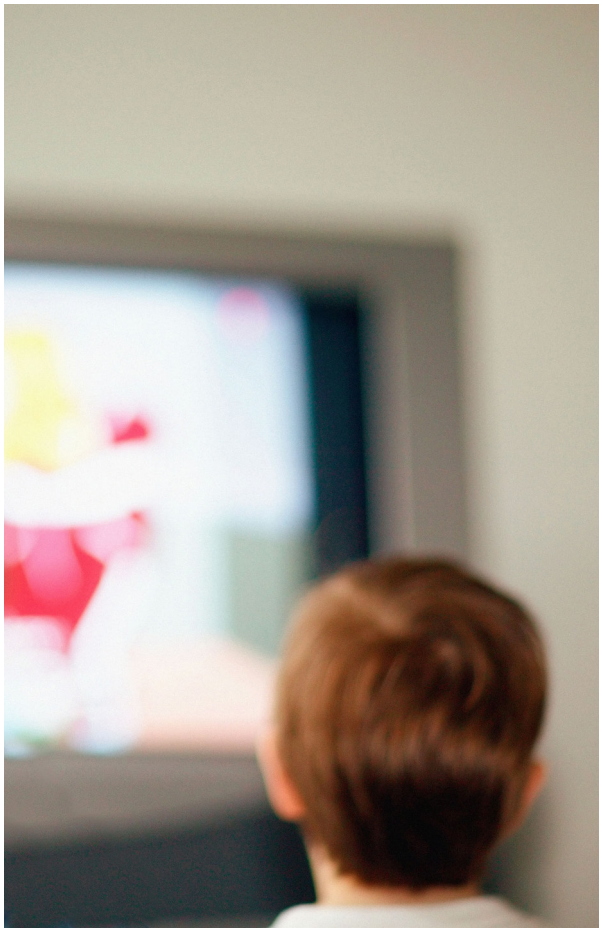

الأول: التذكيـــر بهامش التدين المســـموح به في المجتمع. وهو هامش شعاري أكثر منه ممارســـة، وأغلب المُمارَس منه يصنف في إطار التدين المنحرف: من طرقية، وعقائد خرافية لا علاقة لها بالدين، ومن هنا التشـــجيع الرســـمي لمواســـم الأضرحة، والطرق البدعية المبنية على الدجل والشعوذة[2].

الثاني: أن هـــذه الرغبة في تدنيـــس المجتمع، هي غاية سياســـية متعددة لعدة جهات في المغرب، منها ما هو رسمي ومنه ما هو حزبي أو حتى ثقافي. فمهما اختلفت هذه الجهات أو تعارضـــت مصالحها الجزئية، فإنهـــا تؤول في النهاية إلى مآل واحد.

لقد كانت الأيديولوجية الماركسية بشتى صورها العدو الأول للدين والتدين في المجتمعات الإسلامية. وكانت الأحزاب تقود حملة الفجور السياســـي، لكن تغيُّـــر الأوضاع الدولية وتحـــول العالم إلى الأحاديـــة القطبية، والهيمنـــة الليبرالية الأمريكية، حول المواجهة إلى المجال الثقافي الحضاري.

(١) الفجور السياسي– التجديد، عدد ١٤،ص١٤ بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٩٩م.

(٢) كان في الماضي أما الآن فقد تضاعف الدعم الر سمي للمواسم بشكل كبير..

مظاهر الفجور السياسي:

يقرر الأستاذ الأنصاري سلفاً أنه يصعب تحديد مظاهر الفجور السياسي بشكل دقيق، ولكن يضرب أمثلة ويطرح نماذج من كل صنف مكتفياً باستقراء لجزئياتها ليخلص إلى دليل قطعي يدين فيه الواقع السياسي الرسمي والحزبي:

١ - المستوى التعليمي:

لعل أهم ما يمكن رصده في المجالين (التعليمي والثقافي) هو السيطرة الفرانكفونية على الوضع مطلقاً[١]؛ فالتعليم لم يستطع أن يتخلص من عقدة الفرنسية.

إن مناهج التعليم المزدوجة هذه، هي التي خلقت لنا طبقة المثقفين المنحرفين والأدباء الإباحيين؛ فلا تقرأ في المغرب من الشعر والرواية إلا ما يمجِّد السقوط ويكشف العورات. أما العالمية فهي بين أحد أمرين: إما أن تكتب بالفرنسية، وإما أن يقيض الله لك من يترجم لك إلى الفرنسية على مقدار ما كشفت من مخبوء.

إن الأدب الفرنسي الذي يكتبه مغاربة، أدب خائن بالمعنى الوطني والحضاري للكلمة، إنه يكشف لهم عوراتنا! أو - في أحسن الأحوال - يقدمنا لهم مادةً سياحية غرائبية مسلية؛ لإرضاء شهوة الفرنسي المستعلية.

إن المثقف المغربي المفرنَس يعاني من وطء الكلمات الفرنسية العارية التي تدعوه إلى ربط كل شيء في الحياة بالجنس، وإنه لا يستطيع التخلص من ذلك لو أخلص النية إلا بعد مكابدة وعذاب شديدين.

إن المشكل الثقافي الأول بالمغرب إنما يكمن في هذا الانبطاح المخزي لكل ما هو فرنسي، وها هي ذي الجهات الرسمية ما تزال أحرص ما تكون على تمجيد المنتج الثقافي الفرانكفوني.

٢ - المستوى الإعلامي:

فقد قطع أشواطاً بعيدة في الجرأة على كشف العورات وعرض المحرمات. ولقد صارت مشاهدة التلفزيون المغربي بقناتيه في وسط العائلة من المحرجات والمخزيات. وبغضِّ النظر عما ترسخه الصورة العارية والكلمة العارية في النفس من انحراف داخل الأسرة المغربية المستسلمة للمخدر الإعلامي. فإن الخطر الأكبر يكمن في خرم مفاهيم الحياء والكرامة والأعراض؛ وذلك هو الطريق المعبد لضياع مفهوم الأسرة.

٣ - المستوى الفني:

وهو لاحق بالمستوى التعليمي والإعلامي لما للفن من ارتباط بوسائل الإعلام المرئية، وما تلعبه هذه من دور في إشهارها، ولولاه لما كان له أثر يذكر في المجتمع. ونخص بالذكر ها هنا ثلاثة أصناف، هي: الفيلم، والمسرحية، والأغنية؛ ذلك أن الفساد الذي طرأ على هذه الأصناف لم يطرأ على أي صنف من أصناف الفنون[٢].

١ - السينما:

إن السينما قد تطورت من حيث الإنتاج والاستهلاك معاً، سواء ما عرض منها في دور السينما أو ما يعرَض على جهاز التلفزيون. وتطورها بالطبع نحو الأسوأ. وأذكر أن دُور السينما بالمغرب كانت تتداول أصنافاً ثلاثة من الأفلام: الفيلم الأمريكي الرعوي الكاوبوي وهو استعراض القوة على الطريقة الأمريكية قبل ظهور أفلام رامبو، ثم الفيلم الهندي القصصي، وأخيراً أفلام (الكاراتيه) وفنون القتال الرياضي.ثم قاعات قليلة ولكنها موجودة تكاد تكون متخصصة في عرض أفلام الجنس ولكنها تفعل ذلك في تستر واستحياء. ثم جاء عهد التسعينيات فصارت أغلب دور السينما - إن لم نقل جميعها - متخصصة في عرض أفلام الجنس والخلاعة. هذا في بلد فيه شيء اسمه المركز السينمائي المغربي يفترض فيه أنه يشرف على ما يعرَض على أبناء المسلمين.

٢ - المسرحية والأغنية:

أما المسرحية - وخاصة ما تعرضه التلفزة المغربية - فهي - في غالبها - ساقطة من الناحية الفنية المحضة (نصاً وإخراجاً). وأما الأغنية فقد هبطت إلى الدرك الأسفل من كل ذلك؛ وذلك من ناحيتين:

الأولى: ليس فساد المضمون فحسب ولكن انعدامه. إن ما تنتجه الحناجر المغربية اليوم هو في غالبه ضرب من الهيستريا، ويمكن أن نطلق عليه اللامعنى، واللامعنى هذا مفهوم سياسي بالدرجة الأولى؛ إنه الرغبة السياسية في صناعة جيل لا معنى له، جيل لا يفهم شيئاً ولا يسأل عن شيء. وإن المعنى مهما فسد فيمكن أن يتحسن يوماً ما. أما اللامعنى فهو العبث أو الموت الذي لا حياة بعده.

٤ - المستوى الاجتماعي

يحدد الدكتور الأنصاري مجال تناوله للمجال الاجتماعي في ثلاثة عناصر، هي: المرأة والأسرة والشارع.

(١) ظاهر الفجور السياسي بالمغرب - التجديد، ع١٥، ص ١٧ بتاريخ ٥ ماي ١٩٩٩م.

(٢) التجديد، ع ١٦، ص١٣ بتاريخ ١٢ ماي ١٩٩٩م.

١ - المرأة:

هي المحـــور الأول والأســـاس الذي يقـــوم عليه المحور التفســـيقي السياســـي بكل اتجاهاته[١]، وفـــي هذه القضية بالضبط تلتقي هذه الاتجاهات كلُّها مع المشروع الصهيوني.

إن ما ســـمي مغالطة بحُريَّة المرأة، لـــم يكن القصد منه - كما تدل على ذلك دلائـــل الواقع الممارس عند هؤلاء وكذا تنظيراتهم وتصريحاتهم - إلا اعتقال المرأة في حدود جسدها. إن المرأة في النظرية الليبرالية ليست إلا متعة مطلقة من أي قيد؛ إنها مشاع جنسي.

وأحســـب أن الشـــيوعية لم تلتقِ مع الرأسمالية كنظرية اجتماعية كما التقت معها في قضية المرأة.

وإنها بعد ذلك لأداة وأي أداة لتفسيق المجتمع. ولقد أجمع عليها المثقفون المنظرون والساســـة الممارسون. حتى إن قياس التطـــرف الديني في بلد ما صار يقاس بمدى حرية المرأة في ذلك البلد، وما تصريحات مسؤولينا عنا ببعيد.

٣ - الأسرة:

ويكفي أن أشـــير - الكلام دائماً للأســـتاذ الأنصاري - إلى أن الأســـرة هي المحضن الوحيد للتدين عندما تفسد كل المحاضن الاجتماعية. إن الأســـرة هي المقر الأمين لاستمرار التديـــن في الناس ومن هنا كان هدمهـــا إنما هو هدم لآخر معاقل الدين في المجتمع

فانظر أيَّ خطر تحتوي عليه دعوى تغيير مدونة الأحوال الشخصية[٢]. إن المسألة ليست في الطلاق بيد من يكون؟ ولا فـــي النفقة كيف يجب أن تفـــرَض؟ ولا في القوامة متى تبدأ ومتى تنتهي؟ و لا في العدل بين الزوجين، كيف يطبق كل ذلك؟ إنمـــا هو أعراض للقضية وليس جوهـــراً فيها؛ لأن الاجتهاد الشرعي قمين بمراجعة كل ذلك.

إن الجبهة العلمانية إذ ترفع شعارات مثل هذه وأكثر؛ إنما تعمـــل على هدم المحضن الوحيد الأكثـــر فعالية والأكثر دفئاً وأمناً للتدين في المجتمع إن الأســـرة إذن هي حصن الحركة الإسلامية الممتاز، الذي إن انهدم فلا انتظار بعده[٣].

٣ - الشارع:

وهو في الحقيقة إفراز الفســـاد في ما سبق من عناصر تعليميـــة، وثقافية، وفنية، وإعلانيـــة، واجتماعية. إنه صالة العـــرض الدائمة لكل ما ذُكِـــر وغيره؛ ولذلك فإن إشـــاعة الفاحشـــة فيه مقصد سياســـي لتكريس منتجـــات الفجور المؤسســـي من ناحية، ولتعويد العين الاجتماعية على مظاهره المقرفة حتى يصبح من المألوف اليومي، فلا تستنكر بعد ذلك فعلياً ثم شعورياً، وهو معنى التطبيع النفسي مع المنكر.

إن الناظر في كبريات مظاهر المنكر في الشـــارع كمفهوم اجتماعي يجدها منحصرة في الأمور التالية وما سواها يمكن ردُّه إليها وهي: الموضة والخدنية، واللغة، والخمارة، والنوادي الليلية.

كان هـــذا عرضـــاً موجزاً لأهـــم معالم نظريـــة الفجور السياسي التي هي في الأساس سياسة القصدُ منها الحد من تنامي الصحوة الإســـلامية، ومن جهة أخرى ضبط التوازنات عبر آليات الحقل والحقل المضاد، وهي تفسير عملي وعلمي لواقع التدافع في المغرب بين المشـــروع الحركي الإســـلامي والمشروع السياسي بشقيه (الرسمي والعلماني).

---

(١) خصص الدكتور الأنصاري لهذا الموضوع كتاباً مستقلا عنون له بـ: سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة.

(٢) كان هذا قبل إقرار قانون مدونة الأسرة سنة ٢٠٠٤م. التي صادق عليها البرلمان المغربي في فبراير ٢٠٠٦م.

(٣) التجديد، ع ١٨،ص١٥ بتاريخ ٢٦ ماي ١٩٩٩م.

الهدي النبوي في التنمية...

مولاي المصطفى البرجاوي(*)
elberjaoui@gmail.com

في الوقت الذي تعالت فيه الأصوات لرفع قاطرة التنمية في البلدان (المتخلفة)، سعت المنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة إلى إصدار جملة من المؤشرات في أفق الدفع بهذه البلدان إلى بر الأمان على حد زعمها! لكن هذه المعايير (جملة وتفصيلاً) يعتريها ثغرات وعيوب جمة وتفتقد إلى المصداقية، كما تفتقد أسساً متينة في بعدها الروحي، موغلة في المادية الفانية والمتزحزحة.

ونظراً لما تعيشه بعض بلدان العالم الإسلامي، من خلل كبير في اقتصادها وأمنها (الاجتماعي والثقافي والصحي والتعليمي)، أحببت أن أتقدم بهذه الورقة، لعلها تفيد في إعادة الأمور إلى نصابها، وتوقظ الغافلين من غفوتهم ونزواتهم الشهوانية الطاغية.

(*) باحث في العلوم الاجتماعية والتواصل، كلية علوم التربية، الرباط – المغرب.

قبل الدخول في تفاصيل عرض هذا (المؤشر النبوي)، يكون من الأَوْلَى الوقوف عند المحطات التاريخية لهذه المؤشرات:

١ - **مقياس مستوى المعيشة:** اقترحه درفنوفسكي سنة ١٩٦٦م في دراسة قام بها لصالح معهد الأمم المتحدة لبحوث التنمية الاجتماعية، ويرى أن المستوى المعيشي تحكمه عدة معطيات، كما أن الرفاه والتقدم لا يستند إلى معطىً واحد.

٢ - **مقياس المؤشر المركب للتنمية:** مؤشر أصدرته منظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة سنة ١٩٧٥م، وهو مؤشر يقوم على تصحيح الحالات تبعاً لسلَّم المؤشرات المتعددة.

٣ - **مقياس المستوى المادي للحياة:** اعتمده مجلس التنمية الخارجي الأمريكي سنة ١٩٧٧م، وهو معدل لثلاثة مؤشرات غير كمية:

- نسبة غير الأميين.
- معدل الوفيات.
- معدل أمل الحياة.

٤ - **مؤشر التنمية البشرية:** مؤشر اعتمده برنامج الأمم المتحدة للتنمية PNUD (هذا اختصاره بالفرنسية، أما بالإنجليزية فهو UNDP) سنة ١٩٩٠م، ويمزج بين ثلاثة مستويات: مستوى الصحة، ومستوى التعليم، ومستوى الدخل الفردي. ويهدف إلى:

- تصنيف الدول و ترتيبها عالمياً حسب عنايتها بالإنسان.
- تحديد مكامن الضعف الحقيقية قصد التنبيه إلى خطورتها ووضع (الفقر البشري) ضمن الأولويات
- ويضم المؤشر العام بين ٠,٨ و ١ (مرتفع)، وبين ٠,٥ و ٠,٧٩٩ (متوسط)، وأقل من ٠,٥ (منخفض).

على ضوء هذه المؤشرات الاقتصادية؛ يتبين أنها تغيِّب الجانب الروحي وتركِّز فقط على الماديات، وهو ما يجعل أغلب هذه المؤشرات تبوء مشاريعها بالفشل، أضف إلى ذلك أنها تغلِّب الجانب (البراغماتي) على الجانب الإنساني، ليصبح العالم المنهك (مادياً) كبش فداء لأغلب إستراتيجياتهم الفاشلة.

المؤشرات النبوية للتنمية:

لقد سطر حبيبنا المصطفى ﷺ - وحياً من ربه - أروع المؤشرات والمعايير لتحقيق تنمية متكاملة من خلال حديث نبوي شريف جامع ومانع: «مَن أصبح آمنًا في سِرْبِه، مُعافىً في جسده، عنده قوتُ يومه فكأنما حِيزَتْ له الدُّنيا بحذَافِيرها»؛ إذ يشمل ما يلي:

١ - نعمة الأمن:

الأمن لغة: مصدره (أمن)، الأمان والأمانة بمعنى: وقد أمَّنت فأنا أمن، وأمنت غيري من الأمن والأمان ضد الخوف[١].

واصطلاحاً: هو اطمئنان النفس وزوال الخوف، ومنه قوله - تعالى -: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، ومنه الإيمان والأمانة، وضده الخوف. ووقع من أسمائه الحسنى المؤمن في قوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ومعناه أنه هو المعطي الأمان لعباده المؤمنين حين يؤمنهم من العذاب في الدنيا والآخرة. وينقسم الأمن إلى قسمين:

أمن في الدنيا: وهو يتحقق على الصعيد الفردي والاجتماعي بمختلف الأشكال الحياتية (سياسية، وعسكرية، واقتصادية، وتعليمية، واجتماعية).

وأمن في الآخرة: وهو الاطمئنان بعدم عذاب الله في جهنم، وهو خاص بالمؤمنين الذين عملوا الصالحات[٢]: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إن مفهوم الأمن أوسع مما نتصور؛ إذ يشمل الأمن العقدي من كل تشويه وتحريف، والأمن الفكري من خلال الحفظ على الهوية الإسلامية التي تحاول التيارات التغريبية الحداثية هدمها، والأمن الاجتماعي من خلال ما حث عليه حبيبنا ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[٣]، والأمن الصحي والأمن في الغذاء والتعليم والتربية.

وخلاصة القول: إن للإسلام نظرته الشمولية للأمن لاستيعابه كل شيء مادي ومعنوي، كما أنه حقٌّ للجميع أفراداً وجماعات، مسلمين وغير مسلمين. ومفهوم الأمن في القرآن الكريم شمولي باحتوائه على مقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة (حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض).

---

(١) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص ١٩٩.

(٢) موقع المتمني للخير http://www.motamani.com/boamn.php

(٣) البخاري، كتاب الأدب (٥٦٦٥)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٠).

بل حذرت الشـــريعة الإسلامية من خطورة الحرمان من الأمن المعنوي الذي يظهـــر في صورة انعدام الأمن والخوف. ولله در عمر بن عبـــد العزيز إذا قال لأحد عماله الذي كتب إليه: (إن مدينتنا قد تهدمت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرممها به فعـــل)، فكتب إليه عمر: (إذا قرأت كتابي هذا: فحصنها بالعدل ونقِّ طرقها من الظلم فإنه عمارتها)[1].

٢- الأمن الغذائي:

عـــرَّف البنك الدولي (الأمن الغذائي) كما يلي: (قدرة كل الناس فـــي كل الأوقات على الحصول علـــى الطعام الكافي والذي يضمن لهم حياة صحية نشطة). لكن ما يعاب على هذا التعريف أنه لم يذكر مصـــدر الحصول على هذا الطعام؛ إذ مـــا يلاحظ أنه يأتي من مصادر خارجية - في الغالب - دون التفكيـــر في موارد الذاتية، وهو ما يجعلها عرضة للإملاءات والضغوطات الخارجية.

وفي هذا المضمار يتم التمييز بين:

الأمن الغذائي المطلق: وهو (قدرة الدولة على إنتاج الغذاء داخـــل أرضها بما يعادل أو يفوق حاجتهـــا المحلية أو الطلب الداخلي فيها).

والأمن الغذائي النسبي: الذي عرَّفوه بأنه: (قدرة الدولة على توفير الســـلع والمـــواد الغذائية كلياً أو جزئياً لشـــعبها ومواطنيها).

وبناء على هذه التعريفات ركز الإســـلام على استقلالية الأمة وقدرتها الخاصة على إنتاج طعامها من خيراتها؛ وذلك حفاظاً عليها من الوقوع فريسة الابتزاز في طعامها؛ لأنها إن وقعت في الفخ أصبحت ألعوبة بيد من يملك مقومات الإنتاج وعناصره. وقد أكد الإســـلام على الإنتاج وتوفير الحاجيات من خلال استغلال الثروات والخيرات الموجودة براً وبحراً من خلال بذل الجهد وتعبئة الطاقات والموارد البشـــرية والمالية وتبـــرز أهمية هذا الدور في عالم مـــادي اختلت فيه الموازين وبلغـــت درجة من الاحتكار أدت إلى موت البشـــر من الجوع على مرأى ومســـمع من أقطاب الحضارة المتمدنة في القرن العشرين والحادي والعشرين جهاراً نهاراً.

ومـــن مظاهر اختلال الموازين بين دول العالم في الانتفاع بثروات الأرض وخيراتها هو ما تشير له الأرقام؛ إذ إن الأرقام تشـــير إلى أن ٢٠٪ من ســـكان العالم يتصرفون في ٨٠٪ من ثرواته، في حين يتقاسم ٨٠٪ من سكان العالم ٢٠٪ فقط من ثرواته، وإن مثل هذا الاختلال يعود إلى أســـباب عدة، منها: قصور وتراجع السياسات المتبعة في ما يسمى بالدول النامية (أو العالم الثالث) ونقص قدرته على تحقيق نهضة اقتصادية حقيقية، إضافة إلى الهيمنة السياسية الدولية على مقدرات وخيرات الشعوب، وهي التي تسعى جاهده لإبقاء هذه الدول في حالة من التبعية الاقتصادية لها تمكِّنها من الحفاظ على تفوقها وارتباط الآخر بها.

إن أهم مرتكـــز من مرتكزات الأمن الغذائي هو تحقيق الاكتفاء الذاتي - ولو جزئياً على الأقل - في المواد الأساسية والضرورية؛ لكي يستطيع الشـــعب أن يحافظ على استقلال إرادته وكرامته. وأرضنا العربية والإسلامية تمتلئ بالخيرات والثروات التي تمكننا من الاســـتقلال وتحقيق أمننا الغذائي الخاص بنا بعيداً عن الهيمنة والتبعية الأجنبية[2].

وطبقـــاً للمقولـــة الرائجة: (من لا يملـــك قُوتَه لا يملك قـــراره)؛ فإن دول النفوذ السياســـي - وهـــي المانح الرئيس للغـــذاء في العالـــم - هي في الغالب تمنـــح الغذاء من أجل إرغـــام المحتاجين للطعام على قبول الأجنـــدة الظالمة. وهذا هو الذي تفعله اليوم الدول الكبرى ذات الســـيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية، مثل الولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوروبا. وهـــذا ما ذهب إليه كلٌّ من (جوناثان بوار وأني ماري هولانستين) في كتابهما عالم الجوع (WORLD OF HUNGER)؛ حيث يقولان: (إن الولايات المتحدة الأمريكية بما لها من إنتاج غزير للغذاء في الســـوق العالمي تستطيع أن تتحكم في مصائر المجموعات الهائلة من الجياع في العالم).

ومما يؤســـف له أن الســـودان التي تُعَد سلة غذاء العالم العربـــي والإســـلامي، والتي كان مـــن الأَوْلى بـــدول العالم الإسلامي دعمها دعماً متيناً لتغطي النقص الحالَّ في الغذاء، أصبحت مرتعاً للنهب الغربـــي والنصراني المحلي، وللخطط الماكـــرة الصهيونية، وبقي المســـلمون يتفرجـــون على تطبيق اتفاقية (سايكس - بيكو) الجديدة ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) الإمام عبد الرحمن بن الجوزي، الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٢٩٨هـ، ص ٤٦.

(٢) مرتكزات الأمن الغذائي إسلامياً، هايل عبد المولى طشطوش، جريدة الرأي العدد ١٤٤٢٢ تاريخ: ٦/٤/٢٠١٠م.

العلاقة بين الأمن وتوفير الغذاء:

أكد الخالق العزيز على أهمية الطعام واعتبرها من النعم العظيمة من خلال امتنانه على قريش بهذه النعمة، كما ربطها ربطاً دقيقاً بالأمن من الخوف؛ حيث قال - تعالى -: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

كما تجلى الخيط الرفيع الرابط بين مستوى الأمن وتوفير الغذاء في قوله - تعالى - على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عندما ترك زوجه وابنه عند البيت العتيق فنادى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وبناء على ذلك تظهر القيمة الأساسية والجدلية للبعد الأمني مع مسألة الغذاء. كما لا يقتصر الأمن على توفير الغذاء، بل يحرص على توفير مستلزمات الحياة؛ وإلا كيف نفسر الوضع الاجتماعي في العراق الذي تترنح بعض فئاته تحت عتبة الفقر، بل الأدهى والأَمَر أنه البلد الذي يُضرَب به المثل في محو الأمية قبل الاحتلال أصبحت الأمية تنخر جسده.

فالغذاء هو أحد حاجات الإنسان الضرورية التي تتمثل في المأكل والملبس والمسكن؛ إلا أن الغذاء يعتبر أهمها؛ فالإنسان لا يستطيع الاستغناء عنه أو الصبر على الجوع، لقد عاش الإنسان الأول عارياً دون ملبس ودون مأوى، ولا تزال أقوام تعيش اليوم في مجاهل إفريقيا تسير عارية أو شبه عارية، لكنها رغم ذلك لا تستطيع الحياة بلا طعام.

فما شهدته مصر في الآونة الأخيرة من إطاحة بالنظام البائد، لدليل قاطع على ما نقول؛ إذ إن أغلب المصريين يعانون فقراً مدقعاً، وتجلى ذلك في إضرابات الخبز التي نشرتها شاشات التلفاز العالمية. والشيء نفسه ينطبق على الدول الإفريقية.

الأمن الصحي:

جاءت الشريعة الإسلامية - كما ذكرنا آنفاً - لحفظ الكليات الخمس (الدين والنفس والمال والعرض والعقل)، ومن حفظ النفس العناية بصحة الأبدان؛ لأن البدن أمانة من الله عندنا وهو مطيتنا في رحلة هذه الحياة، وما أُعطي عبدٌ أفضل من نعمة العافية. ويعد الحفاظ على الصحة واجباً دينياً؛ كما في حديث سلمان الفارسي - رضي الله عنه -: «إن لربك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حق حقه». كما استوعب علماء الإسلام وفقهاؤه المعنى الصحيح لقيمة الصحة في الإسلام حتى قرر الإمام العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام: (أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان)؛ فمثلاً: شرع رخصة التيمم في الطهارة، بديلاً عن الوضوء والغسل: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]. وقال - تعالى - في التخفيف عن الصائم وترخيصه الفطر له إذا كان مريضاً أو على سفر: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهذا العنصر المتعلق بالأمن الصحي، كتبت فيه كتابات كثيرة، من خلال الحرص على توفير شروط الصحة من وسائل التطبيب، والعناية بصحة الإنسان لأداء الشعائر التعبدية على أحسن وجه. لكن استوقفني موقف عجيب للخليفة الفاروق - تطبيقاً لما يسمى في الطب المعاصر بالحجر الصحي - لما أراد أن يذهب إلى الشام وقد سمع بظهور الطاعون فيها فهمَّ بالرجوع، فقال له أبو عبيدة: أتفر من قدر الله؟ فقال: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله. وعندما أخبره بعض الصحابة بقول النبي: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه»،[1] فرح عمر فرحاً شديداً حيث وافق رأيُه الحقَ ولم يَحِد عنه طرفة عين، كيف لا وقد جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه.

وختاماً أقول: العالم الإسلامي لا يزال يعيش خللاً كبيراً على مستوى تحقيق التوازن بين هذه العناصر المشكِّلة لهذا المؤشر النبوي؛ وهذا ليس ضرباً من الخيال؛ فبالرجوع إلى الأرقام الإحصائية نستشف ذلك بجلاء؛ فمثلاً أنفقت دول العالم الإسلامي ٧٢ مليار دولار على التسلح عام ١٩٩٧م يستخدَم معظمها على الصراعات البينية لهذه الدول. في حين تبلغ نسبة التعليم في العالم الإسلامي ٦٣٪ ومعدل الإنفاق عليه لا يتجاوز ٤٪ من الناتج القومي الإجمالي.

فنسأل الله دوام العافية في الدين والدنيا والآخرة، كما نسأله دوام الشكر على العافية، كما نسأله - سبحانه - أن يديم علينا الأمن والأمان إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد.

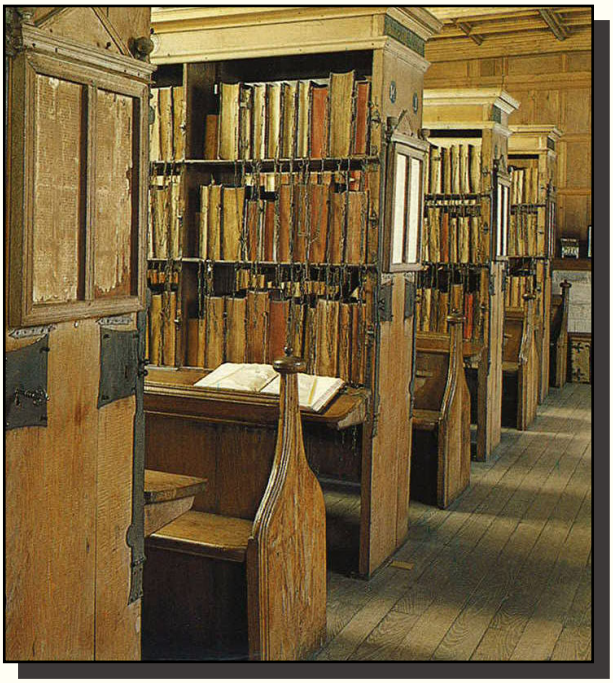

الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية (الأندلس نموذجاً)

أنـــور محـمـــود زنـــاتي(*)
anwer1122@yahoo.com

تشـــير القراءة المتأنية لتاريخ الحضارة الإســـلامية في عصورها المختلفة إلى أن الوقف(١) قام بدور بارز في تطوير المجتمعات الإســـلامية (اقتصادياً واجتماعياً وثقافيـــاً وعمرانياً)؛ فقد امتدت تأثيراته لتشـــمل معظم أوجه الحياة بجوانبها المختلفة(٢). ومن أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف هو (إنشـــاء المكتبات) وفتح أبوابها في وجه طلاب العلم، وهو ما يعكس حبَّ المســـلمين للعلم، وحرصَهم على نشره بين الناس، وتقديرَهم البالغ لأهله وطلابه(٣).

---

* جامعة عين شمس.

(١) الوقف في اللغة: هو الحبس والمنع، يقال: وقفت الدار أي حبستها، ولايقال: أوقفتها؛ لأنها لغة رديئة، ويقال للشيء الموقوف: وَقْف من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول. والوقف في الاصطلاح الشرعي فقد تعددت عبارات الفقهاء في تعريفه بناء على اختلاف آرائهم في لزومه، وتأبيده، وملكيته. عرَّفه الإمام أبو حنيفة بقوله: «هو حبس العين على حكم ملك الواقف، وتسجيل منفعتها على جهة من جهات البر. وعبارة الإمام هنا تدلُّ على أنه يرى أن ملكية العين الموقوفة تبقى في يد الواقف. وعرَّفه بعض المالكية بقولهم: هو جَعْل المالك منفعة مملوكه، ولو كان مملوكاً بأجرة، أو جَعْل غلته كدراهم لمستحق بصيغة مدة ما يراه المحبس»، راجع: علي جمعة محمد: الوقف وأثره التنموي، أبحاث ندوة «نحو دور تنموي للوقف»، ص٩١، وأحمد أبو زيد: نظام الوقف الإسلامي: تطوير أساليب العمل وتحليل نتائج بعض الدراسات الحديثة، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الرباط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٢) راجع: محمد عبد القادر الفقي: دور الوقف الإسلامي في التنمية، مجلة الوعي الإسلامي، عدد رقم ٥٣٢، بتاريخ ٣/ ٩/ ٢٠١٠م.

(٣) راجع: أحمد أبو زيد: نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق.

الوقف على الكتب:

انتشـــرت مكتبات الوقف في الأندلـــس والمغرب على مَرِّ التاريخ، وكان شعب الأندلس شعباً يُقْبِل على العلم للعلم ذاته، ومن ثَمَّ كان علماؤهم متقنين لفنون علمهم لأنهم يسعون إليها مختاريـــن غير مدفوعين بهدف غير التعلُّم، وكان الرجل ينفق ما عنده من مال حتى يتعلم، ومتى عُرِف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال ويشير الناس إليه بالبنان[١]. أما العلماء فقلَّ من تجده متبحراً في علم واحد أو علمين؛ بل فيهم من يُعَدُّ من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأدباء والمؤرخين واللغويين[٢].

وقد كثـــرت مكتبات الأوقاف في الأندلـــس، وكانت تتاح فيها اســـتعارة الكتب للجميع، ولا أدلَّ على ذلك من الخبر الذي أُثِر عن أبـــي حيان محمد بن يوســـف بن حيان الأندلســـي (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤م) إذ كان يعيب على مشتري الكتب ويقول: «الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف وقضيت حاجتي»[٣].

وتعتبر مكتبات المســـاجد هـــي النواة التـــي قامت على أساســـها كل أنواع المكتبات الأخرى، فكانت هناك مكتبة في كل مسجد واحتوت هذه المكتبات على كل أنواع الكتب (دينية وثقافية)، وقـــد كان من عادة العلمـــاء أن يوقِفوا كتبَهم على المساجد ليضمنوا حفظها وإتاحتها للطلاب والدارسين[٤].

فخلال مدة إقامة المســـلمين الطويلـــة في الأندلس وُجِد كثير من المكتبات الملحقة بالمساجد، ويستخدمها الناس الذين ليس لديهـــم مكتبات خاصة؛ فقد كان من عـــادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المســـاجد لضمان حفظهـــا وجَعْلها متاحة للطلاب الدارســـين وكانت هذه المكتبات تمتلئ بالكتب القيمة ذات الخط الجميل والتجليـــد الرائع والمصاحف وكتب الفقه وعلم الكلام[٥].

وكانـــت هناك مكتبة مســـجد طُلَيطِلَـــةُ[٦] حيث كان من المســـاجد الشـــهيرة وتعقد فيه حلقات الدروس التي تجتذب الطلاب المسلمين والنصارى على السواء، حتى كان يقصدها طلاب نصـــارى من جميع أنحـــاء أوروبا بمـــا فيها إنجلترا واســـكتلندا، وقد بلغت شـــهرة مكتبتها مـــن حيث هي مركزٌ للثقافة إلى أقصى البلاد النصرانية في الشمال[٧].

وأيضاً مكتبة المســـجد الجامع بقُرْطُبَة[٨]، التي أسَّسَـــهَا الخليفة الأموي الحَكَم المستنصر سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، وقد أقام لهـــا موظَّفِين مخصَّصِين للعناية بشـــؤونها، وجمع فيها النسَّـــاخ، وعيَّن لها عدداً كبيراً من المجلِّدين، وقد ظلَّتْ محطَّ أنظار العلماء وطلاب العلم في الأندلس[٩]، وقد أمَّها مختلف الطلاب (المسلمين والنصارى) لا من الأندلس فقط ولكن من أنحاء أخرى من أوروبا وإفريقيا وآسيا.

وكذلك مكتبة مســـجد الزهراء[١٠]. ومكتبة مسجد مالقة وكان العلماء يدعمونها بما يحبســـونه عليها من كتب، ومنهم محمـــد بن لب الكنانـــي الذي وقف جزءاً كبيـــراً من مكتبته الخاصة على الجامع الكبير بمالقـــة[١١] وكان ابن لب (ذاكراً للعلوم القديمة معتنياً بها عاكفاً عليها وقبل وفاته حبس داره وطائفة من كتبه على الجامع الكبير ومكتبته)[١٢].

وقام المســـجد بدور المدرســـة، ولذلك وجد فيه كثير من الكتب القيمة وإن كانـــت الصفة الغالبة على هذه الكتب هي كتب الفقه وعلم الكلام بينما تقلُّ فيها كتب الشعر غير الديني وكتب الفلســـفة[١٣]. وتذكر المستشـــرقة ســـيغريد هونكة أن الحكام أنشؤوا في كل حي داراً للكتب وزودوها بمئات الألوف مـــن الكتب وجعلوها في متناول الجميـــع وفي مختلف فروع

(١) مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٣م، ص ٧١.
(٢) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج٣، مطبعة الاستقامة، ط١، ١٩٤٠م، ص ٣٣١.
(٣) المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، ط١. دار صادر بيروت ١٩٦٨م: ٧/ ٣٧٦، ٣٧٧.
(٤) محمد محمد أمان: الكتب الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٩٩٠م، ص ٥٩.
(٥) رضا سعيد مقبل: تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة المنوفية، ٢٠٠١م، ص ٨٩.
(٦) شعبان عبد العزيز خليفة: الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٣٤٩.
(٧) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٣٨م، ص٢٨٣.
(٨) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ١٩٩٤م، ص٢٠٧.
(٩) ابن الأَبَّار: التكملة لكتاب الصلة: ١/ ١٩٠.
(١٠) أحمد فكري: قُرْطُبَة في العصر الإسلامي... تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣م، ص ١٢٣.
(١١) مَالَقَةُ Malaga: بفتح اللام والقاف كلمة عجمية. مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رَيَّة سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء وألمريَّة. قال الحُمَيدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، والقولان متقاربان وأصل وضعها قديم ثم عمرت بَعْد وكثر قَصْد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكُورة كالبادية لها أي الرستاق، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم. منهم عزيز بن محمد اللخمي المالقي وسليمان المَعافري المالقي. راجع: ياقوت، معجم البلدان ٥/ ٤٣، ٤٤، وأبو بكر الزهري، كتاب الجغرافية، ص٩٣.
(١٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ص ٨٠.
(١٣) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص ١٨٨.

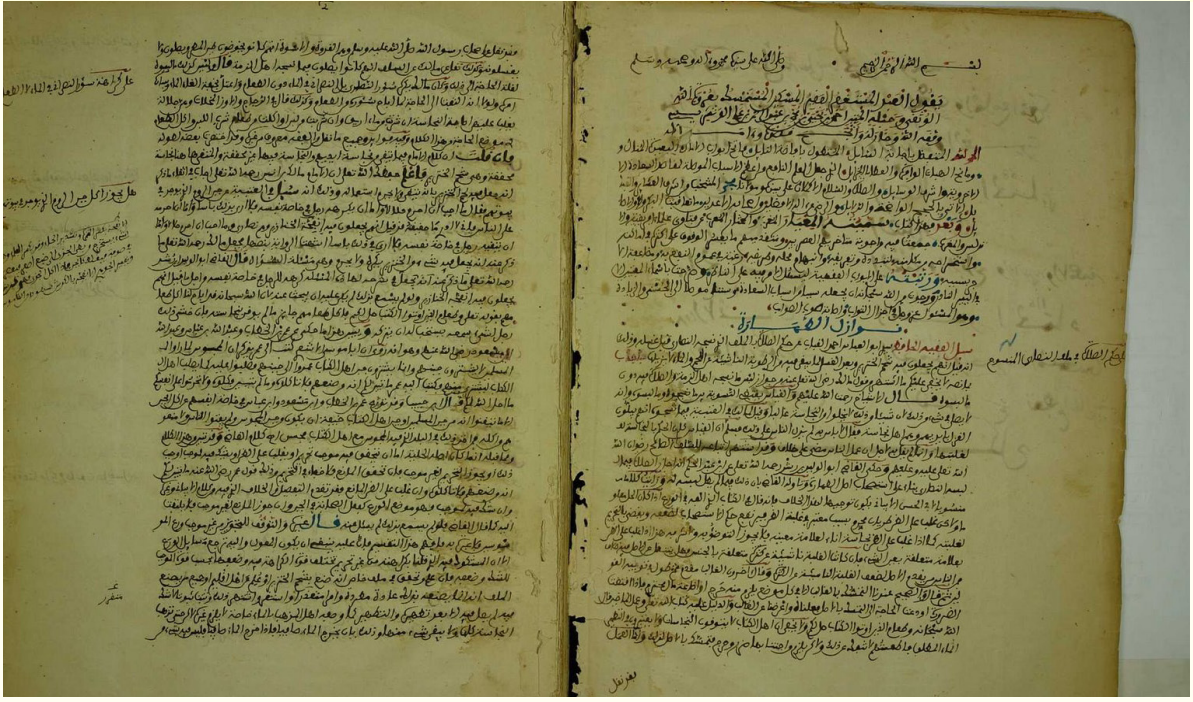

المعرفـــة، وكانت مجموعاتها ما بين عشـــرة آلاف ومائة ألف مجلد[1]. كمكتبة إشبيليَّة العامة أيام الراضي بن المعتمد[2].

وكان الإنفـــاق على المكتبات بصفة عامَّة من ريع الأوقاف التي تُوقَف عليهـــا؛ حيث كانت الدولة تُخَصِّـــصُ لها أوقافاً مُعَيَّنَة، ويُقَدِّمُ لها بعض الأغنياء وأهل الخير أوقافاً تســـاعد في الإنفاق عليها[3].

الدَّور الحضاري:

ســـاهمت تلك المكتبات بدور فعال في عملية الاتصال بين العلماء؛ حيث عملت على إمداد المؤلفين الأندلســـيين بمصادر للمعلومـــات كان لها تأثير على مؤلفاتهم في ما بعد. كما وفرت تلك المكتبات الكتب النادرة الموجودة في المشـــرق؛ سواء توفرت هـــذه الكتب في مكتبات خاصة أو شـــبه عامة أو عامة، حتى أتاحـــت للمؤلفين - وإن لم يســـافروا إلى خارج الأندلس - أن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات[4].

ونتيجـــة لتلك الأوقـــاف على الكتب في الأندلس نشـــأت حضارة شـــامخة ارتكزت على مجموعة من الركائز من أبرزها توفير الكتب للعامة فانتشرت المكتبات في طول البلاد وعرضها، وتعلق الأندلســـيون بالكتب تعلقاً لافتاً للنظر، وانتشرت موجة حب الكتب والقراءة بين جميع طبقات المجتمع الأندلســـي بلا استثناء.

كما انتشـــرت ظاهرة وقف الكتب فـــي الأندلس والمغرب على مرِّ العصـــور، وجرت العادة أن تســـلَّم للخِزَانات العامة، لتوضع تحت تصرُّف طلاب العلم والعلماء. وبفضل وقف الكتب والمكتبات انتشـــرت الثقافة في العالم الإسلامي وشملت جميع طبقـــات الناس، فقـــد كان نظام المكتبات يشـــجع الناس على الإقبال عليها لما يجدونه من العناية والنفقة الســـخية والإقامة المريحة، فينكبُّون على القراءة والنســـخ والمطالعة، لا يزعجهم هَمٌّ، ولا يشغلهم خوف. كل هذا بفضل الخير العميم الذي فاض على المجتمع الإسلامي من مؤسسة الوقف العامرة[5].

كما ســـاهم الوقف على الكتب بطبيعة الحال في تنشيط حركة التأليف في الأندلس؛ حيث تفرغ عدد كبير من العلماء فـــي مختلف المجالات للتأليف نتيجة توفـــر المكتبات الوقفية ووجود عدد لا بأس به في كل مدينة أندلسية.

كما كانت تلك المكتبات تفتح أبواب المعرفة أمام الجميع، وأتاحت لهم فرصة الاطلاع على كتب وعلوم جديدة لم تكن متاحة لعدد كبير مـــن الناس ولعبت دوراً في تثقيف الناس وجعلت من بينهم المفكرين والعلماء والأدباء وأمدتهم بما يحتاجون إليه في تأليف كتبهم.

ولم تكن تلـــك المكتبات مجرد خزائن كتـــب؛ وإنما كانت مؤسســـات تعليمية وتربوية أيضاً، فقد كانت أشـــبه ما تكون بالمدارس والجامعات، وبناءً على ذلك أسهمت بنصيب وافر في العملية التعليمية فكانت مكاناً لعقد حلقات الدرس والمحاورات والمناقشـــات بين العلمـــاء وأهل العلم، وهو مـــا يتيح الفرصة

(١) سيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، ط٧، دار الآفاق الجديدة بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٢) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٣٨

(٣) محمد حسين محاسنة: أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي، العين. ٢٠٠١م ص١٦١.

(٤) شرين السيد عبده: الاتصال الوثائقي في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص ١٥٨.

(٥) راجع أحمد أبو زيد: نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق.

للطلاب لعرض الأسئلة والاستفسارات وتلقِّي الإجابة عنها.

وكان كثير من الأهالي يحبسون كثيراً من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلما فعل عبد الملك بن حبيب السلمي (ت ٢٣٨هـ / ٨٥٢ م) الذي كان له أرض وزيتون بقرية بيرة وهي إحدى قرى غرناطة وكان بها مسجد قراءته وحبس جميع ذلك على مسجد قُرْطُبَةَ[١] ومكتبتِه بطبيعة الحال.

وأمثلة وقف الكتب في الأندلس كثيرة، منها أن العالم أبا الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ / ١٠٨١م) أوقف كل كتبه على مسجد ببيرة عند أبي الحكم عبد الرحمن بن الحاج اللخمي (ت ٦٠١هـ / ١٢٠٤م) خطيب المسجد القائم بالإشراف على مكتبة المسجد[٢].

وهناك العالم ابن مروان الباجي الذي وقف كل كتبه على مكتبة المسجد الجامع بإشبِيليَّة. وكذلك وقف محمد بن محمد بن لب الكناني طائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة[٣]. كما كان الوقف الطريقة التي حصلت بها الجامعات العظيمة مثل جامعتي قرطبة وطُلَيطِلَة[٤] على مكتبتيهما[٥].

وكانت الكتب الموقوفة منهلاً صافياً لطلاب العلم، وكان بعض العلماء يحبسون كتبهم عند أشخاص يثقون فيهم لضمان الحفاظ عليها وعدم تبديدها، وحتى يستفيد منها طلبة العلم بعد وفاة حابسها، ومنهم هارون بن سالم (ت ٢٣٨هـ / ٨٥٢م) الذي وقف كتبه عند أحمد بن خالد[٦]، وقاسم بن سعدان بن عبد الوارث (ت ٣٤٧هـ / ٩٥٧م) الذي حبس كتبه عند محمد ابن أبي دليم[٧]. وقام الفقيه محمد بن عيسى بن إسحق التجيبي

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: ٣/ ٥٤٨.

(٢) شرين السيد عبده: الاتصال الوثائقي في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص ١٥٧.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة: ٣/ ٨٠ – ٨١.

(٤) طُلَيطِلَةُ: كانت عاصمة الأندلس قبل دخول طارق بن زياد، وهي مدينة قديمة في إسبانيا تقع في وسط شبه جزيرة أيبريا على مسافة ٩١ كم جنوبي غربي مدريد. كانت مزدهرة أيام الرومان وتسمى (توليتم) toletum ثم صارت حاضرة الدولة القُوْطِيَّة. فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ (٧١٣م) وجعلوها قاعدة الثغر الأدنى للدولة الإسلامية وحينما سقطت دولة الخلافة الأُمَوية وانقسمت الأندلس إلى طوائف كانت طُلَيطِلَةُ مستقلة يحكمها بنو ذي النون سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) وهم من زعماء البربر وسقطت طُلَيطِلَةُ في يد ملك (قَشْتَالَة)الفونسو السادس في المحرم سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٨٥م) وينتسب إليها كثير من العلماء منهم عيسى بن دينار الغافقي الطليطلي، ومحمد بن عبدالله بن عيشون الطليطلي، وصاعد الأندلسي صاحب كتاب طبقات الأمم (راجع، ياقوت: معجم البلدان (٤/ ٣٩)، وأبو بكر الزهري: كتاب الجغرافية، ص ٨٣، ويوسف بني ياسين: بلدان الأندلس، ص ٣٩١.

(٥) محمد محمد أمان: الكتب الإسلامية، ص ٥٩.

(٦) القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مجلد ٢، ج٣، ص ٤٨.

(٧) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس: ١/ ٣٦٧.

(ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) بحبس كتبه على طلاب العلم بالعدوة[٨]. ووقف أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م) كتبه على أهل العلم فانتفع بها الناس[٩] كما قام محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٨م) بوقف كتبه على أصحاب الحديث[١٠]، ومحمد بن محمد بن محارب الصريحي المالقي (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) فقد عهد بريع كبير على طلبة العلم وحبس عليهم كتبه[١١].

في الختام:

تعتبر المكتبات بصفة عامة ومكتبات الوقف بصفة خاصة من أهم دعائم الحضارة؛ فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الشعب الأندلسي بالفكر والعلم والعلماء.

والوقف على المكتبات يعكس حب المسلمين للعلم وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه. وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله أقبل الناس على وقف الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، وإنَّ وقف المكتبات والكتب كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات[١٢].

(٨) ابن بشكوال: الصلة، ص ٥٥٨.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٨/ ٥١٨، والمقري: نفح الطيب.

(١٠) المقري: نفح الطيب: ٢/ ١٥٧.

(١١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣/ ٧٩.

(١٢) للمزيد من التفاصيل راجع أحمد أبو زيد: نظام الوقف الإسلامي، مرجع سابق.

دليل المبتعث الفقهي للأستاذ فهد سالم باهمام
فقه المغتربين في الخارج... أحكام وتوضيحات معاصرة

أحمد النهدي

من خصائص ديننا الإسلامي الحنيف أنه دين شامل، بيَّن كلَّ ما يحتاج إليه المسلم في أحكام دينه، ولو كان في أقصى الشرق أو الغرب، والرسول ﷺ يقول: «اتق الله حيثما كنت»؛ فالصيام - مثلاً - له أحكام خاصة يستعان في معرفتها بآيات الكون والفلك، والحج كذلك، وأنواع الأطعمة تختلف من قطر لآخر، والعادات والتقاليد تسود أراضي وأقطاراً لا تحكِّم دين الله ولا تدين به، وكذلك النوازل الطبية والمالية وغيرها.

والإنسان المسلم قد يُبتلى ويضطر[1] لزيارة تلك البلدان والعيش فيها إقامة دائمة أو حقبة زمنية للتعلم والعلاج وغيرها. والدراسات الفقهية من أهم ما يوضح للمؤمن عباداته ومعاملاته؛ إذ تختلف المسائل وتتشعب، والمسافرون لمدة طويلة كالمبتعثين لهم أحكام خاصة؛ فهم يواجهون في حياتهم هناك أموراً في بلدان إباحية، أو لا تلتزم بأحكام الإسلام على الوجه المطلوب، وثقافات أخرى غير التي نشؤوا عليها في بيوتهم وبلدانهم المحافظة[2].

ومن الكتب التي صدرت مطلع العام الماضي دليل مهم للمبتعثين بعنوان: دليل المبتعث الفقهي للشيخ الدكتور فهد سالم باهمام (المشرف على موقع الدليل الفقهي)[3].

هذا الدليل هو حصيلة جمع مسائل ملحة تَعرِض للمبتعثين ومن في حكمهم، وأشار المصنف إلى أنه جمعها من اتصالات الإخوة وسؤالاتهم، وهي مما لا يظهر إلحاحه إلا عند البعد عن بلاد الإسلام، وقد بحثها المؤلف ضمن كتب الفقه المعتمدة على المذاهب الأربعة، ومن فتاوى المجامع الفقهية وأهل العلم المعاصرين، دون التقيد بمذهب أو التعصب لرأي جهة أو عالم.

وهي على النحو التالي:

الجزء الأول عباداتك:

الطهارة: وتحتها مسائل، منها: نجاسة الكلب، والمبولة المعلَّقة، وآنية الكفار وملابسهم.

الصلاة: ومن مسائل هذا الباب: هل يعد المبتعَث مسافراً؟ ومكان صلاته، وصلاته في الطائرة، وائتمامه بالمبتدع.

الصيام: ويشمل الاختلاف في دخول الشهر، ومن يطول نهارهم جداً، وما حكم قبول قول الطبيب الكافر.

الجزء الثاني من الكتاب، وهو في صلب معيشة المبتعث، وتحته ما يلي:

طعامك وشرابك: أهمية الطعام الحلال، الخنزير والخمر والكحول، الجيلاتين، الأسماك والمأكولات البحرية، اللحوم.

لباسك: الأصل في اللباس، موافقة لباس أهل البلد، ضابط التشبه بالكفار في اللباس، ما تلبس المرأة أمام الكافرة.

مالَكَ: حكم التحايل لأخذ أموال الكافر، العمل أجيراً عند الكافر، التأمين وبطاقات الائتمان.

الجزء الثالث: علاقاتك، وتحته الفصلين التاليين:

بين الرجل والمرأة: وفصَّل في قضية مصافحة الأجنبية، والخلوة بهن والنظر إليهن.

العلاقة مع الكفار: أركان علاقة الكافر بالمسلم، الإهداء للكافر، وأعياد الكفار، والسكن مع عائلة لتعلم اللغة، وغيرها

---

(١) أقول هنا: «يبتلى ويضطر»؛ لأن من الناس - فعلاً - من قُدِّر له العيش هناك لأي سبب، أو يكون عليه السفر إلى هناك اضطراراً واحتياجاً، وقد يكون الابتعاث للدراسة في بعض الأحيان يدخل تحت هذا.

(٢) ذكر أحد الكتاب رأياً وهو قوله: الهوية الثقافية التي ينشأ عليها الإنسان في بيته بشكل صحيح، لا يمكن أن تهزم بمجرد الاحتكاك بالهويات الثقافية الأخرى، بل ربما يستفيد في تغذية هويته الخاصة من خلال احتكاكه بالثقافات والهويات الأخرى، لكن لا يمكن أن يتم طمسها، هذا ما تعلمناه من خلال التجارب الخليجية مع الابتعاث.

والرحلة للاستزادة من المعرفة موجودة لدى الإنسان منذ القدم، بل كان الناس يقدِّرون من يرحل ليستزيد من العلم ومن المعرفة. وقديماً في فترة ما قبل الميلاد رحل أرسطو سنة (٣٦٧ ق.م) من مدينة «ستاغيرا» إلى «أثينا» ليلتحق بمعهد أفلاطون... آمل أن يؤسس الابتعاث الجديد لثقافة تنير مستقبل الأجيال! [في سير السلف من الأمثلة ما هو أولى].

(٣) هذا موقع يهتم بقضايا المسلمين في الخارج، والمسلمين الجدد، وهناك كتاب دليل المسلم الجديد كذلك للمؤلف، وسيصدر قريباً كتاب دليل السائح.

من المسائل المتنوعة.

وبين ثنايا الكتاب لفتات إخراجية رشيقة ورائعة من التنبيه والاستذكار، فختم كل مسألة بخلاصة لها تحت عنوان (تذكر) فاصلةً سريعةً مع ذكر مخطط بالأسهم يسهِّل عملية المراجعة الفورية، كما تطرق إلى ذكر فوائدَ وقصص جميلة أضفت على الكتاب جواً لطيفاً؛ وذلك عند ما يناسبها من المسائل كمحطات استراحة ومعلومات مفيدة، مثل: (الصلاة في الكنيسة، وبداية أكل النصارى للحم الخنزير، وقصة ثمامة بن أثال، ولفتات مما يحدث في الفنادق والأماكن العامة، وجدول شامل لأسماء الخمر ومسمياتها في تلك الدول للحذر منها)[1].

إن الكتاب يلحظ المطلع عليه ترتيبه المبتكر، وصياغته الواضحة والميسرة للجميع مع حسن تحرير المسائل؛ إذ يمكن أن يستفيد منها الفقيه المنتهي، وهي تحريرات تناسب المبتعثين دوت انفلات أو مبالغة في التيسير. وقد ابتدأ الكتاب برسالة للشيخ علي الطنطاوي لأخيه النازح إلى باريس من كتابه (صور وخواطر)[2]، وختمه برسائل عاجلة للمبتعَث، وهي:

إذا قضى نهمته فليرجع: ذكر فيها شروط الإقامة في بلاد الكفر مع تدعيم بشاهد لابن حجر، رحمه الله.

استفت قلبك: متى يستفتي المؤمن قلبه، وما العمل إذا

تعارضت فتوى القلب مع فتوى الفقيه؟

وأنتم الأعلون: تذكير بعزة المؤمن في تلك المواطن.

إلى صاحب العظمة: رسالة قديمة من ملك أوروبي إلى خليفة المسلمين في الأندلس، قد لا يصدق قارئها ما يقرؤه حقاً مع ما يشاهده في هذا الزمن من حضارة الغرب.

إنه فعلاً نزهة علمية وفقهية وتاريخية وتربوية وتثقيفية لا يكاد يُمَل.

ولقد قمت بزيارة الموقع وأعجبت بحسن إخراجه، ومما شدني فيه كذلك تعليقات الزوار الذين قرؤوا الكتاب تصفحاً عبر الموقع مباشرة، وكانت تعليقاتٍ مثلجة للصدر من هؤلاء المبتعَثين الذين رأوا أن الكتاب فتحٌ لهم كانوا ينتظرونه بشغف؛ حتى أصبح رفيقاً لهم في رحلتهم.

ومما يوصى به كذلك نشر هذا الكتاب ورابط موقعه بين المبتعَثين[3]؛ ولا سيما أن الحاجة ملحة مع كثرة السفر إلى الخارج وازدياده من أبناء المسلمين، ناهيك عن جهلهم بكثير من أحكام شريعتهم في تلك القضايا.

جزى الله مؤلف الكتاب خير الجزاء، ونتمنى له التوفيق في بقية مشاريعه في خدمة هذا المجال، وحمى الله أبناءنا المبتعثين في الخارج وردَّهم إلى أهليهم سالمين منصورين موفقين، ونفع الله بهم بلدانهم وأمتهم.

(3) http://www.fikhguide.com

---

(١) كنت أود لو جمعت كلُّ هذه المسائل والفوائد مفروزة في جدول مستقل آخر الكتاب، ولعله يكون في الطبعات القادمة.

(٢) من كلام الشيخ – رحمه الله – في رسالته: «... فانتبه لنفسك واستعن بالله؛ فإنك ستقدم على قوم لا يبالي أكثرهم العفاف، ولا يحفل بالعرض. سترى النساء في الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة، وقد أذلتهن مدنية الغرب وأفسدتهن، وهبطت بهن إلى الحضيض فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف. وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك مخدَّرات معصومات كالدُّرِّ المكنون، شأن نساء الشرق المسلم؛ حيث المرأة عزيزة مكرمة، محجوبة مخدَّرة، ملكة في بيتها، ليست من تلك الحطَّة والمذلة في شي...

فإياك! أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك، أو يذهب بلبِّك جمال لها مزور، أو ظاهر خداع، هي والله الحية؛ ملمس ناعم، وجلد لامع، ونقش بارع، ولكن أنيابها السم... إياك والسم!» إلى أن قال: «وإنما أنت ابن المجد والحضارة، ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً، ابن الأمة التي لو حذف اسمها من التاريخ لأمض (أي رجع) تاريخ القرون الطويلة صحفاً بيضاً لا شيء فيها؛ إذ لم يكن في هذه القرون بشر يدوِّن التاريخ سواهم... فمن هؤلاء الذين ترى؟

إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون، ولكنَّ أمتك بنت الدهر، لما ولد الدهر كانت شابة، وستكون شابة حين يموت الدهر».

ويمكن أن أنقل كلاماً حول ذلك أيضاً لأحد الكتاب:

«وهناك عدة لبنات يمكن أن تجعل منك منافساً قوياً: أولها وأهمها على الإطلاق: الإيمان بقدراتك الذاتية، التي ستواجه أول تحدٍّ لها عند التحاقك بالجامعة في الخارج. فعليك الحذر كل الحذر من الصدمة الأولى والانبهار بما لدى الآخرين من مخزون معلوماتي ناتج عن نظام التعليم الأساسي الذي تحصَّلوا عليه إبَّان مراحل تعليمهم الأولية الذي قد يفوق بمراحل ما أخذته هنا، فلا تجعل ذلك الشعور يقودك إلى اختيار الطريق الأسهل في التخصص من أجل العودة السريعة، بل عليك أن تدرك أنها الخطوة الأولى نحو تميُّزك المعرفي وبالتالي نجاحك العملي، وأن ردم الهوة المعرفية مع زملائك الدارسين سهل المنال؛ إلا أنه يتطلب منك جهداً مضاعفاً في البداية». (منقول)

ظاهرة العُنُوسة..
الأسباب والعلاج

عبده قايد الذريبي

«العُنُوسة» ظاهرة عمَّت المجتمعات، ودخلت جُلَّ البيوتات، وحطمت آمال وتطلعات كثير من الشباب والشابات.

والعُنُوسة لفظ يطلَق على النساء والرجال. قال ابن منظور في مادة «عنس»: «قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: عَنَسَتِ الْجَارِيَةُ تَعْنُس إِذا طَالَ مُكْثُهَا فِي مَنْزِلِ أَهلها بَعْدَ إِدْراكها حَتَّى خرجتْ مِنْ عِداد الأَبكار، هَذَا مَا لَمْ تَتَزَوَّجْ، فإِن تَزَوَّجَتْ مرَّة فَلَا يُقَالُ عَنَسَت... وَرَجُلٌ عانس. قَالَ أَبو قَيْسِ بْنُ رَفَاعَةَ:

مِنَّا الَّـذي هُـوَ مَا إِنْ طَـرَّ شارِبُه
والعانِسُون ومِنَّا المُـردُ والشِّيبُ[1]

فهذه الظاهرة آفة باتت تهـدد كيان المجتمعات العربية كما تشـير إلى ذلك الدراسـات والإحصائيات؛ ففي مصر أظهرت دراسة الجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء أن عدد من وصلوا إلى سن الخامسة والثلاثين دون زواج وصل إلى تسعة ملايين شخص، منهم ما يزيد على ثلاث ملايين امرأة، وستة ملايين رجل.

كما أوضحت إحصائية وزارة التخطيط السـعودية أن عدد النساء اللاتي بلغن الثلاثين دون زواج وصل إلى مليون و٩٠ ألف.

ووَفْقاً للإحصائيات الرسـمية الجزائرية فإن نسبة النساء العازبـات وصلت إلى ٥١٪ من إجمالي عدد النسـاء، من بينهم أربعة ملايين فتاة لم يتزوجن رغم تجاوزهن سنَّ الرابعة والثلاثين.

وأوضحت الدراسـة التي أعدها أسـتاذ علم الاجتماع الأردني الدكتور إسـماعيل الزيود بعنوان «واقع العُنُوسة في العالم العربي» أن ٥٠ ٪ من الشـباب السوري عازبون، و٦٠ ٪ من الفتيات السوريات عازبات، وبذلك تكون النسبة الكلية في سورية نحو ٥٥٪ ممن بلغوا سن الزواج.

وفي السـياق نفسه فإن نسبة العازبين بلغت ٢٠٪ في كلٍّ من السـودان والصومال، وفي العراق ٨٥ ٪ ممن بلغن سـن الزواج وتجاوز عمرهن الخامسة والثلاثين بسبب العيش تحت الاحتلال.

وأظهرت الدراسـة أن نسـبة العازبات في البحرين أكثر مـن ٢٠٪، وفي الكويت ٣٠٪، وأن ٣٥٪ مـن الفتيات في كلٍّ من الكويت وقطر والبحرين والإمارات بلغن مرحلة العُنُوسـة أو (اليـأس من الزواج)، وانخفضت هذه النسـبة في كلٍّ من السـعودية واليمن، بينمـا بلغت ٢٠٪ في كلٍّ من السـودان والصومـال، وبلغـت١٠٪ في كلٍّ من سـلطنة عُمان والمملكة المغربية، وكانت في أدنى مسـتوياتها في فلسـطين؛ حيث لم تتجاوز فتاةً واحدة من بين كل مائة فتاة»[2].

وهذه الظاهرة تختلف نسبتها من بلد إلى آخر، ومن بيئية إلى أخرى، تبعاً لاختلاف الأسباب المؤدية إليها.

وحول انتشـار هذه الظاهرة وتفشـيها فـي المجتمعات العربية نسـلط الضوء عليها من خلال إجابتنا عن سـؤالين مهمين: السـؤال الأول: ما أسـباب هذه الظاهرة؟ والسؤال الثاني: ما علاج لهذه الظاهرة؟

أولاً: أسباب هذه الظاهرة:

تتعدد الأسباب، وتختلف العوامل التي أدت وما تزال إلى انتشار هذه الظاهرة وتفشيها، وتصب جميعها في بوتقة البعد عن منهج رب العالمين، وهدي سـيد المرسلين، ومن الأسباب

(١) ينظر: لسان العرب: (٦/ ١٤٩)، دار صادر. ومعجم مقاييس اللغة: (٤/ ١٥٦) لا بن فارس، دار الفكر.

(٢) المصدر: (http://www.albayan.co.uk/article.aspx?ID=499)

التي تقف وراء هذه الظاهرة إجمالاً:

أولاً: العادات والتقاليد.

ثانياً: الآباء والأمهات.

ثالثاً: الفتيات.

رابعاً: أسباب اجتماعية وقدرية.

خامساً: وسائل الإعلام.

فهذه خمسة أسباب رئيسية وراء تفشي هذه الظاهرة، ونزيد الأمر توضيحاً، فنقول:

أولاً: العادات والتقاليد: فلكل مجتمع عاداته وتقاليده السائدة فيه، وهذه العادات والتقاليد منها الصالح النافع، ومنها الطالح الضار، ومن العادات الخاطئة، والتقاليد السيئة التي ساهمت في تفشي هذه الظاهرة وازديادها، ما يأتي:

١ - المغالاة في المهور، والتباهي فيها: وهذا سبب رئيسي في هذه المشكلة، وعائق كبير يحول دون زواج كثير من الفتيان. وهذه مشكلة تواجه جُلَّ الشباب الراغبين في الزوج، كما صرَّح بذلك كثير من الشباب، وكما يشهد بذلك الواقع.

٢ - اشتراط القبيلة، وجعلها عائقاً أمام الشباب: فبعض الناس يشترطون في الرجل الذي يرغب في الزواج منهم أن يكون من قبيلة فلان، ويشددون في هذا الأمر دون مراعاة لإيمانه وورعه وأخلاقه، وهو ما أدى إلى كثرة الفتيات وازدياد العوانس.

٣ - التزام الترتيب بين الفتيات في الزواج: فبعض الأسر لديهم طقوس معينة في تزويج بناتهم، فتجدهم لا يزوجون البنت الصغرى قبل الكبرى مهما كانت الظروف! ففي أحيان كثيرة نجد أن بعض الفتيات يتقدم لهن أكثر من خاطب في أوقات متفرقة، فيُرَدُّون بحجة أن الفتاة الكبرى لم تتزوج بعد! وهكذا يستمر هذا المسلسل حتى يصل الفتيات في البيت جميعاً إلى مرحلة العُنُوسة.

ثانياً: الآباء والأمهات: ويتجلى هذا السبب من خلال الآتي:

١ - جشع بعض الآباء: فمن الآباء من يصد الخطَّاب عن ابنته لأنها موظفة تدرُّ عليه دخلاً شهرياً، ومنهم من إذا رأى في ابنته جانباً من الجمال والأدب الجم، دفع عنها الخطَّاب على أمل أن يتقدم لها أصحاب جاه أو ثروة، فيساومه عليها، وهذا الصنف وإن كان قليلاً في المجتمع إلا أنه موجود، ولا يسعنا تجاهل كونه سبباً وراء انتشار هذه الظاهرة.

٢ - الشروط التعجيزية التي يفرضها والدا الفتاة على الزوج: وهو ما يدفعه إلى العدول عن الزواج بابنتهما.

٣ - سوء سمعتهما: كأن تكون سيرتهما - جميعاً، أو أحدهما - غير حسنة.

٤ - كثرة المشاكل بينهما: فتنشأ الفتاة ولديها عقدة عن الزواج، فترفض الإقدام عليه خوفاً من الوقوع في المشاكل ذاتها.

ثالثاً: الفتيات: فلا يمكن لإنسان منصف أن يعفيهن من دورهن في انتشار هذه الظاهرة؛ وذلك من خلال الأمور الآتية:

١ - تعذُّرهن بإكمال الدراسة: فبعض الفتيات يرفضن الزواج بحجة إتمام الدراسة، فيمضي بهنَّ قطار العمر، ويتقدم بهن السن، فلا يشعرن إلا حين يقف بهنَّ في محطة العُنُوسة.

٢ - رفض بعضهن للخاطب إذا كان متزوجاً بزوجة أخرى.

٣ - غرور بعضهن واعتقادهن أن فارس أحلامهن لم يولد بَعْدُ، وأنه لا أحد يستحق جمالهن.

٤ - حرص بعضهن على الوظيفة، حتى أن بعضهن يشترطن على الخاطب أن لا يمعنهن من العمل.

٥ - اختيار بعضهن للعنوسة اختياراً؛ وذلك من خلال بحثهن عن ما يسمونه الحرية الزائفة، والتحلل من القيود، والتهرب من الالتزامات.

٦ - سوء سمعة بعضهن: بتركهن الحجاب، وغشيانهن للأماكن المختلطة والمشبوهة.

٧ - انسياق بعضهن وراء التيارات الفكرية المنحرفة التي تنادي - زوراً وبهتاناً - بتحرير المرأة، ومساواتها بالرجل.

رابعاً: أسباب اجتماعية وقدرية: فمن أهم الأسباب الاجتماعية:

١ - أزمة المساكن، وارتفاع أسعار وأجور العقارات: ففي بعض البلدان والمجتمعات يعد البحث عن المسكن الملائم ليكون عش الزوجية من المهمات الصعبة، ومن الأمور التي تثقل كاهل الشباب الذين يرغبون في الزواج، وبخاصة إذا كانوا من ذوي الدخل المحدود، الذين لا يفي دخلهم بمتطلبات تأسيس بيت، والإنفاق على أسرة في مجتمع يهتم بالشكليات والمظاهر.

٢ - ضيق فرص العمل: فارتفاع نسبة البطالة بين السكان القادرين على العمل من أبرز الأسباب الكامنة وراء عزوف كثير من الشباب عن الزواج، وخاصة في الدول الفقيرة والنامية.

وأما الأسباب القدرية، فمنها:

١- الحروب المدمرة: التي يذهب ضحيتَها الآلاف من الشباب، فتزيد نسبة الإناث إلى الذكور.

٢ - كثرة المواليد من الفتيات؛ كما يشهد بذلك الواقع.

خامساً: وسائل الإعلام: وذلك من خلال الأمور الآتية:

الدعوة لمساواة المرأة بالرجل.

محاربة التعدد، وتجريمه.

محاربة الزواج المبكر.

نشر الصور الإباحية، والأفلام الخليعة.

تشجيع الصداقة بين الجنسين، والحب الوهمي بين الشباب والفتيات.

ثانياً: علاج هذه الظاهرة:

يكمن علاج هذه الظاهرة والحد منها في معرفة أسبابها (وقد عرفنا بعض أسبابها)، ومن العلاجات ما يأتي:

أولاً: تخفيف المهور وتسهيلها، والبعد عن المغالاة فيها: فقد حث الإسلام على ذلك. قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «ألا لا تغالوا صدقة النساء؛ فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبي الله ﷺ، ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقية»[١].

وزاد ابن ماجة: «وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه»[٢]. وحث على تذليل العقبات أمام الشباب. قال صاحب الظلال: «إن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها. والعقبة المالية هي العقبة الأُولَى في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس»[٣].

وحث الإسلام على تزويج الشباب الأكفياء، وحذر من ردِّهم؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[٤].

قال الملا علي القاري: «لأنكم إن لم تزوجوها إلا من ذي مال أو جاه ربما يبقى أكثر نسائكم بلا أزواج، وأكثر رجالكم بلا نساء، فيكثر الافتتان بالزنا، وربما يلحق الأولياء عار فتهيج الفتن والفساد، ويترتب عليه قطع النسب، وقلة الصلاح والعفة»[٥].

وفي منع الفتاة: «من تزويجها بكفئها ثلاث جنايات: جناية الولي على نفسه بمعصية الله ورسوله، وجناية على المرأة حيث منعها من كفئها الذي رضيته، وجناية على الخاطب حيث منعه من حقٍّ أمَرَ الشارع بإعطائه إياه»[٦].

وحذرٌ من عضل الفتاة، وتأخير زواجها بالرجل الكفؤ؛ فعن علي أن النبي ﷺ قال له: (ثلاث لا تؤخر: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت لها كفؤاً)[٧].

وهناك طريقة عملية في تسهيل أمر الزواج، وتخفيف حدة المغالاة في المهور، قد أشار إليها ابن عثيمين، فقال: «ولو أننا نسلك طريقة لتسهيل الأمر، وتخفيف حدة المغالاة بتأجيل بعض المهر، بأن تقدم من المهر ما دعت الحاجة إليه في النكاح، ونؤجل الباقي في ذمة الزوج لكان هذا جائزاً وحسناً، وفي ذلك تسهيل على الزوج، ومصلحة للزوجة؛ فإن ذلك أدعى لبقائها معه؛ لأنه لو طلقها لحل المهر المؤجل إذا لم يكن له أجل معين»[٨].

بل إن الآباء الصلحاء يسهلون أمر الزواج، ويختارون لبناتهم الأكفياء من الرجال؛ ويعرضون ذلك عليهم؛ فهذا الرجل الصالح صاحب مدين يعرض بنته على موسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧] قال القرطبي: «فيه عَرْض الولي ابنتَه على الرجل، وهذه سنة قائمة، عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضتِ الموهوبة نفسها على النبي ﷺ، فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح. قال ابن عمر: لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر»[٩].

وعرض سيد التابعين سعيد بن المسيب ابنته على أحد طلبته، وزوَّجه بها؛ فعن ابن أبي وداعة، قال: «كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياماً، فلما جئته، قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، قال: ألا أخبرتنا فشهدناها. قال: ثم أردت أن أقوم، فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة،

(١) أخرجه الترمذي: (١١١٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح: (٣٢٠٤).

(٢) رواه بن ماجة: (١٨٨٧)، والنسائي: (٣٣٤٩).

(٣) في ظلال القرآن: (٤/ ٢٥١٤ - ٢٥١٥)، دار الشروق.

(٤) أخرجه الترمذي: (١٠٨٤) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٠٩٠) وغاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: (٢١٩).

(٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٥/ ٢٠٤٧).

(٦) الضياء اللامع: (٢/ ٢٦٠).

(٧) أخرجه الترمذي: (١٠٧٥). وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح: (٦٠٥).

(٨) الضياء اللامع: (٢/ ٢٦٠).

(٩) الجامع لأحكام القرآن: (١٣/ ٢٧١)، دار الكتب المصرية.

فقال: أنا، فقلت: أو تفعل؟ نعم، ثم حمد الله وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين، أو ثلاثة»[1].

ثانياً: أن يبادر الشباب إلى الزواج: فقد حث الإسلام كل شباب قادر على مؤنة النكاح (المهر والنفقة) على المبادرة إلى ذلك، فقال - تعالى -: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢] قال ابن عباس: «أمر الله - سبحانه - بالنكاح، ورغَّبهم فيه، وأمرهم أن يزوِّجوا أحرارهم وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى»[2].

وأوصى النبي ﷺ بذلك؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فَلْيتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج...»[3].

وتكفل الله - تبارك وتعالى - بإعانة الشباب العازمين على الزواج؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»[4].

ثالثاً: أن يبادر الرجال المتزوجون إلى التعدد: فقد أباح لهم الإسلام ذلك بضوابطه وشروطه، فقال - تعالى -: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]. قال ابن سعدي: «أي مَنْ أحب أن يأخذ اثنتين فَلْيفعل، أو ثلاثاً فَلْيفعل، أو أربعاً فَلْيفعل، ولا يزيد عليها؛ لأن الآية سيقت لبيان الامتنان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله - تعالى - إجماعاً»[5].

والتعدد بضوابطه ميزة تميز بها الإسلام عن بقية الأديان. قال صاحب الظلال: «فقد جاء الإسلام إذن، وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل (بدون حد ولا قيد) فجاء ليقول للرجال: إن هناك حدّاً لا يتجاوزه المسلم (هو أربع) وإن هناك قيداً (هو إمكان العدل) وإلا فواحدة، أو ما ملكت أيمانكم.

جاء الإسلام لا ليطلق، ولكن ليحدد، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل، ولكن ليقيد التعدد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة»[6].

والإسلام حينما أباح ذلك إنما أباحه لما فيه من المصالح المرعية للرجال والنساء. قال صاحب أضواء البيان: «فالقرآن أباح تعدُّد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددُها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر. وتحديد الزوجات بأربع: تحديد من حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع»[7].

رابعاً: أن لا تجعل الفتيات الدراسة عائقاً لهن عن الزواج: فإن الزواج بالنسبة للفتاة أهم من الدراسة؛ لأن قطار الزواج يفوت بخلاف الدراسة فمجالها واسع، وقد ندمتْ كثير من الفتيات على زمان مضى رفضن فيه الزواج، وقدَّمن الدراسة عليه؛ حتى أن إحداهن صرخت بأعلى صوتها قائلة: «خذوا شهاداتي وكلَّ مراجعي، وأسمِعوني كلمة «ماما»، وتقول إحداهن والبكاء يقطع أحشاءها:

لقد كنتُ أرجو أن يقال: طبيبةً
فقد قيل، ماذا نالني من مقالها؟
فقل للتي كانت ترى فيَّ قدوة:
هي اليوم بين الناس يرثى لحالها

خامساً: العمل على حل أزمة المساكن، وضيق فرص العمل: وذلك من خلال إيجاد فرص العمل المباحة، وتنمية مهارات وقدرات الشباب، وهذا واجب من واجبات الدول والحكومات، وينبغي للمؤسسات والجمعيات الخيرية أن تساهم في ذلك، وأن تقيم المشاريع الخيرية التي تسهم في زواج الشباب، وتخفف من معاناة الشباب.

سادساً: أن تقوم وسائل الإعلام بدورها المنشود: وأن تكون أدواتَ تشجيع للشباب والفتيات على الزواج، لا أن تكون أدوات تخذيل وتثبيط، وأن تعمل على إبراز فضائل التعدد، وقبوله بشروطه الشرعية، وتشجيع الزواج المبكر ما كانت المصلحة فيه، وقلَّتْ أضراره بغلبة الظن، وأن تُحجِم عن الدعوة إلى الإباحية، ونشر الصور الخليعة.

فهذه بعض الحلول التي إن عملنا بها وأخذناها بعين الاعتبار، فسنحد من هذه الظاهرة بإذن الله.

---

(١) انظر القصة كاملة في «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»: (٦/ ٣٢٤ - ٣٢٥)، دار الكتب العلمية. وسير أعلام النبلاء: (٥/ ٢٣٣ - ١٣٤)، ط، الرسالة.
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: (١٩/ ١٦٦).
(٣) أخرجه البخاري: (٥٠٦٦)، ومسلم: (١٤٠٠).
(٤) أخرجه الترمذي: (١٦٥٥)، والنسائي: (٣٢١٨) وقال الترمذي: «حديث حسن»، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (١٩١٧) ومشكاة المصابيح: (٣٠٨٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص(١٦٣)، مؤسسة الرسالة.
(٦) للمزيد يراجع: في ظلال القرآن: (١/ ٥٧٨ - ٥٧٩)، ط: الشروق، ففيه كلام نفيس حول هذه المسألة المهمة.
(٧) أضواء البيان: (٣/ ٢٤)، ط، دار الفكر.

شهيد المنبر!

كان شابّاً طموحاً، تقلَّد مسؤوليةَ الإمامة في مدينة بعيدة عن مسقط رأسه، وكانت تجربةً أُولَى من نوعها، كان بحقٍّ قدوةً في محرابه ومنبره، شجيَّ الصَّوت، فصيحَ اللِّسان، مسموعَ الكلمة؛ لذلك أصبح محبوباً عند الجميع، تجربتُه الجديدة أَمْلتْ عليه أن يكون قدوة ساكنة الحيِّ، ورغمَ أنَّه كان شابّاً لا يتجاوزُ خمساً وعشرين ربيعاً فقد ساعده هندامُه الأنيق، وجلبابُه المغربي الأصيل أن يكون محترماً؛ كما لو أنَّه شيخٌ كبير وقور ذو شيبة. وفي يومٍ من الأيام بعدما أدَّى الإمامُ صلاتَه وأنهى أورادَه، خرج كعادته إلى مركز المدينة ليختلطَ بالنَّاس ويتعرفَ على طينتهم أكثر، وبينما هو كذلك سرقه أحد الأزقة الضيقة، فإذا بشخصين في عراكٍ عنيف بيد أحدهما سكينٌ، صرخ الإمامُ فيهما بصوتٍ دافئ أثارَ الانتباهَ، وحُبِسَتْ له الأنفاسُ، اجتمع النَّاسُ حولَ مسرحِ الصِّراع وكلٌّ يحدوه الأمل أن يحولَ الرَّجلُ بين المتعاركَيْن، ثبتَ كلُّ واحدٍ منهما بمكانه، وتقدَّم الإمام بخطًى حثيثة تقدُّمَ الواثقِ من نفسه، مادّاً يدَه البريئةَ نحو السِّكين، اغتنم الطرفُ الثاني سهوَ صاحبه فتقدَّم إليه كالبرقِ الخاطف، فرمى الإمامُ بكلِّ جسمه نحوه مانعاً إياه من التقدُّم، ولكنَّ السِّكين الطائشةَ اخترقتْ جلبابَه الأبيض لترديه قتيلاً، جثة هامدة بلا حِراك ليصبحَ شهيد إصلاحِ ذاتِ البَيْن.

أحمد باز

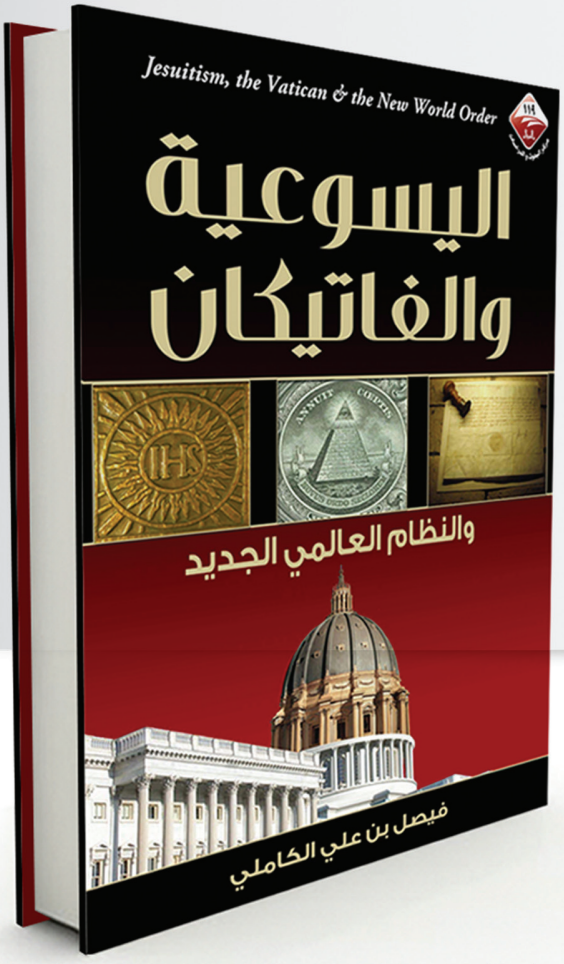

اليسوعية والفاتيكان

و النظام العالمي الجديد.

جديدنا

اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن ((أصحاب الأيكة)) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب

((اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

احتساب ابن تيمية على المتديِّنة!

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net

سيرة ابن تيمية حافلة بجوانب متعددة ومجالات متنوعة في الاحتساب؛ فالاحتساب العملي ظاهر في تقريراته وتطبيقاته؛ حتى أنه في هذا الشهر (شوال) سنة ٧٠١هـ ثار جماعة من الحَسَدة عليه، وشَكَوا منه أنه يقيم الحدود ويعزِّر... ثم بيَّن خطأهم، فسكنت الأمور(١).

ومِن قَبْل ذلك في سنة ٦٩٩هـ دار ابن تيمية وأصحابه على الخمَّارات والحانات، فكسروا آنية الخمور، وعزَّروا جماعة من أهل الحانات، ففرح الناس بذلك(٢).

وحكى - رحمه الله - طرفاً من ذلك الاحتساب فقال: «... مثل الشخص الذي قتلناه سنة خمس عشرة(٣)، وكان له قرين يأتيه ويكاشفه(٤)، وكان قد انقاد له طائفة من المنسوبين إلى أهل الإسلام والرئاسة فيكاشفهم حتى كشف الله أمره»(٥).

وأفرد إبراهيم الغياني فصلاً في ما قام به ابن تيمية وتفرَّد به دون غيره من العلماء؛ وذلك بتكسير الأحجار التي يُتبَرَّك بها(٦)، ومن ذلك أنه كسر العمود المخلَّق بدمشق وأتلفه، وقد كان الإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) يدعو الله - تعالى - قائلاً: اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المخلَّق(٧)!

ولئن كان الله - تعالى - قد استجاب دعوة النووي، فإن هذا الواقعة تكشف أن هذه المظاهر الوثنية قد استحكمت وتمكنت؛ حتى أن الإمام النووي تعسَّر عليه إزالة هذا العمود، فلم يملك إلا الدعاء. مع أن النووي - كما وصفه السبكي -: «أَمَرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر أشهر من أن يُذكَر»(٨).

كما أن هذه الحادثة (ونظائرَها) تعطي دلالة ظاهرة على تغلغل هذه الشركيات والخرافات في نفوس الناس؛ حتى أن الذين رافقوا ابن تيمية لأجل تكسير ذاك العمود، سرعان ما تخلَّوا عن ذلك وجبنوا عن المبادرة. حتى شرع ابن تيمية في تكسيره فتتابع الناس(٩).

والحاصل: أن احتساب ابن تيمية قد استوعب مجالات الاحتساب وجميع فئات الناس؛ فمن الاحتساب السياسي، إلى الاحتساب في العبادات والأحوال، إلى الاحتساب الأخلاقي والاجتماعي، إلى الاحتساب الاقتصادي، كما أنه احتسب على الحكام والعلماء والعبَّاد والعامة، وعلى أهل الكتاب وأهل الابتداع، بالمقال والفعال كما هو مبسوط في موضعه. وسنقتصر في هذه السطور على مواقف محددة من احتسابه على المتديِّنة كما يلي:

١ - تحدَّث - رحمه الله - عن آفة بعض المتديِّنين الذين ينكصون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتدثرون بأن ذلك التَّرْك والفرار هو من باب الهروب من الفتنة فقال: «وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي عن المنكر الذي يكون به الدين، وتكون كلمة الله هي العليا لئلا يفتنوا، وهم قد سقطوا في الفتنة، وهذه حال كثير من المتدينين يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله لئلا يفتنوا بجنس الشهوات وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منها»(١٠).

وذكر في موطن آخر أن المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي ظنّاً أن ذلك من باب ترك الفتنة؛ حتى أن بعضهم أسقط شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١١)! فهؤلاء المتديِّنة لا يقتصرون على مجرد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن في ذلك تفريطاً ظاهراً وعصياناً بيِّناً؛ لكنهم تجاوزوا ذلك إلى بليَّة أطمَّ؛ حيث صيَّروا هذا التقاعس والتنصُّل من باب التخوُّف من الفتنة، والحذر من الولوج إليها، لكن الواقع أنهم في فتنة متحققة؛ فهم فروا من فتنة متوهَّمة ومتوقَّعة إلى فتنة متحقِّقة واقعة!

وما حققه ابن تيمية ليُؤكد أهمية الرسوخ والفقه لأحكام الاحتساب، كما يقرر ضرورة تحريك الفقه الباطن، وإحياء

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) ينظر: البداية لابن كثير: ١٤/ ٢٠.
(٢) ينظر البداية لابن كثير: ١٤/ ١٢.
(٣) بعد المائة السابعة.
(٤) أي: كان له قرين من الجنّ يخبره بالمغيَّبات.
(٥) جامع الرسائل: ١/ ١٩٦.
(٦) ينظر: الجامع لسيرة ابن تيمية، ص٧٨ - ٩٦.
(٧) المرجع السابق، ص ٨٠ - ٨١.
(٨) طبقات السبكي: ٨/ ٣٩٧.
(٩) انظر تفصيل ذلك في الجامع لسيرة ابن تيمية، ص ٨٠ - ٨١.
(١٠) الاستقامة: ٢/ ٢٩٠، وانظر: مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٦٧.
(١١) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح: ١/ ١٧٧.

واعظ الله في قلب كل مسلم. قال – تعالى –: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤ – ١٥] «فالإنسان شاهد ومحاسَب، ومعاذيره لا تُقبَل، بل يقرر بعمله. فالعبد وإن أنكر أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئاً»[١].

وقال – رحمه الله –: «فالاعتذار عن النفس بالباطل، والجدال عنها لا يجوز، بل إن أذنب سراً بينه وبين الله اعترف لربِّه بذنبه، وخضع له بقلبه، وسأله مغفرته»[٢].

٢ – وكما هي منهجية ابن تيمية في تحقيق العدل والوسط في التقريرات والردود، والمسائل والدلائل؛ فهو لا يستغرق في مدافعة انحراف ويغفل عما يقابله؛ بل إنه يدافع التفريط والإفراط مراعياً تفاوت مراتب الشرور؛ فلئن كان – رحمه الله – حذَّر من التقصير في باب الاحتساب، فإنه غلَّظ على من أفرط وبغى في الأمر والنهي، فقال – رحمه الله – عن قوله – تعالى –: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]: «ألاَّ يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمِّهم أو نهيهم أو هجرهم أو عقوبتهم؛ فإن كثيراً من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله: إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه؛ وسواء ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين... وما أكثر ما يصوِّر الشيطان ذلك بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان. وأنت أذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها و عبَّادها وأمرائها وجدتَ أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الرافضة على المتسننة مرات متعددة، وكما قد يبغي بعض المتسننة إما على بعضهم، وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به»[٣].

فابن تيمية يحذِّر من مجاوزة الحدِّ في الاحتساب، وأن بعضهم يقارف البغي والعدوان باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن أهل التفريط يتركون الاحتساب باسم اجتناب الفتنة، وهذا يكشف عن دارية هذا الإمام الرباني بآفات النفوس وكمائنها عند المتديِّنة.

ثم إنه – رحمه الله – أشار إلى أن التفرُّق عند أرباب المعارضات الثلاث (الملوك، العلماء، العباد[٤]) ناشئ عن ذلك البغي، ولا يغيب عنه «النقد الذاتي» لبعض أهل السُّنة وأنه قد يقع منهم بغي؛ سواء في ما بينهم، أو مع بعض المبتدعة، وهكذا أخلاق أئمة السُّنة: إنصاف من أنفسهم، وعدل وموضوعية، ورحمة وإعذار.

٣ – حرر ابن تيمية أن الاحتساب له حالتان: فمن كان قادراً فعليه الانتصار والمدافعة ومجانبة العجز والإضاعة، ومن كان عاجزاً عن الاحتساب فعليه بلزوم الصبر والتجلُّد والحذر من الجزع واليأس. «فالأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه»[٥]. وقال – رحمه الله –: «ضد الانتصار العجز، وضد الصبر الجزع، فلا خير في العجز ولا في الجزع كما نجده في حال كثير من الناس حتى بعض المتديِّنين إذا ظلموا أو رأوا[٦] منكراً فلا هم ينتصرون ولا يصبرون، بل يعجزون ويجزعون»[٧]

وقال في موطن آخر: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغيَّر كثير من أحوال الإسلام جزع وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام»[٨].

وهذا العجز والكسل، والجزع والتسخط قد يكون بلسان الحال؛ فإن بعض المتدينة قد لا يتفوَّه بالجزع ولا بالعجز؛ لكن أحواله وفعاله وسائر شؤونه لا تنفك عن شوائب العجز والإضاعة والتواني، ودسائس الجزع والتسخط واليأس.

٤ – بيَّن – رحمه الله – أن بعض المنكرين قد يستحوذ عليهم الترك والإنكار والتقصير في لزوم السنن وفعل المعروف، وأن ذلك مخالف للشرع، كما أنه مصادم لطبيعة النفس البشرية التي جُبلت على العمل، فأصدق ما يسمَّى به الإنسان أنه حارث لا يفارق العمل والسعي والاكتساب.

قال – رحمه الله –: «وكثير من المنكرين لبدع العبادات والعادات تجدهم مقصِّرين في فعل السنن من ذلك أو الأمر به؛ فلا يُنهَى عن منكر ولا ويؤمَر بمعروف يغني عنه، كما يُؤمَر بعبادة الله – سبحانه – ويُنهَى عن عبادة ما سواه. والنفوس خُلقت لتعمل لا لتترك؛ وإنما الترك مقصود لغيره؛ فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ أو الناقص»[٩].

وهذا واقع مشاهَد عند بعض إخواننا المتديِّنة، وإذ يغلب عليهم النفي والسلب في الاحتساب، والاقتصار على سرد المنهيات والمبتدعات، مع أن فعل المعروف ولزوم السنن آكد من ترك هذه المخالفات، فإن المأمورات مقصودة لذاتها، إضافة إلى أن أداء السنن والاشتغال بالمأمورات هو الكفيل برفع البدع وزوال المخالفات.

هذا وبالله التوفيق.

(١) تفسير السعدي: ٧/ ٢٤، باختصار.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٤٧.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٨١ – ٤٨٣، باختصار.
(٤) وهي المذكورة في شعر عبد الله بن المبارك – رحمه الله –:
وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأحبارُ سوء ورهبانها
وقد احتفى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بالحديث عن هذه المعارضات الثلاث. ينظر: الاقتضاء: ٢/ ٥٩٨، والصواعق المرسلة: ٣/ ١٠٥١، والمدارج: ٢/ ٧٠.
(٥) مجموع الفتاوى: ٨/ ٣٢٠، ١٤/ ٣٩.
(٦) في المطبوع: أرادوا، ولعل الصواب ما أثبته.
(٧) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٣٨.
(٨) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩٥.
(٩) الاقتضاء: ٢/ ٦١٧.

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشروعنا وظف مختلف المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦